

التربية الإسلامية للناشئة

جمعه وحققه فضيلة المربي الأستاذ
عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

المرحلة الرابعة

منهاج دراسي

التربيةُ الإسلاميةُ للناشئةِ

المرحلةُ الرابعةُ

منهـاج

التربيةُ الإسلاميةُ للناشئةِ

(المرحلةُ الرابعةُ)

لفضيلة العلاَّمة الإنساني الكبير:

محمَّد أمين شيخو

(قدس الله سره)

جمعه وحقّقه المربي الأستاذ:

عبد القادر يحيى الشهير بالديراني

بإشراف فضيلة محدث دمشق الأكبر

المرحوم الشيخ محمد الديراني

تطلب كتب العلاَّمة محمد أمين شيخو من:

دار نور البشير

سوريا ـ دمشق ـ ص.ب: 11777

هاتف: 6329717 (0096311).

www.amin-sheikho.com

info@amin-sheikho.com



فَضِيلَةُ العَلَّامَةِ الإِنْسَانِي الكَبِيرِ
محمّد أمين شيخو
(قَدَّسَ اللّهُ سِرَّهُ)

التربيةُ الإِسلاميةُ للناشئةِ
المرحلةُ الرابعةُ

المدرسة......................

الصف........................

جَمَعَهُ وَحَقَّقَهُ فَضِيلَةُ المُرَبِّي الأُسْتَاذ
عبد القادر يحيى الشّهير بالدّيراني
بإشراف فضيلة محدّث دمشق الأكبر الشيخ محمّد الديراني

بسم الله الرحمن الرحيم

إهــــداء...

من سماء الرسول العظيم ﷺ، الشفوق الحليم الرحيم، الذي وهب روحه وحياته لأمته... صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

ومن ورثته الأبرار...

نقدم هذا المنهاج المبارك الجديد:

المرحلة الرابعة

(التربية الإسلامية للناشئة)

إلى طلابنا الأعزاء الصادقين للوصول والاقتفاء بأثر الرسول ﷺ الطامحين للنجاح والجنات العلى الراغبين بالمعرفة الحقيقية.

هدية مجانية قيِّمة

لا يجوز بيع هذا الكتاب


الفصل الأول
قسـم
الحفظ والتأويل

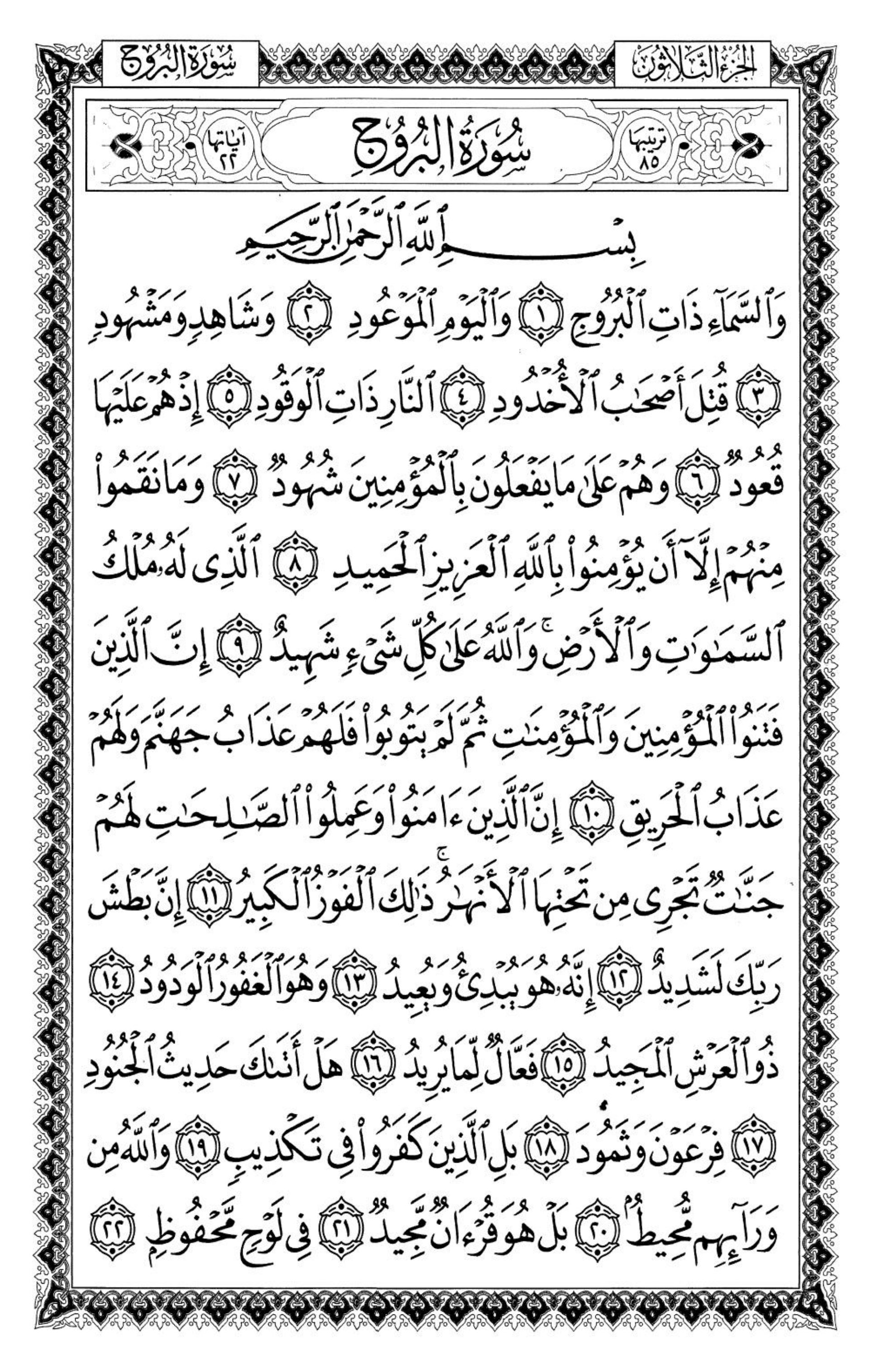


وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾

سورة الإسراء: الآية(9).

صدق الله العظيم

﴿ **إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ..**﴾ : الذي أَنزلناهُ على رَسولِنا في ليلةِ القَدْرِ يومَ أُسريَ به.
﴿ **..يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ..** ﴾ : للبشريةِ ، أهْدى وأَقومُ وأَمثلُ طريق.
خَلَقَكَ تعالى للسعادةِ لِتعيشَ في الدُّنيا سَعيداً وفي الآخرةِ سَعيداً.
﴿ **..وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ..**﴾ : دُنيا وآخِرة. ﴿ **..ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ..**﴾ : الصَّالحَ للإنسانيةِ، المثمِرَ لهُ دوماً يؤتي أُكُلَهُ كُلَّ حين بإذنِ رَبِّهِ، إذ لا شائبةَ فيهِ لأنَّ غايتَهُ بِعملهِ وجهُ الله، ونتاجُ هذا العملِ يُديمهُ اللهُ لهُ على الحرثِ والنَّسْلِ إلى يوم القيامةِ، المؤمِنُ حَقّاً يعملُ الصالحاتِ، يرى السعادةَ في الأعمالِ الصَّالحةِ، الصَّلاةُ كُلُّها وسائلُ للعَملِ الصَّالحِ، لتكونَ من أهلِ الإحسانِ. ﴿ **..أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾** ﴾ : لا نهايةَ ولا حدَّ لهذا العطاءِ.



سُورَةُ البُرُوجِ

ترتيبها ٨٥ — آياتها ٢٢

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ﴿٦﴾ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾

الدرس الأول　　تأويل سـورة البروج　　(1)

أَعزائيَ الطُّلابُ: في هذهِ السُّورةِ الكريمةِ يُريدُ اللهُ تعالى أن يحذِّرَ الإنسانَ من مُعارضةِ الحق وإيذاءِ الخَلْقِ ويدعو المعارضينَ للتُّوبةِ والرُّجوعِ إليهِ، فإن هُمْ استمرُّوا على سيرهمُ المنحرفِ ولم يتوبوا فلَهم عذابُ جهنَّمَ ولهمُ عذابُ الحريق.

وقد ساقَ لنا تعالى في مَطْلعِ هذه السورةِ ما يدلُّنا على عظمتِه وجلاله لتذعن نفوسُنا إليه وتُصغي قُلوبنا إلى كلامِهِ فقال تعالى: ﴿ **وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾** ﴾: فما هي: ﴿ **ٱلْبُرُوجِ** ﴾؟.

﴿ **ٱلْبُرُوجِ** ﴾: جمعُ بُرجٍ، وهو الحِصْنُ المنيعُ المتينُ والبناءُ المرتفعُ الظاهرُ.

تقول: بَرَجَ الشيء، أي: ظهرَ وارتفعَ..

والبرج أيضاً: مجموعةٌ من النُّجومِ ارتبطَتْ ببعضها وتماسكَتْ كما تتماسَكُ حِجارةُ الحِصنِ المنيعِ.

ومن البُروجِ التي في السَّماءِ اثنا عشرَ بُرجاً، أي: اثنتا عشْرة مجموعةً من النُّجومِ وقد سمَّوها بحسبِ شكْلِها، فهنالكَ بُرجُ الميزانِ وهو مؤلَّفٌ من نُجومٍ قد أَخذت شكلَ الميزانِ، وهنالكَ بُرجُ الدَّلْو، وبُرجُ العقْربِ، إلى غير ذلك.. والشمس تحلُّ في مناطقِ هذه البروجِ على حسبِ أشْهر السَّنةِ الشَّمسِيَّةِ.

فَمَنِ الذي جَعلَ هذا التنظيمَ وأَوجدَ هذه البُروجَ على هذا الشَّكلِ البديعِ!؟.

ثم إنَّ كلَّ نجمٍ من نجومِ البُروج إنما هو منبعٌ ضوئيٌ متّقدٌ ساطعٌ وقد يكونُ في بعضِ الأحيانِ أعظَمَ من الشَّمسِ لكنَّ شدَّةَ بعدهِ عنِ الأرضِ تجعَلُه يبدو صغيراً للعين.

فقد ذَكروا أنَّ النَّجمَ المسمَّى بقلبِ العقربِ وهو أحدُ نُجومِ بُرجِ العقرب وكما ورد في علمِ الفلكِ أنَّهُ أكبرُ من الأرضِ بأكثرَ من سبعينَ مليوناً من المراتِ، ولو

أنَّه حلَّ محلَّ الشمسِ لملأَ الفراغَ الكائنِ بين الشمسِ والأرضِ ولكانتِ الأرضُ نُقطةً فيهِ. فما هذه القوةُ التي تُمِدُّ هذا النَّجمَ بالضياءِ والنُّورِ؟! وما هذهِ القوةُ التي تمدُّ سائرَ النُّجومِ؟ ما هذه القوةُ التي تربطُ نُجومَ كلِّ بُرجٍ؟ وإن شئتَ فقل جميع نجومِ السَّماءِ بعضها ببعضٍ فإذا هي متماسكةٌ متجاذبةٌ لا يتغيَّر وضعُها ولا يختلِفُ نظامُها ولا تضعُف قوَّتها، فإذا السَّماءُ كلُّها بناءٌ واحدٌ تماسكَتْ نُجومُهُ ببعضها متجاذبةً مترابطةً ترابطَ حجارةِ البناءِ..

ولو أنَّ نجماً واحداً منها زال وانعدمَ لاختلفتْ مواضعُ النُّجومِ لا بل لاختلَّ نِظامُ السَّماءِ كلِّها ولما سارتِ الأرضُ سيرَها ولأصبحَ العالَمُ خراباً ولكان بقاؤهُ على ما نحنُ عليه مستحيلاً.

فكلُّ نجمٍ والحالةُ هذه إنَّما هو مُحافظٌ على كُتلتِه وقوَّته الجاذبةِ منذ أن خلقَه اللهُ حتى هذه الساعةِ ولا يزالُ على ذلك حتى تقومَ الساعةُ.

فيا تُرى مَن الذي يُمدُّ هذه النجوم كلَّها بتلك القوةِ؟. فهي مع اشعاعِها الدَّائِمِ مُنذُ ألوفِ السِّنين لم تَخبُ جَذوتُها ولم تَنطفئ شُعلتُها ولم تتناقصْ قوَّتها، ذلك كلُّه يدلُّكَ على اللهِ صاحبِ هذه القوَّةِ العظيمةِ اللامتناهيةِ التي تُمدُّ هذه النجومِ، وتُهيمنُ على ما في السَّماءِ، فإذا هي متماسِكةُ الأجرامِ مترابطةُ الأجزاءِ، وإذا الكونُ كلُّه جارٍ بنظام لا يغيّرهُ مرُّ العُصورِ وكرُّ الأجيالِ.

فإذا أنت آمنتَ باللهِ المهيمنِ على السَّماءِ ذاتِ البُروجِ، والقائِمِ على هذا الكونِ فاذكرْ يومَ القيامةِ ذلك اليوم الذي ستقفُ فيه بين يدي هذا الخالقِ العظيمِ الذي لا يخفى عليه شيءٌ، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ ﴾: إذاً الإيمان باللهِ تعالى من خلال التفكُّر بالسَّماءِ يقودُكَ إلى الإيمانِ بالآخرةِ والحسابِ.

فـ: ﴿ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ﴾: هو يومُ القيامةِ الذي وعَدَ اللهُ تعالى بهِ النَّاسَ بإعادةِ

خلْقهـم، كما وعـدَهمْ فيه بالجزاءِ على أعمالِهم.. ولـذلك قـال تعـالى: ﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ ﴾: **والشاهد**: هو النَّاظِرُ المُعايِنُ، تقول: شهِدَ فلانٌ الشِّيءَ، أي: عاينَهُ واطَّلعَ عليهِ.

والمشْهودُ: هو الشَّيءُ الذي نُعاينُه ونطَّلعُ عليهِ.

فالشَّخصُ الذي يُعاينُ القمرَ مثلاً ويراهُ أوَّل الشَّهرِ هو شاهِد، والقمر مَشهود.

ونرجعُ إلى الآيةِ الكريمةِ فنقول: **الشَّاهد** هنا: هو الإنسانُ الذي قامَ بالعملِ وقدَّمهُ إلى غيرهِ. **والمشهودُ**: هو الشَّخصُ الذي وقعَ عليهِ العملُ أو قُدِّم إليهِ. فالقاتلُ مثلاً شاهدٌ، والمقتولُ الذي وقع عليه القتلُ مشهودٌ، لأن الرجلينِ يومَ القيامةِ سيقفانِ بين يدي ربِّ العالمينَ ويشهدُ القاتلُ ما فَعلهُ بالمقتولِ، ويكونُ معنى الآياتِ السابقةِ: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ ﴾ أي: أنَّكَ أيُّها الإنسانُ إذا نظرتَ في السَّماءِ ذاتِ البُروجِ وعرفتَ قدرَ خالِقها الذي أوجدَها وأحْكَمَ صُنعَها فهنالكَ تؤمنُ باليومِ الآخرِ، وهو اليومُ الموعودُ فتعلمُ أنهُ حقٌ، وأنَّ هذا الخالقَ العظيمَ قادرٌ على خلقِكَ ثانيةً وإعادتِكَ.

كما تحذرُ عاقبةَ أعمالِكَ إذ تعلمُ أنَّ الذي خلقَ النجومَ وجعلها بروجاً وجمعها بقدرتهِ هذا الجمعَ البديعَ قادرٌ على أن يجمعَ الشَّاهدَ والمشهودَ ويوقفَهما للحسابِ بين يديه في ذلك اليومِ الموعودِ الذي لا ريبَ فيهِ.

ثم ساق لنا تعالى قصةً تُبيِّن عاقبةَ المعرضِ ونتائجَ أعمالهِ السيِّئةِ وما تعودُ به عليهِ قال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ﴾: **وقُتِلَ**: بمعنى هلكَ وذهبتْ حياتُه.

و: ﴿ قُتِلَ ﴾: هنا فعلٌ مبنيٌ للمجهولِ، فكلٌّ واحدٍ من أصحابِ الأخدود إنما أَهلكَ نفسَه بفعلهِ وما جنى عليه غيرُ عملهِ. و: ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾: هو الشَّقُ والحفرةُ المستطيلةُ في الأرضِ.

و﴿**أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ**﴾: همُ الأشخاصُ الذينَ حفروا تلك الحفرةَ المستطيلةَ في الأرضِ، وجعلوا يُلقون فيها من كانوا يقتلونَهم من المؤمنين.

خلاصة القصة:

لقد ذكروا أنَّ أحدَ الملوكِ الحِمْيَريِّين الذينَ ملكوا اليمنَ قبلَ بِعثةِ الرسولِ ﷺ وكان اسمُ ذلكَ الملكِ (**ذا نواس**) لم يَرُقْ له أن يرى جماعةً من أهلِ (**نجران**) يخالفونَه في دينهِ فيؤمنون برسالةِ سيدنا عيسى عليه السلام ويؤمنون باللهِ، بل أرادَ أن يُعيدَهم إلى دينهِ.. وكان يهودياً مُصرّاً على كُفرهِ ويهوديتهِ فأمرَ أعوانَهُ بتعذيبِ أولئكَ المؤمنينَ وتقتيلِهم وإلقائهم في الأُخدود أو أن يعودوا إلى الكُفر.. وقد أرادَ تعالى أن يبيِّنَ لنا نوعَ الجزاءِ الذي سيحلُّ بأولئكَ المعتدينَ فقال سبحانه: ﴿ **ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥** ﴾: أي: أنَّ أصحابَ الأُخدودِ أهْلكوا أنفسهم وقتلوها بعملهم لأنهم سيُصبحون أصحابَ النارِ ذاتِ الوقودِ.

و ﴿ **ٱلۡوَقُودِ** ﴾: مأخوذة من وَقَدَ بمعنى اشتعلَ.

و ﴿ **ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ** ﴾: أي: الشديدةُ الاشتعالِ. ثمَّ بيَّن لنا تعالى كيفيةَ عذابِهم فيها فقال سُبحانَه: ﴿ **إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦** ﴾: **والقُعُودٌ:** جمعُ قاعدٍ وهو الجالس..

فبسببِ ما فيهم من ألمٍ وعللٍ تجدُهم قُعوداً على النارِ لا يبرحون ولا يتحوَّلون عنها.

ثم بيَّنَ تعالى سببَ عذابِهم فيها ﴿ **وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧** ﴾: فهؤلاءِ حينما تنكشفُ لهم الحقيقةُ ويشاهدون عَملهم إزاءَ هؤلاءِ المؤمنينَ هنالك يتألَّمون مما فعلوه بهم ويحرِقُ الألمُ نفوسَهم فلا يجدون مَخلصاً من ذلك الألمِ المعنويِّ الرهيبِ سوى النار.

وعلى وجهِ المثالِ نقولُ:

لو أن رجلاً غابَ عن وعيهِ ساعةً فقامَ إلى زوجتهِ وأولادهِ النائمينَ فذبَحهم ذبحَ النِّعاجِ، وإنْ هي إلا ساعةٌ مضتْ حتى رجعَ له وعيهُ وثابَ إلى رشدهِ فرأى أولادَهُ وزوجتَهُ جُثثاً هامدةً ودِماؤهم جاريةٌ على الأرضِ.. فيا تُرى حينما يقف هذا الشاهدُ أمامَ المشهودينَ ما يكون عليه حالُه؟!.

هل تُراهُ يطيبُ له عيشٌ ويكون له نعيمٌ؟.

وهل يصرِفُهُ عن ألِمِه النفسي شيءٌ؟ إنه ليسَ يُغيِّبه عن ألمِهِ إلاّ ألمٌ جسديٌ عظيمٌ وليس من ألمٍ جسديٍ أعظمَ من حرقهِ بالنَّارِ.

وهكذا فالنَّارُ من رحمةِ اللهِ بأولئكَ الذين تتغلَّبُ عليهم آلامُهم النفسيةُ يومَ القيامةِ، بسببِ ما فَعلوه مع مَن قتلوهم وأَزهقوا أرواحهم، أو مَن سلبوا أموالهم، أوِ اعتدَوا على أعراضِهم، أو مع مَن ضلَّلوهم وكانوا سبباً في زيغهم عن الحقِ، تراهم يومئذٍ يقفونَ موقفاً يحزُّ فيه الألمُ قلوبَهم، فبسببِ إعراضِهم عن الرحمنِ الرحيمِ قست قلوبُهم وقاموا بأعمالٍ شريرةٍ عكسَ ما خُلقوا من أجلهِ من عملِ الخيرِ وعملِ الإحسانِ التي بها يرتقون في الجنَّاتِ، فعندما تزول دنياهم وتزولُ معها شهواتُهم الخبيثةُ التي كانت تحجُبهم عن الحقائقِ ويعودون لفطرةِ الكمالِ يرونَ فظائعَ ما اقترفوهُ وما كان سبباً لخسرانهم الحياةَ الحقيقيةَ الأبديةَ، خُسرانِهم لما أعدَّ لهمُ اللهُ مِن الخيراتِ السرمديةِ، لقد خَسروا جنَّاتِهمُ العُلى وانحطَت قيمتُهم الإنسانيةُ التي كانت سَتعلو بهم فوقَ كافةِ الخلائقِ غيرِ المكلَّفةِ، بل فقدوا مشاهدةَ خالقِ الجمالِ والمجدِ والجلالِ. كانوا لو استجابوا لربِّهم فآمنوا وعملوا الصالحاتِ سيتسنمونَ أعلى مكانةٍ في العالمين، فبإعراضِهم وأمراضِهم التي سببت لهم الخِزيَ والعارَ هَوَوا إلى أسفلِ سافلينَ وأصبحوا شرَّ

البَريةِ، فهنالكَ تشتعِلُ بهم نيرانُ الحسْرةِ والخجلِ، نيرانُ الانحطاطِ والسَّفالةِ والخِزي والخسارة، ويستجيرون باللهِ، يطلبون منه أنْ يحجبَهم عمَّا هم فيه من الألمِ النفسي المُهلكِ، وهناك يرحمُهم اللهُ بالنارِ التي هي بمثابةِ مستشفىً لتسكِّنَ آلامَهُم فيحمَدوا الله عليها ويرتموا في أحضانها ليغيبوا بحريقها وألمِ عذابها الجسدي عن ألِمهمُ النفسيِّ الذي لا يطاقُ لأن أجسادَهم التي ارتكبوا فيها هذه الجرائم تكون محاطةً بنفوسهمُ المُعرضةِ عن اللهِ والتي لم تعرفْ إلاَّ الجسمَ ومشتهياتهِ في حياتِهمُ الدنيا فبشخوصِ بصيرتهم إلى أجسادهم يعيشون بذكرى أعمالِهم الشريرة والمُترعةِ باللؤمِ والخُبثِ والمكْرِ فتلتهبُ نفوسُهم بنيرانِ خِزيهم وإجرامِهم حتى تشويَ نفوسهم شيّاً، فتأتي نيران اللَّظى لتُنسيهم آلامَهمُ النفسيةَ الفظيعةَ، فنارُ اللهِ الموقدةُ يَنزِعُ لظاها هذا الشوى النفسيَّ الذي يتحرَّقون به قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝﴾[1].

هذه النار الموقدة تُجدي وتُسكِّن ولكنَّها لا تشفي..

فكيف يكون الشفاء؟.

الحقيقة أنه لا شافيَ للنفوسِ المريضةِ ولا خلاصَ لها من عِلَلِها إلاَّ بالاتجاهِ إلى وجهِ ربِّها الكريمِ.. فالذين أحبُّوا هذه الدنيا واستغرقوا فيها وعملوا السيئاتِ إذا اتَّجهوا إلى اللهِ تعالى بالتوبةِ والإنابةِ سرى نورهُ إلى نفوسِهم وطهَّرها من أدرانِها الخبيثةِ ومُيولها السفليةِ وشفاها، لكنَّ كبرهم وإعراضَهم حجَبهم عن وجهِ ربِّهمُ الغفورِ الشافي فاحتاجوا إلى هذا الدواءِ المرِّ، وقانا الله جميعاً من أن تكونَ النارُ لِزاماً.

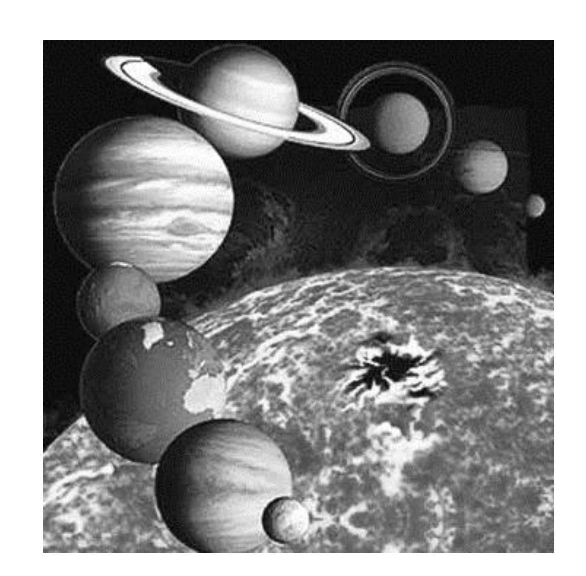


[1] سورة المعارج: الآية (15ـ16).

التدريبات:

❖ احفَظْ سُورةَ البُروجِ من أستاذكَ بالمدرسةِ جيداً وتعاونْ مع أصدقائِكَ وأهلكَ على حفظها غيباً.

❖ قُم بمراقبةِ ما تعرِفهُ من البُروج التي تُزيّنُ السَّماءَ لترى كيف هي متماسكةٌ متجاذبةٌ لا يتغيّرُ وضعُها وأبعادُها ضِمن مجموعاتِها مُنذُ ألوفِ السنينَ لتُدركَ أنّ هناك قوّةً عظيمةً لامتناهيةً تُهيمنُ على السَّماءِ وتُمدُّ هذه النُجومَ فإذا الكونُ كلُّه جارٍ بنظامٍ دقيقٍ فتعظِّمُ عندها خالِقكَ ومربيَكَ وتميلُ نفسُكَ إليه بالمحبةِ والتقديرِ والتعظيمِ وتؤمنُ بالسؤالِ والحسابِ.. فهذا هو المرادُ من إنزالِ هذه السورةِ الكريمةِ.





الأسئلة

1) قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝١﴾ إلى ماذا يُريدُ اللهُ تعالى أن يَلفِتَ نَظرَ الإنسانِ بمطلعِ هذه السُّورةِ الكريمةِ؟.

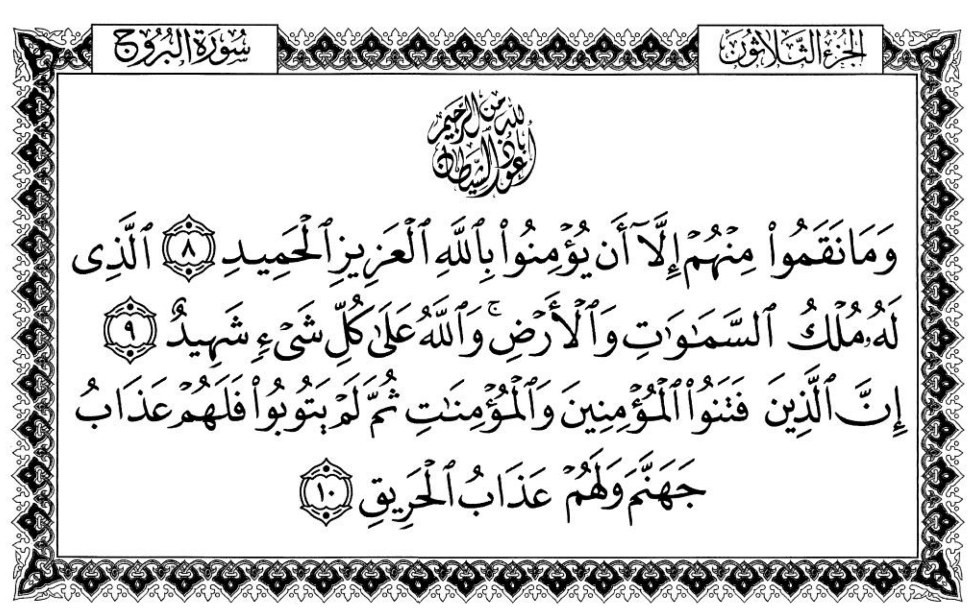
2) قال تعالى: ﴿وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۝٣﴾ ما هو الترابطُ بين هاتينِ الآيتينِ والآيةِ الأولى من سورةِ البُروجِ؟.

3) قال تعالى: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤﴾ من هو الذي قَتَلَ أصحابَ الأخدودِ؟.

4) تبيَّن لنا من الدرسِ أن أصحابَ الأخدودِ سيدخلون النارَ يومَ القيامةِ ويقعدونَ عليها، فما هو سببُ دُخولهمُ النارَ ولماذا يقبلونَ المكوثَ فيها؟. وهل النارُ تشفي نفوسَهمُ المريضةَ من خبثها وعللِها؟.



الدرس الثاني تتمة تأويل سـورة البروج (2)



أعزائيَ الطلابُ: رأينا بالدَّرسِ السَّابقِ كيف لفتَ تعالى نظرنا للتفكُّر في نُجومِ السماءِ.. ذلكَ التفكُّر الذي يقودنا إلى الإيمان باللهِ تعالى وباليوم الآخرِ.. يومِ الحسابِ والجزاءِ على الأعمالِ ، ورأينا كيف وضعَ تعالى بين أيدينا قصةً حقيقيةً للذين لم يفكروا بالسماءِ وبُروجِها العظيمةِ وبالتالي لم يؤمنوا باليومِ الآخرِ كيف كانت أعمالُهم السيئةُ سبباً لدخولهمُ النارَ يومَ القيامةِ.. ذلك هو يومئذ حالُ أصحابِ الأخدودِ إنهم في الشقاءِ والحرمانِ بسبب قتلهمْ لأولئكَ المؤمنينَ ولم يكُن لأولئكَ المؤمنينَ ذنبٌ ولا جرمٌ.. فقط لأنَّهم رفضوا الكفرَ وأرادوا السيرَ بالحقِ نقمَ منهم أصحابُ الأخدودِ وقتلوهم قال تعالى :

﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ ﴾.

ونَقَمَ منه : أي : عاقَبهُ عِقاباً يُخرِجُ من نفسِه ما فيها وما انطوت عليهِ.

النِقمةُ : إنما تكونُ على حسبِ حال الناقمِ ، فإن كان ذا صفةٍ عاليةٍ كانت نِقمتُه سبباً في خروج الفسادِ من قلبِ مَن نقَمَ منهُ. فالأبُ والمعلِّمُ المخلصُ ينقمانِ من الطفلِ أي : يعاقبانه عقاباً ينتزع من نفسهِ ما فيها من الشَّرِ.

أمَّا أصحابُ الصفةِ الدنيئةِ والنفسِ المنحطةِ فإنما ينقِمُ من غريمِهِ ظُلماً وبَغياً ، وليست له غايةٌ سوى تجريدِ من ينقِمُ منه من كلِّ ما يتمتَّعُ به من نعمةٍ.

والانتقامُ والحالةُ هذه على صورٍ شتَّى.. فإما أن يعمدَ الناقِمُ إلى إخراجِ من ينقِم منهُ من وظيفتهِ وحرمانهِ مما كان ينالُه بسببها من الخير.. وإما أن يعمدَ إلى حبسهِ وتجريدهِ من حرِّيته.. وإما أن يعمد إلى قتلهِ وإخراج روحهِ.. وإما أن يشدِّد عليه لينتزعَ إيمانه من قلبه. وحيث إنَّ أصحابَ الأُخدود كانوا من ذوي النفوس المنحطةِ لذلك عمدوا في نقمتهم إلى إخراج أرواح المؤمنين تشديداً عليهم وسعياً في رَدِّهم عن إيمانهم ، ولذلك تراهُم يومَ القيامةِ يتألَّمون كثيراً عندما يرونَ أن أولئكَ المؤمنين لم يكن لهم ذنبٌ ولا جُرمٌ ، وأنّ نقمتهم منهم لم تكن إلا أن يؤمنوا بالله.

ويدلُّك لفظ كلمة ﴿ **بِٱللَّهِ** ﴾ : أي بالمسيِّر لهذا الكونِ.

﴿ **ٱلْعَزِيزِ** ﴾ : أي : المتفرّدِ في الكمالِ.

﴿ **ٱلْحَمِيدِ** ﴾ : أي : الذي يُحمد على كلِّ ما يسوقُه لعبادهِ.

﴿ **ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ أي : المالكُ المتصرِّفُ بشؤونِ كلِّ ما في السمواتِ والأرضِ ، فهو الممدُّ لها بالوجودِ المتفضِّلُ عليها بالحياة.. وهو الذي يَهبَها كل ما تحتاجُ إليه ، ويسيِّرها فيما يعودُ عليها وعلى الكونِ بالخير. ﴿ **وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩** ﴾ : والشَهِيدُ : هو المشاهِدُ الرقيبُ.. فكلُّ ما تفعله أيها الإنسان محفوظ عنده تعالى وهو معك أينما كنتَ ، ناظرٌ إليكَ ومطَّلعٌ عليكَ.

وبعد أن ساق لنا تعالى هذه الواقعةَ التاريخيةَ وذكَّرنا بما سيحلُ بأولئكَ المعتدينَ.

أراد تعالى أن يحذِّر الكافرينَ من أن يفتِنوا المؤمنين فقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾. **وفتنهُ:** أي: بَعثَ فيه الميلَ والإعجابَ بالشيءِ. تقول: **فتن** المالُ الرجلَ أي: استمالهُ فاستولى على قلبهِ وأُعجب به.

و**فتنت** الدنيا فلاناً، أي: أنه رأى زينتَها وبَهرجَها فمالَ إليها وأصبحَ معجباً بها، فهي موضع هَمّهِ والشغلُ الشاغلُ لنفسهِ.

كما تكونُ **الفتنةُ** أي الإعجابُ بالشيءِ الدنيءِ المنحطِ.. تكون أيضاً بالشيءِ الطيبِ الطاهرِ، ولكل امرئٍ في هذه الحياة فتنةٌ تتناسبُ مع حالِه.

فأهل الإقبالِ على اللهِ الذين شهدوا بنورهِ الحقائقَ وميَّزوا الخيرَ من الشرِ تجدُهم **يُفتنون** أي: يميلون ويُعجَبون بالخيرِ والكمالِ.

والذين عَميتَ بصائِرُهم بإعراضِهم عن اللهِ تراهُم **يفتنون** أي: يميلون ويستهوون الأشياءَ الخبيثةَ الدنيئةَ لأنهم حُجبوا عن رؤيةِ حقائِقها المنحطةِ ولم يشهدوا غيرَ صورِها الظاهرةِ.

فالمُعرِضُ عن اللهِ المفتونُ بالدنيا لا يروقُ له أن يرى المؤمنَ مخالفاً له في سيرهِ، لذلك تراهُ يسعى جُهدَه في أن يجعلَ المؤمنَ يُفتن مثلهُ بالأشياءِ الدنيئةِ.

وقد هدَّد الله الذين يُريدون أن يفتِنوا المؤمنينَ والمؤمناتِ بعذابين ، بعذابِ جهنمَ وعذابِ الحريقِ. فما هو: ﴿ **عَذَابُ جَهَنَّمَ** ﴾ ؟.

﴿ **جَهَنَّمَ** ﴾**:** اسمٌ للدارِ التي يُعالجُ فيها أربابُ العللِ والأمراضِ النفسيةِ في الآخرةِ وهي أشْبهُ بالمستشفى في هذه الحياةِ الدنيويةِ. كما أن جهنمَ هي الحالةُ النفسيةُ المقيتةُ التي يتلبسُ بها المعرِضُ عن اللهِ تعالى، فالإنسانُ حين تنكشفُ له أحوالُهُ وكلُّ أعمالِهِ السيئةِ ويراها ماثلةً أمامهُ مطبوعةً فيهِ فإن العارَ والخزيَ يُشعلُ

به فتغدو النفسُ وكلُّها نيرانٌ بسبب بعدِها وإعراضِها الكُلّي عن خالِقها عندها يستجيرُ هذا المعرِضُ بربهِ طالباً تخليصهُ من هذه الحالةِ المرعبةِ فيُدخِلُهُ تعالى إلى النارِ لِيُحرَقَ فيها تخفيفاً له لما يقاسيهِ من شدةِ الآلامِ وفي الحديثِ الشريفِ:

« إنَّ العارَ ليلزمُ المرءَ يومَ القيامةِ حتى يقول: ياربِّ لإرسالُكَ بي إلى النارِ أيسرُ عليَّ ممَّا ألقى وإنه ليعْلَمُ ما فيها من شدَّةِ العذابِ »[1].

فللكافرِ إذاً عذابُ جهنمَ، إذ إنه لا يجد في ذلك المستشفى الأخروي شيئاً مما يَسُرُّه أو يأنسُ به.. فلا جليسَ ولا طعامَ ولا شرابَ ولا فراشَ يسرُّ، بل كل ذلك مؤلمٌ مكدِّرٌ.. أما: ﴿ **عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ** ﴾: أي المداواة في تلك المشفى إنما تكونُ بالحرقِ بالنارِ..فهم يصبرون على حرق النارِ وآلامِ ذلك الحرقِ الشديدِ مثلما يصبرُ المريضُ بين يدي الطبيبِ على آلام العملياتِ الجراحيةِ.. فإذا أُحرقوا بها أعقبَ ذلك الحرقَ ألمٌ شديدٌ.. قال تعالى: ﴿**أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ**  ﴾[2] ولذلك حذَّر اللهُ تعالى الذينَ يفتِنون المؤمنين والمؤمناتِ ولا يرجِعون عن عملهم تائبين بعذابِ جهنمَ وعذابِ الحريقِ.

❖❖❖

(1) الجامع الصغير /2059/ (ك) عن جابر (ح).

(2) سورة البقرة: الآية(175).

التدريبات:

❖ عليّ أن أعلمَ أنّه مهما توفّرت لي أسباب القوّةِ فلا شيءَ يحولُ دون وقوعي في البلاءاتِ والمصائبِ وذلك إن عَصيتُ اللهَ، فاللهُ قد منحني هذه القوةَ لتكونَ عوناً لي على السيرِ في طريقِ الحقِّ ومساعدةِ العبادِ وليس وسيلةً للاستعلاءِ والسيطرةِ. لذلك يجبُ عليَّ أن أحاسِبَ نفسي قبل أن أحاسَبَ غداً، وإذا ما قصّرتُ في مَدِّ يدِ العونِ والمساعدةِ علَيَّ أن أتلافى تقصيري، وإذا ما أخطأتُ علَيَّ أن أصحّحَ خَطئي.

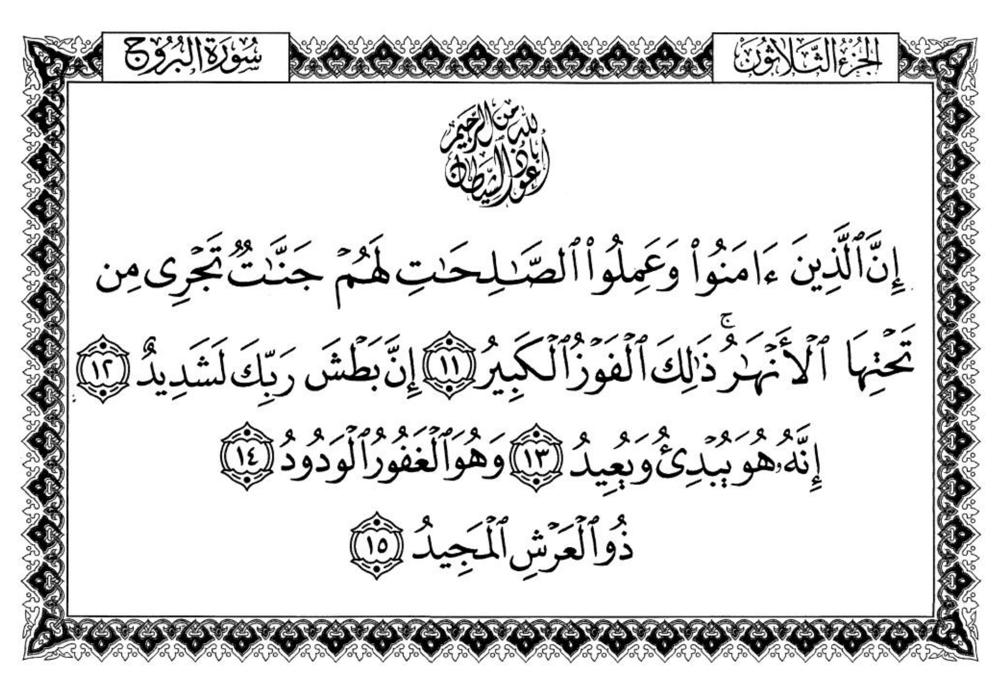
"حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا
وزنوها قبل أن توزنوا"

الأسئلة

1) ما هو معنى كلمة : **(الفتنة)؟.**

2) قال تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾** ﴾. أصحابُ الأخدودِ يومَ القيامةِ لهم عذابان.. فما هو ﴿ **عَذَابُ جَهَنَّمَ** ﴾ وما هو : ﴿ **عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ** ﴾؟.





أعزائي الطلابُ: بعد أن بيَّنَ لنا تعالى الحالةَ المرعبةَ التي أحَلَّ بها أصحابُ الأُخدودِ أنفُسَهم، وأن النارَ مأواهمْ ومثواهمْ يوم القيامةِ، ومثوى كلِّ إنسانٍ يقومُ بمثلِ ما قاموا به من الأعمالِ الإجراميةِ والأفعالِ السيئةِ.

ذكرَ لنا تعالى البشْرى للذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ بما سيلقونه من الإكرامِ فقالَ تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١** ﴾. وقد ذكر اللهُ تعالى العملَ الصالحَ بعدَ الإيمانِ لأن العملَ الصالحَ من لوازمِ الإيمانِ ونتائجهِ.. فالإقبالُ على اللهِ والاستنارةُ بنورهِ تجعلُ الإنسانَ يرى الخيرَ من الشَّرِ ويشهدُ ما في العملِ الصالحِ من الخيراتِ وما يعودُ به على صاحبهِ من السعادةِ وهنالك يبادرُ إليهِ ويسارعُ فيه.

و ﴿**ٱلصَّٰلِحَٰتِ**﴾: كلمةٌ عامةٌ تشملُ كلَّ ما فيهِ إصلاحٌ وإحسانٌ للمخلوقاتِ

عامةً وذلك مما حَضَّ القرآنُ عليهِ وأمرَ بهِ: كمساعدةِ العاجزِ ونُصرَةِ المظلومِ والعطفِ على الفقيرِ البائسِ والأخذِ بيد الضالِ إلى طريقِ الهدى والرشادِ إلى غير ذلك من الأعمالِ الإنسانيةِ.

فالذين آمنوا وأنتجَ لهم إيمانُهم العملَ الصالحَ سيجزيهم ربُّهم في الآخرةِ بجناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ.

و﴿ **جَنَّٰتٌ** ﴾: جمعُ جنَّةٍ مأخوذةٌ من جنَّ، بمعنى: سَتَرَ. يُقالُ أَجنَّ الليلُ فلاناً، أي: سترهُ وأخفاهُ. ومنه الجنين: وهو الولدُ ما دام في بطنِ أمِّهِ.

ويكونُ معنى **الجنَّةِ:** كل ما يشعرُ به الإنسانُ من السرورِ المعنوي وما يجدهُ في نفسهِ من النعيمِ الخفي حينما يرى شيئاً من الأشياءِ السارَّة.

تقول: هذه الحديقةُ جنةٌ، أي: أنَّها بسبب جمالِ منظرها تَبعثُ في النفسِ سروراً داخلياً ونعيماً نفسياً.

وتقول أيضاً: كنا خلالَ سماعِنا لحديثِ فلانٍ في جنةٍ. وفي الحديث الشريف: «**مجلسُ العلمِ روضةٌ من رياضِ الجنة**»[1].

والمؤمن في الآخرةِ عندما يشهدُ ما يُكرِمُه به ربُّه من الإكرامِ وما يتفضَّلُ به عليهِ تعالى من النعيمِ يجدُ سروراً نفسياً ويشعر بنعيمٍ داخليٍ، فهو مغمورٌ بالتجلِّي الإلٰهي العالي. وحيث إن السرورَ متزايدٌ ينتقلُ فيه المؤمنُ من حسنٍ إلى أحسنَ ومن جميلٍ إلى أجملَ لذلك عبَّر اللهُ تعالى عنه بصيغةِ الجمعِ فقال تعالى: ﴿ **جَنَّٰتٌ** ﴾. ثم بيَّن لنا تعالى أن ذلك النعيمَ النفسي من دونه نعيمٌ آخرَ يتذوَّقُ به المؤمنُ مادةَ الأشياءِ وعبَّر عن ذلك بقوله الكريم: ﴿ **تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ** ﴾:

أي: من دون ذلك النعيمِ النفسي العالي نعيمٌ ماديٌ كثيرٌ وذلك ما تشير إليه

---

(1) قال ﷺ: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قيل: يا رسول الله وما رياض الجنة؟ قال: مجالسة العلماء**». الطبراني في الكبير 95/11.

كلمةُ: ﴿ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ إذ أنَّ النهرَ هو الشيءُ الكثيرُ الجاري بصورةٍ مستمرةٍ.

فالفواكهُ والأشربةُ والأطعمةُ واللبنُ والعسلُ وغير ذلكَ من صنوفِ النعيمِ يُقدَّم للمؤمنِ في الجنةِ بصورةٍ متتاليةٍ مُستمرةٍ.

ثم بيَّن لنا تعالى أن الذي يتوصَّلُ إلى تلك الجنَّاتِ وينالُ ذلك النعيمَ فقد ظفرَ بالخيرِ العظيمِ الذي لا نهايةَ له وعبَّر عن ذلك بكلمة: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾: أي: إنَّ هذه الجناتِ التي تجري من تحتها الأنهارُ إذا سعى الإنسانُ إليها وقدَّمَ من الأعمالِ الصالحةِ ما يجعلهُ أهلاً لها فقد فازَ أي: ظَفِرَ بما أعدّهُ الله تعالى من الخيرِ الكبيرِ الذي لا يُحدُّ ولا يتناهى. ثم حذَّر تعالى الإنسانَ من الاستمرارِ في غيِّهِ وعدمِ الإصغاءِ لأمرِ ربهِ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ ﴾: والبطشُ: هو الأخذُ بصولةٍ وشدَّةٍ. تقول: بطشَ الأسدُ بالفريسةِ، أي: ضربها ضربةً شديدةً مُهلِكةً لم تستطعِ التفلُّتَ منها. ونقول أيضاً: بطشَ **الجيشُ** بالعدوِ، أي: ضربهُ ضربةً شديدةً لم تقمْ له بعدها قائمةٌ. **ويكون المرادُ من هذه الآية الكريمةِ:**

أي أنَّك أيها الإنسانُ إن لم ترجِع عن الاسترسالِ في شهواتكَ، ولم تصْغِ إلى أمرِ ربِّكَ فاعلمْ أن عاقبةَ ما أنتَ فيه الهلاكُ والدمارُ، وأنه لا بدَّ لكَ من أن تُصيبكَ ضربةٌ من الضرباتِ الشديدةِ تسلبُ منكَ ما أنتَ فيه من جاهٍ عريضٍ أو مالٍ وفيرٍ وتذهبُ بما أوتيتهُ من قوةٍ وصحةٍ ومُلكٍ وسيطرةٍ. قال تعالى:

(وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ۝١٠٢)[1].

ثم بيَّن لك تعالى أن الذي خلقكَ وبدأكَ قادرٌ على أن يعيدكَ فقال تعالى:

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ ﴾: و **يُبۡدِئُ**: مأخوذة من بدأ.

تقول: بدأ اللهُ الخلقَ، أي: خلقَهم وأنشَأهم وأخرجَهم للوجودِ لأولِ مرةٍ، فهو تعالى المبدئُ أي مُخرجُ هذه الكائناتِ كلِّها لهذا الوجودِ.

---

(1) سورة هود: الآية (102).

﴿**وَيُعِيدُ**﴾: مأخوذةٌ من أعادَ بمعنى: أرجَع وكرَّر.

تقول: أعادَ فلانٌ الجملةَ، أي: كرَّرها مرةً بعد مرةٍ، وأعادَ اللهُ الخَلْقَ، أي: خلقهم ثانيةً بعد موتهم.

فاللهُ تعالى الذي بدأكَ أولَ مرةٍ وأوجدكَ على هذا الخَلْق البديعِ لا يصعبُ عليهِ أن يعيدَكَ بل إنَّ ذلكَ على اللهِ يسيرٌ.

﴿ **وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ** ﴿١٤﴾ ﴾: و **ٱلْغَفُورُ**: هو الساترُ. مأخوذةٌ من غفرَ بمعنى: سترَ. تقولُ: غفرَ الدرعُ الرجلَ في المعركةِ، أي: سترهُ من الطعنِ والضربِ، ومنه المِغْفَر وهو زردٌ من الحديدِ يَلبسُه المحاربُ على رأسهِ ليكونَ ساتراً له وواقياً.

فالله تعالى **غفورٌ** أي: ساترٌ، فإذا أقبلتْ عليه النفسُ سُتِرت بنورهِ من الوقوعِ في السيئاتِ. وهذا يوضِّح لنا الآياتِ التي ذُكرت فيها المغفرةُ بحقِ الأنبياءِ الكرامِ كقوله تعالى: (**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**..)[1].

أي: بهذه المعرفة التي حصلت لكَ بربِّكَ من إقبالكَ العالي عليهِ سُتِرتْ نفسُكَ بنورهِ تعالى، فحُفِظتْ من الوقوعِ في الذنوبِ فيما تقدَّم الرسالةَ وما تأخَّر أي: وما بعدها. وذلك أيضاً هو حالُ جميعِ الأنبياءِ، وكلُّ مؤمنٍ إذا أقبلَ على اللهِ سُترتْ نفسُه بنورِ ربِّهِ ووُقيتْ من السيئاتِ.

ويأتي اسم: ﴿ **ٱلْغَفُورُ** ﴾ أيضاً بمعنى: الشافي الذي يُعيدُ النفسَ الملوَّثةَ بجرثومِ المعصيةِ لحالها الأولِ من الصحةِ والطهارةِ المعنوية، إذ إنَّ كلمة **(غفور)** مأخوذةٌ من غفرَ بمعنى: أصلحَ.

تقول: غفرَ فلانٌ الدرعَ، وغفرَ الثوبَ بمعنى: أصلَحهُ وأعادهُ لحالهِ الأول.

---

[1] سورة الفتح: الآية (1ـ 2).

فالله تعالى خلق الأنفس طاهرةً طيبةً، فإن هي أعرضَتْ عن ربها وحصلتْ لها الغفْلَةُ علقَ بها جرثومُ الشهواتِ الخبيثةِ المحرَّمةِ، وتلوَّثتْ به، وأصبحتْ تميلُ إلى الأشياءِ المنحطةِ الدنيئةِ، فإن هي عادت إلى ربِّها مُقبلةً عليه كان نورهُ تعالى مُطهِّراً لها وسبباً في شِفائِها مما علِق بها، وساتراً لها من أذى ذلك الجرثومِ.

وننتقلُ الآن إلى كلمة: ﴿ **ٱلْوَدُودُ** ﴾: التي هي أيضاً من أسمائهِ تعالى مأخوذةٌ من ودَّ، **تقول**: ودَّني فلانٌ،أي: قدّمَ لي من المعروفِ والمعاملةِ الحسنةِ ما يستجلبني نحوهُ ويجعلني أميلُ إليه.

وكذلك اللهُ ربُّ العالمين **(وَدُودُ)،** أي دوماً يسوق لعبادهِ من النِعمِ وصنوفِ الخيراتِ ما يستجلبهم نحوهُ، ويجعلُهم يميلون إليه.

﴿ **ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾** ﴾: والْعَرْش: لغةً سقفُ البيتِ، والعرشُ أيضاً: المظلةُ والخيمةُ، ومنه العريشُ وهو شبهُ الخيمةِ يُنصبُ للقائدِ في المعركةِ، فيستظلُّ به ويأوي إليه.

ويكونُ ما نفهمهُ من كلمةِ: ﴿ **ٱلْعَرْش** ﴾ الواردةِ في هذه الآيةِ وأمثالها بمعنى التجلِّي والإمدادِ الإلٰهيِّ الساري في المخلوقاتِ، والذي به قامَتِ الأشياءُ، فجاءت على هذا الوجهِ العالي من الكمالِ. فلو أنه تعالى قطعَ إمدادَهُ عن الشَّمسِ لحظةً لانْطفأتْ، لا بلِ انعدَمتْ ولم يَعُد لها وجودٌ ولا بقاءٌ. وكذلكَ الأرضُ وما عليها والسَّماءُ وما فيها، وكلُّ ما تشهدُه وتراهُ قائِمٌ بنورهِ تعالى وإمدادهِ، وذلك ما نفهمهُ من كلمةِ ﴿ **ذُو ٱلْعَرْشِ** ﴾: أي صاحبُ التجلي العالي الشامل، المِمدُّ بالوجودِ والحياةِ.

أما كلمةُ ﴿ **ٱلْمَجِيدُ** ﴾: فهي مأخوذةٌ من مَجَدَ بمعنى: علا وارتفعَ. فإذا أنت رأيتَ خيرهُ تعالى وفضلَه الواسعَ العميمَ فإنك تُمجِّده وتُكبِّرهُ لأنك لا تستطيعُ أن تجدَ

لذلك الخيرِ والفضلِ نهايةً أو حدّاً.

وإذا أنتَ نظرتَ أيها الإنسانُ لهذا الكونِ نظراتِ المفكِّرِ المتأمِّلِ رجعتَ من نظراتك مُستعظِماً هذا الخالقَ مغمورَ النفسِ بجلالهِ تعالى وعظمتِه.

فإن أنت استسلمتَ بالطاعةِ لأوامرِ هذا الخالقِ العظيمِ وأحسنتَ لمخلوقاتهِ أورثَكَ استسلامُكَ هذا وإحسانُكَ ثقةً بنفسكَ من أنَّ اللهَ تعالى راضٍ عنك. وثقتُك هذه برضاءِ اللهِ عنك تجعلُكَ تُقْبِل عليه تعالى إقبالاً نفسياً وبإقبالِكَ عليه تشهدُ أنه تعالى: ﴿ **ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ** ﴾. أي: إنَّك تشهدُ تجلِّيه تعالى وإمدادَه لخلقِه البالغَ في الكمالِ وهناك تُمجِّدُ ربَّك وتكبِرُ فضلهُ وترى وِدَّه تعالى لك ولسائرِ خلقهِ.

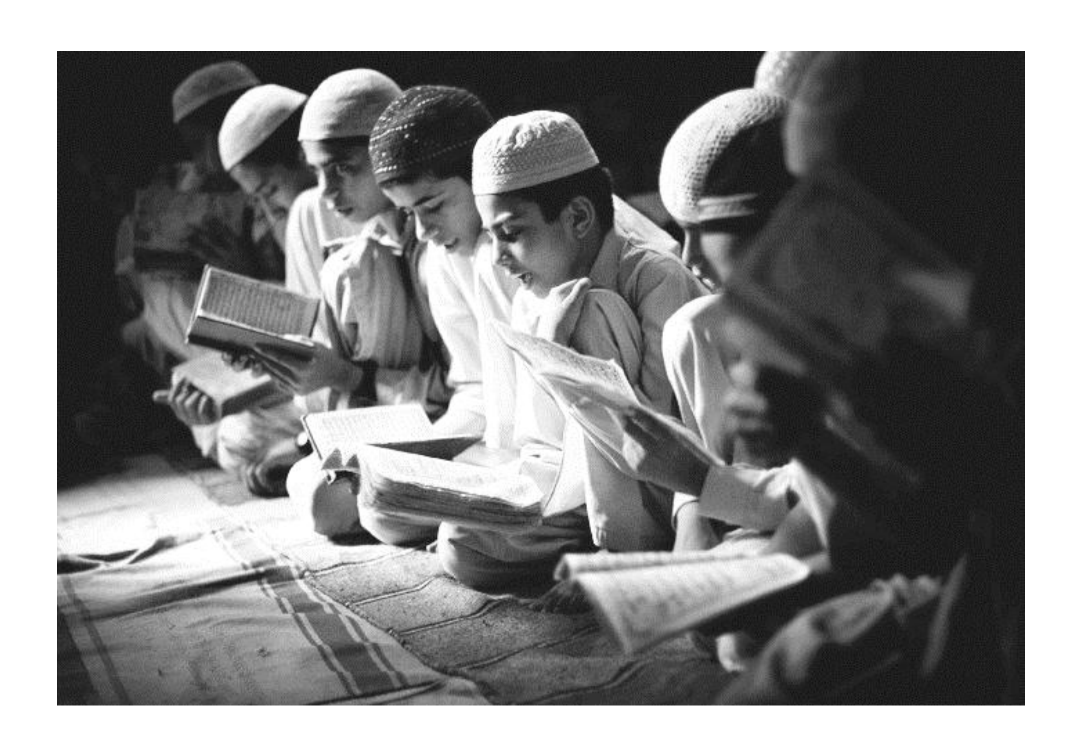
وفي هذه المرحلةِ التي أنت فيها من رؤية الكمالِ والودّ الإلٰهي تحبُّ ربَّك صاحبَ الكمالِ، إذ إنَّ الحبَّ لا يكونُ إلا بعد الشُّهودِ والعَيانِ. وبهذا الحبِّ تستنيرُ نفسُكَ بنورهِ تعالى فتشهدُ الأشياءَ المنحطةَ الخبيثةَ على حقيقتِها، فتنفرُ وتشمئزُّ منها وهنالك تحصلُ لك المغفرةُ ويشملُكَ اسمُ الغفورِ. إذ يكون نوره تعالى شافياً لنفسك مما علِقَ بها من قبلُ وساتراً لها من الميل إلى تلك الأشياءِ المحرَّمةِ من بعدِ أن رأيتَ ما فيها.



التدريبات:

❖ احفظِ السورةَ الكريمةَ جيداً واقرأْها مع أصدقائكَ غيباً.. ومن ثّمَ تحاوَرْ معهم ومع أهلكَ بما درسْتَهَ في تأويلها الكريم.. فإن دراسةَ الآياتِ والحوارِ فيها يُحفِّزُكَ للسَّير والتطبيقِ العملي للإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ.. أما الحِفظُ وحدَهُ فإنه لا يكفي لنيلِ المعرفةِ والتقرُّب إلى اللهِ تعالى.. بل لا بدَّ من التفكُّرِ والنقاشِ حولَ معاني الآياتِ وحولَ السعي الدّؤوبِ لتطبيقِ ما أمرَ اللهُ فيها.

❖ ما هو الدليلُ الذي تثبتُ من خلالهِ لنفسكَ أن اللهَ تعالى سيبعثُكَ ثانيةً من بعدِ الموتِ؟.



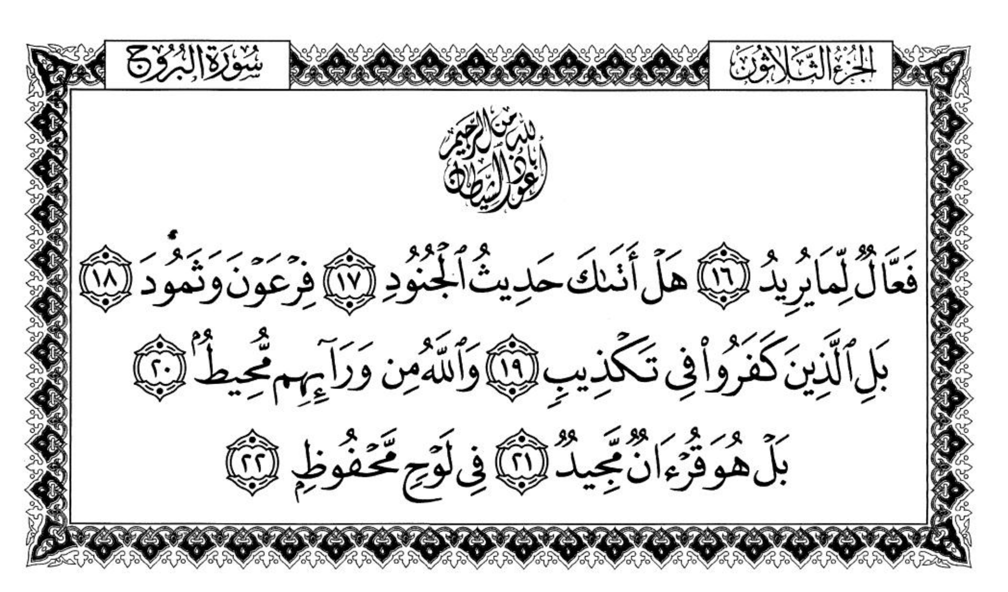
الأسئلة

1) ما الذي يشهدُه المؤمنُ يومَ القيامةِ لكي يكونَ بالجنةِ؟.

2) اشرح قوله تعالى: ﴿**إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا**  **لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**..﴾.

3) ورد بالدرس شرحٌ لاسمِ الله **(الْوَدُودُ)**، وهو أنَّ اللهَ تعالى دوماً يسوق لعباده من النِّعم وصنوف الخيراتِ ما يستجلبهم نحوهُ ويجعلُهم يميلون إليه. اذكر بعضَ النِّعم التي أنعمَ اللهُ بها عليكَ وعدِّد خواصها ومنافعها معتمداً على الواقعِ العملي دونَ الاستعانة بالمراجع.

❖❖❖



عزيزيَ الطالبُ: بعد أن عرَّفك تعالى بالآياتِ السابقةِ من سُورةِ البُروج بعظمتهِ وقوتهِ، وبعد أن ساقَ لك من الأمثلةِ والآياتِ ما يعرِّفك بفضلهِ وعالي إحسانهِ بيَّن لك في هذه الآياتِ أنه لا يصعُبُ عليهِ أن يسوقَ لك ما وعدكَ به من الخيرِ فقال تعالى: ﴿ **فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴿١٦﴾ ﴾.

ثم إن الله تعالى أرادَ أن يُلفتَ نظرنا إلى ما حلَّ بالذين خَلوْا من قبلُ ممن لم يعبؤوا بما جاءَهم به الرُّسُلُ من الإنذاراتِ والدلالةِ ليكونَ لنا من هذه الذكرى موعظةً وعِبرةً، وأوردَ تعالى ذلك بصيغةِ الاستفهامِ ليكونَ أوقعَ أثراً في نفوسِنا وأَدْعى لانْتباهنا فقال تعالى: ﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ** ﴿١٧﴾ ﴾: أي: أما علمتَ.. أما بلغكَ حديثُ الجنودِ.. أي خبرُ هلاكِ أصحابِ الجيوشِ القويةِ وما كانت عاقبتهم! ألا تحذَرُ أن يصيبَكَ ما أصابهم من بعدِ أن عارضوا وكذَّبوا رُسُلَهم.

وقد عبَّر تعالى عن قوَّتهم وكثرتهم بكلمةِ: ﴿ **الْجُنُودِ** ﴾. إذ الجنودُ جمعُ جُندي،

وهو رمزُ القوةِ والشِّدَةِ.. ومنه الجنْد أي: الأرض الغليظة. ثم بيَّن تعالى المقصودين بكلمة: ﴿ ٱلْجُنُودِ ﴾ فقال تعالى: ﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ ﴾: أي: جنود فرعونَ وقومِ ثمود.

ثم بيَّن تعالى أن الكافر ما دام مُصراً على كُفرِه وإعراضهِ فلا يمكنُ أن يرجعَ إلى الحقِّ ولا أن يهتدي إليه فقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ ﴾: و﴿تَكْذِيبٍ﴾: هو إنكارُ الأمرِ وجحودُه. والمرادُ بالتكذيبِ هنا عدمُ الاعتبارِ بما جرى لهؤلاء.

فالكفرُ أي الإعراضُ عن اللهِ تعالى.. وإن شئتَ فقل تَرْكُ الصَّلاةِ وانقطاعُ الصِّلَةِ باللهِ يجعلُ النفسَ عمياءَ لا ترى ما في شهواتها من الأذى، ولذلك تراها لا تحذرُ عواقِبَها ولا تحسُّ ما ستجرُّه لها، فمهما ذكَّرتها لا تتذكرُ ومهما وعظتها لا تتعِظُ.

(..وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾)[1].

(..وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾)[2].

فإذا أنت أيها الإنسانُ لم تفكِّر في الكونِ، ولم تتعرَّف إلى خالقكَ، وإن أنت لم تُصلِّ الصلاةَ الحقيقيةَ وتجعلْ لنفسك صلةً باللهِ، فلا يمكنُ لك أن تتعظَ بما يُساقُ لك من مواعظَ وعبرٍ، لأن شهوتَك المنصوبةَ أمام عينِكَ تحجُبك عن العواقبِ فلا تعودُ تنتبهُ لشيءٍ، وفي الحديث الشريف: « **حبُّكَ الشيء يعمي ويصمّ** »[3].

فارجع إلى الله لتتعرّف إلى الحقِ وتهتدي إليه، إذ بإقبالك عليه ينطبعُ الكمالُ في نفسك، فتعرفُ الحقَّ وتعتبر.

أما الكافرُ فما دام لا يلتفتُ إلى ربهِ فهو دوماً غارقٌ في شهواته فمن سيِّء إلى

---

(1) سورة آل عمران: الآية (7).

(2) سورة غافر: الآية (13).

(3) كنز العمال 115/16 برقم 44104.

أسوأ ؛ وقد بيَّن تعالى عن استمرار الكافرِ في تكذيبهِ بكلمة : ﴿ **فِي تَكۡذِيبٍ** ﴾ أي : إنه يكذِّبُ باستمرارٍ بكل شيءٍ ولا يتَّعظُ بشيءٍ. ثم بيَّن تعالى أن الكافرَ في فعلهِ ومباشرتهِ الأعمالَ لا يستطيعُ أن يخرجَ عن إرادةِ الله تعالى فقال تعالى : ﴿ **وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ** ﴿٢٠﴾ ﴾ أي : أنَّهم وإنْ كانوا مطلقين في إرادتهم واختيارهم ، إلاَّ أنَّ مباشرتَهُم الأعمالَ متوقِّفةٌ على إمدادِ اللهِ تعالى لهم بالقوةِ. فخُبْثُهم المستقرُّ في نفوسهم لا يمكنُ أن يخرجَ ويبرزَ إلى حيِّزِ الفعلِ إلا ضمنَ إرادته تعالى ، فالسيرُ إنما هو به تعالى. والإمدادُ بالقوةِ على الفعلِ من الله وحدَهُ ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ.

ونجمل القولَ لك عزيزيَ الطالب :

إن الإنسانَ الكافرَ بإعراضهِ عن اللهِ تمتلئُ نفسُه بالخبثِ والشَّرِ لكنَّهُ لا يستطيعُ أن ينفِّذَ اختيارَهُ وشرَّهُ على أي شخصٍ كان.. لماذا ؟. لأنَّ الله تعالى مُحيطٌ به فلا يسوقُه إلا إلى شخص استحقَّ التأديبَ.

وقد أراد الله تعالى أن يبيِّن لنا أن الإعراضَ يجعلُ صاحبَهُ محجوباً عن الحقائق ، ولو أنه أقبلَ لرأى سُمُوَّ ما يُتلى عليه من آياتِ ربه فقال تعالى : ﴿ **بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ** ﴿٢١﴾ ﴾ : و**بَلۡ**: كلمةٌ تُفيدُ الإضرابَ. والإضرابُ : هو نفيُ كلامٍ سبقَ مذكورٍ قبلها وإثباتُ كلامٍ واردٍ بعدها. نقول مثلاً : ما جاءَ خالدٌ بل سعيدٌ.

ويكون المرادُ من هذه الآية الكريمة : أي ليس الأمر كما يزعمون. فتكذيبُهم لا أصلَ له ولا يستندُ إلى حجةٍ وبرهانٍ ، فالقرآنُ الكريمُ الذي يتلوه رسولُ اللهِ ﷺ إنما هو ﴿ **قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ** ﴾ أي بيانٌ عالٍ إذا نظرَ إليه العاقلُ مجَّدهُ أي استعظَمه ورأى سموَّه وعلوَّ شأنه لما فيه من الخيرِ العظيمِ والدلالةِ العاليةِ.

وقد أرادَ تعالى أن يبيِّن لنا ما انطوى عليهِ هذا القرآنُ المجيدُ من الحقائقِ التي طُبعت في نفسِ الرسولِ ﷺ أولاً بإقبالهِ العالي على ربه ، وإنَّ ما يدُّل عليه من

الألفاظِ التي نزلَ بها جبريل ﷺ وحياً من الله تعالى كل ذلك إنما هو مُثبتٌ ومحفوظٌ في نفسِ رسولِ الله ﷺ.

وعبَّر تعالى عن نفس الرسولِ ﷺ التي بدا فيها القرآنُ في حقائقهِ وألفاظهِ، ثم أخذَ يلوحُ منها ويظهرُ للناسِ بكلمةِ (**لَوْح**) فقال تعالى: ﴿ **فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** ﴿٢٢﴾ ﴾: إذ **اللوحُ**: كلُّ صفحةٍ عريضةٍ خشباً كانت أو عظماً أو غيرها مما ينتقشُ فيه الشيءُ ثم يلوحُ ويظهرُ للناظرِ.

فصفحةُ نفسِ رسولِ اللهِ ﷺ المستقرةِ في صدرهِ إنما هي لوحٌ لأنه لاحَ منها للناسِ ما كان بدا فيها أولاً من حقائقِ القرآنِ الكريمِ ومن ألفاظهِ المنزَّلة..

وهي: ﴿ **لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ** ﴾ أي: لا يمكنُ لما كُتِبَ فيها أن ينمحيَ أو يزولَ لأنه ﷺ دائمُ الوِجْهَة والإقبالِ على ربِّه، ومن كان هذا حالَه فلا ينمحي ولا يزولُ الحقُّ من نفسِه بل هو أبداً باقٍ ومحفوظ.



التدريبات:

❖ احفظ سُورةَ البروجِ من أستاذك جيداً وتعاون أنت ورفاقُك وأهلُك على تسميعها ودراسةِ ما جاء فيها من الحقِ.

❖ اُذكر أهمَّ الأسبابِ التي تجعلُ الإنسانَ لا يعبأُ بالإنذارِ ولا يتَّعظُ من هلاكِ الذين أعرضوا وكفروا وحلَّ بهمُ الدمارُ والهلاكُ؟.

حُبُّ الدُّنيا رَأسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ

الأسئلة

1) هل يكونُ إيمانُ الإنسانِ سليماً ومقبولاً عندَ اللهِ تعالى بدون العملِ الصالحِ؟.

2) قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**مجلسُ العلمِ روضةٌ من رياضِ الجنة**» اشرح الحديث الشريف.

3) ما هو السبيلُ القويمُ المفروضُ على الإنسانِ أن يسلُكَه حتى يرى ويشهدَ التجليَ الإلٰهي بالكونِ الذي بيَّنته الآية الكريمة: ﴿ **ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾** ﴾؟.

4) ذكرنا بالدرسِ أن معنى كلمةِ **(اللوح)** هو كلُّ صفحةٍ عريضةٍ خشباً كانت أو غيرها مما ينتقشُ فيه الشيءُ ثم يلوحُ ويظهرُ للناظرِ. فما هو المرادُ من كلمةِ اللَّوحِ الواردةِ في الآيةِ الكريمةِ: ﴿ **فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾** ﴾؟ وما معنى كلمة **(مَّحْفُوظٍ)**؟.



سورة الانشقاق

ترتيبها ٨٤ آياتها ٢٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾

الدرس الخامس تأويل سـورة الانشقاق (1)

أعزائيَ الطلابُ: يُريدُ اللهُ تعالى في هذه السورةِ الكريمةِ أن يُنبِّهنا إلى نتائج أعمالنا وأن يبيِّن لنا أنَّ كلَّ ما نعملُه في هذه الحياةِ الدنيا محفوظٌ عنده تعالى.

فإذا كان يومُ القيامةِ وجدَ كلُّ امرئٍ ما قدَّم، فأمَّا من كان مُحسناً وأُوتي كتابَه بيمينه فسوف يُحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهلهِ مسروراً، وأما من كان مُسيئاً وأُوتيَ كتابَهُ وراءَ ظهرِهِ فسوفَ يدعو ثُبوراً ويصلى سعيراً.

وقد بدأ تعالى هذه السورة ببعضِ الآياتِ الدالةِ على ما سيقعُ من الحوادثِ الهامَّة عند انتهاء الحياةِ على وجهِ الأرض والانتقالِ من هذه الدنيا إلى الآخرةِ فقال تعالى:

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴿٣﴾ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٥﴾ ﴾.

ونبدأ بالآية الأولى فنقول: **ٱلسَّمَآءُ:** هذه السماءُ التي نجمٌ واحدٌ من نُجومها أكبرُ من الأرضِ بسبعينَ مليوناً من المرات. هذه السماءُ التي لا نستطيعُ أن ندركَ لها نهاية أو حدّاً، ولا يعلمُ بعظمتها غير خالِقها وموجِدها ساميةٌ عاليةٌ لا تتناهى سيأتيها يومٌ تنشقُ فيه بأمرٍ واحدٍ من خالقها. وأراد تعالى أن يُلفتَ نظرنا إلى ذلك اليومِ العظيمِ الذي سيقع فيه هذا الحادثُ المهمُّ فقال سبحانه: ﴿ **إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ** ﴾: وكلمة: ﴿ **ٱنشَقَّتۡ** ﴾: مأخوذةٌ من شقَّ.. وشقَّ الشَّيءَ بمعنى صدَّعهُ وفرَّقهُ وفصلَ بعضهُ عن بعضٍ. نقول: شقَّ الثوبَ.. وشقَّ الورقةَ وشقَّ عصا القومِ، أي: فرَّق جمعَهم وكلمتَهم. أما **انشقَّ** فبمعنى: انفصلَ عن غيره، فنقولُ: انشقَّ فلانٌ عن الجماعةِ. وإذاً فليس المرادُ بانشقاق السماءِ هنا تصدّعَها

وانفصالَ بعضها عن بعضٍ، إنما المرادُ بذلك انفصالُها وانكشافُها عن الأرضِ.

فالسماءُ والأرضُ الآن شيئانِ متلازمانِ مرتبطانِ ببعضهما بعضاً، وما السماءُ بالنسبةِ إلى الأرضِ إلاّ وعاءٌ لها محيطٌ بها من جميع جهاتها، كما تُحيطُ قشرةُ البيضةِ بما تحتويه في باطنها. فإذا كان يومُ القيامةِ وأرادَ ربكَ انشقَّتِ السماءُ أي انفصلتْ وزالتْ عن الأرضِ نظراً لانتهاءِ الحياةِ الدنيا وعدمِ حاجةِ هذه الأرضِ لسمائها. وأما كلمة ﴿ **إِذَا** ﴾: فإنها تشير إلى عظمةِ ذلك اليومِ.

ويكون ما نفهمُه من كلمةِ ﴿ **إِذَا** ﴾ أي: اُنظرْ أيها الإنسانُ إلى ما يكونُ عليه حالُكَ في ذلكَ اليومِ الذي تنشقُّ فيه هذه السماءُ العظيمةُ عن الأرضِ منفصلةً زائلةً عنها، قدِّر عظمةَ ربِّك الذي بأمرٍ واحدٍ منه تنشقُّ له هذه السماء، واذكر ذلك اليومَ الذي ستقفُ فيه للحسابِ بين يدي ذلك الربِ القديرِ والخالقِ العظيمِ.

ثم بيَّن تعالى أنَ انشقاقَ السماءِ وزوالها عن الأرضِ هذه الحادثةُ الهامةُ إنما هي يسيرةٌ عليهِ تعالى وهيِّنةٌ فقال تعالى: ﴿ **وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ** ﴿٢﴾ ﴾: **وَأَذِنَت**: بمعنى استْمعَتْ وطبَّقت الأمر. يُقال: حدَّثته فأذِنَ لي أحسنَ الأُذُن، أي: استمعَ أحسنَ الاستماعِ. ﴿ **وَحُقَّتْ** ﴾: بمعنى كان لازماً وحقاً عليها ذلك، مأخوذَةٌ من حقَّ. تقول: حقَّ الأمرُ أي ثَبَتَ ووجَبَ. ومنه حقاً تقول: حقٌ لك أن تحسِنَ لوالديك أي كان الإحسانُ إليهما حقيقاً بك، لازماً عليك وكنتَ حقيقاً بالإحسانِ. ويكونُ معنى الآيةِ الكريمةِ: ﴿ **وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ** ﴿٢﴾ ﴾: أي: إنَّ السماء حينما يأمُرها خالِقُها بالانشقاقِ والانفصالِ عن هذه الأرضِ تستمعُ أمرَ خالقها وتُطبِّقه، ويكون تطبيقُ ذلك الأمرِ حقيقاً بها لأنه صادرٌ عن خالقها العظيمِ ومُمِدّها بالحياة ومربِّيها.

ثم بيَّن تعالى لنا ما يتلو انشقاق السماءِ عن الأرضِ من الحوادثِ فقال تعالى:

﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ ﴾: ولفهم هذه الآيةِ لا بدَّ لنا من كلمةٍ نقدِّمها فنقولُ: خلقَ اللهُ المخلوقاتِ وجعلَ لكلِّ مخلوقٍ منها سواءً كان إنساناً أو حيواناً أو جماداً نفساً وإن شئت فقل ذاتاً معنويةً عاقلةً، لها وعيها وإدراكها على حسب حالها، قال تعالى: (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ..**)[1].

(**..وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ..**)[2].

والأنفسُ جميعُها في الأصلِ متماثِلةٌ لكن أجسادها التي هي بمثابةِ الثوبِ لها مختلفةُ الأشكالِ متباينةُ الصُّوَرِ. فنفسُ الجملِ كنفسِ النملةِ، وإن اختلفتْ أجسادُهما حجماً وصورةً.. ونفسُ السماء الواسعةِ اللامتناهيةِ ليست بأكبرَ من نفس الكرةِ الأرضيةِ ولا أكبر من نفس الرملةِ الصغيرةِ. لكن الله تعالى ألْبسَ كلَّ نفسٍ جسداً مناسباً ذا هيئة متلائمةٍ مع وظيفتها ومهمَّتها، وأعطاها من الطاقةِ والقُدْرةِ ما يساعدها على القيامِ بالعملِ المنوطِ بها على حسبِ ما تقتضيها الحكمةُ الإلَهيةُ.

وحيثُ إنَّ الأرضَ قدّمتْ نفسها يومَ أن خلقها اللهُ لأن تكونَ خادمةً لهذا الإنسانِ يطؤها ويسيرُ على ظهرها ويستوطنها مستفيداً من خيراتها، لذلك سُمِّيت أرضاً لأنها أرضتِ اللهَ بعملها.

وقد أعطاها اللهُ تعالى هذه الهيئةَ الكرويةَ والحجمَ المناسبَ، وجعل فيها ما جعل من خصائصَ، فكان منها خلقُ الإنسانِ ونشأتُهُ ومن خيراتها معاشُه وإليها مردُّهُ ومنها خروجُه تارةً أخرى.

وقد حملتِ الأرضُ ما ألقاهُ الله تعالى فيها من جبالٍ وأنهارٍ وما بثَّ فيها من دوابٍ

---

(1) سورة الحج: الآية (18).

(2) سورة الإسراء: الآية (44).

ونباتاتٍ ومعادنَ وأحجارٍ فكانت مجمَعاً لأنفسٍ عديدةٍ لا يعلمُ بعددها إلا اللهُ، وقامت بذلك كله بأمرِ ربها لتتقرَّبَ إلى خالقها بخدمةِ هذا الإنسانِ ذلكَ المخلوقِ السامي الذي واثَقَ ربَّه بأنه إذا أعطاهُ حرية الإرادةِ والاختيارِ ليكوننّ دائمَ الإقبالِ على ربه، فلا يتطلَّبُ شيئاً في حياته الدنيا إلا ويكون مستنيراً بنورِ ربه، مُستعيناً به تعالى، مُستلهِماً منه الرشدَ والصوابَ، وليتعرفنَّ إلى كمالهِ تعالى وأسمائهِ المعرفةَ اللائقةَ التي تجعلُه حقيقاً بالجنةِ وما فيها من فضلٍ وإكرامٍ.

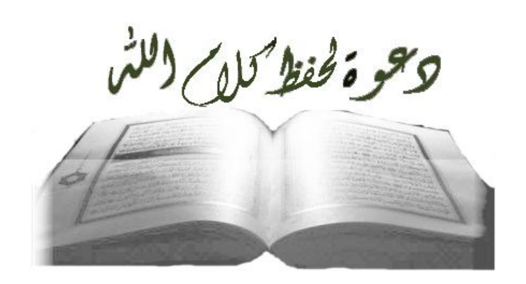
وإذاً فما السماءُ والأرضُ إلاّ نفسانِ كسائرِ الأنفسِ، لكنَّ اللهَ تعالى جعلهما على هذه الهيئةِ وذاكَ الحالِ.. فإذا كان يومُ القيامةِ وجاءَهما أمرُ خالقهما انشقتِ السماءُ طائعةً مذعِنةً ثم مُدَّت الأرضُ.

ومدُّ الأرضِ: هو زوالُ التكوُّرِ عنها. فالأرضُ التي بتكوُّرِها هذا حَوَتْ ما حَوَتْ من أنفسٍ عديدةٍ وجمعت ما جمعت من إنسانٍ وحيوانٍ ونباتٍ وغير ذلك من الأشياءِ تُمَدُّ يومَ القيامةِ أي يزولُ عنها هذا التكوُّرُ فتغدو سطحاً مستوياً وصفحةً رقيقةً كصفحةٍ من الورقِ لا بل أرقَّ ما يمكن أن يتصوَّره إنسانٌ ذلك لأنَّها انتهت مهمتها ووظيفتها التي كانت تقومُ بها في الحياةِ الدنيا. ﴿ **وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ** ﴿٤﴾ ﴾: **وَأَلْقَت:** بمعنى طرحَت. فالإنسانُ والحيوانُ، لا بل جميعُ هذه النفوسُ المشحونةُ في الأرضِ تُلقيها الأرضُ وتطرحُها عنها، أي تتركُها إذا مُدَّتْ فيزولُ هذا الارتباطُ الذي بين أنفسِنا وبين نفسِ الأرضِ وتعودُ كلُّ نفسٍ إلى خالقها من بعد أن أدَّت وظيفتها. ثم بيَّن تعالى أن ما تقوم به الأرضُ إن هو إلاّ بأمرِ خالقها ولذلك تُذعنُ للأمرِ طائعةً قال تعالى: ﴿ **وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ** ﴿٥﴾ ﴾: **وَأَذِنَت:** بمعنى استمعَتِ الأمرَ وطَبَّقتْهُ كما ذكرنا. **وَحُقَّتْ:** أي حُقَّ لها أن تسمعَ وتطيعَ الأمرِ، وهي لا تستطيعُ الخروجَ عنه لأنه أمرُ خالِقها ومربِّيها.

❖❖❖

التدريبات:

❖ احفظ سورةَ الانشقاقِ من أستاذكَ جيداً وتعاون مع زملائِك على تسميعها غيباً.



الأسئلة

1) إلى أي شيءٍ مُهمٍ يُريدُ اللهُ تعالى أن يُلفتَ نظرَ الإنسانِ بسورةِ الانشقاقِ؟.
2) لماذا تستمعُ السماءُ والأرضُ لأمرِ اللهِ تعالى وتطبقانه؟.
3) إلى ماذا تدلُّ كلمةُ ﴿ **إِذَا** ﴾ الواردةُ في مَطْلعِ السورةِ الكريمةِ؟.
4) هل ثَمَّةَ اختلافٌ وتفاوتٌ بين أنفسِ المخلوقاتِ؟. ولماذا أعطى الله تعالى ثوباً مختلفاً لكلِ نفسٍ في هذا الكونِ الفسيحِ؟.





طلابنا الأعزاء: بعد أن عرّفنا تعالى بالآياتِ الأولى من سورة الانشقاقِ بعظمته مبيّناً لنا أن السماءَ والأرضَ على عظيمِ شأنهما تأذنان لربهما فلا تُخالفان أمرهُ ولا تتأخرانِ عن تطبيقه ؛ حوَّل الخطابَ إلينا بالآياتِ التي تليها لعلَّنا بعد ذلك البيانِ نصغي إليه تعالى ؛ فذكر لنا أن حياتنا متوقفة على دوامِ إمداده لنا وإنَّنا مفتقرون دوماً إلى ربنا فقال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾** ﴾: **والكادح**: مأخوذةٌ من كَدَحَ بمعنى سعى وجهدَ.

تقول: كدحَ فلانٌ في العملِ، أي: جَهد نفسَه فيه وكدّ. وكدحَ لعياله، أي: سعى وكسبَ الرزقَ. فإذا كان الكادحُ في العملِ هو الذي يجهد نفسهُ ويكدُ فيه،

والكادحُ لعياله هو الساعي في كسب الرزقِ، فما معنى الكادحُ إلى ربه؟.

الكادحُ إلى ربِّه هو الساعي بنفسهِ إلى ربه جاهداً في دوامِ صلتهِ بالله ملتجئاً إليه لا يستطيعُ أن ينفكَّ عنه لحظةً واحدةً ولتوضيحِ ذلك نقولُ:

قيامُ الأشياءِ كلها ودوامُ وجودها إنما هو مفتقرٌ لدوامِ تجلِّيه تعالى عليها وإمداده المتواصل لها.

ولو أنَّ إمدادَ الله تعالى انقطعَ لحظةً واحدةً عن الشمس لانطفأتِ الشمسُ ولم يعُد لها جِرمٌ ولا إشعاعٌ ولا نورٌ.

ولو أنَّ إمداده تعالى انقطع عن الإنسانِ لحظةً واحدةً لانعدمَ الإنسان وفنيَ ولما كان شيئاً مذكوراً. فإمداده تعالى دائمٌ وتجلِّيهِ سبحانهُ مستمرٌ يتجلَّى على كلِ شيءٍ بما يناسبهُ فيبعثُ الحياةَ فيه ويحفظُه من الزوالِ.

وهكذا فالإمدادُ الإلٰهي متواصلٌ على هذا الإنسانِ، والإنسانُ لا يستطيعُ في نفسهِ ولا جسدهِ أن ينفكَ عن ربهِ طرفةَ عينٍ، وعلى وجه المثالِ نقولُ:

هَبْ أن رجلاً غاصَ في قعرِ البحرِ وقد مدُّوا له أنبوباً من المطاطِ مُتَّصلاً بفيهِ وممتداً إلى خارجِ الماءِ. يستنشقُ بواسطتهِ الهواءَ فتراهُ مُقبلاً بفمهِ دوماً على الأنبوبِ لا يستطيعُ أن ينفكَ عنه أو يرفعَهُ عن فمهِ لحظةً، لأن حياتهُ متوقفةٌ على صلةِ فمهِ الدائمةِ بالأنبوبِ، وكذلك حالُ الإنسانِ في افتقارهِ الدائمِ لربه فتجدُهُ على غيرِ شعورٍ منه مُقبلاً دوماً بنفسهِ وجسدهِ على اللهِ لا يستطيعُ أن ينفكَّ طَرفَةَ عينٍ، ولو أنه انفكَّ طرفةَ عينٍ لزالَ وانعدمَ وذلك معنى آية: ﴿ **إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا** ﴾. وأمَّا كلمة ﴿ **فَمُلَٰقِيه** ﴾: فإنها تفيدُ أن ذلك اللقاءَ والصلةَ بين العبدِ وربهِ حاصلةٌ وواقعةٌ سواءٌ شعرَ بها الإنسانُ أم لم يشعرْ وإنما أوردَ اللهُ تعالى هذه الكلمةَ ليبعثَ في نفوسنا الإيمانَ بذلك، فلعلّنا ننتبهُ إلى هذا اللقاءِ ونوقنُ بهذا الإمدادِ ونتعرَّفُ إلى أننا دوماً في

افتقارٍ إلى هذا الخالق العظيمِ والربِ الممدِّ الكريمِ، فإذا كان هذا شأنكَ أيها الإنسانُ مع ربك أفلا يليقُ بك طاعتهُ والسيرُ ضمن أوامرِهِ وما بيَّنهُ لك!.

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا عاقبةَ الطائعِ في طاعتهِ والعاصي في عصيانهِ ومخالفتهِ، ونبدأُ بالآياتِ التي تتكلَّمُ عن أحوالِ الطائعينَ المحسنينَ وهي قولُه تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨** ﴾ فنقولُ: **(أمَّا)** أداةُ شرطٍ وتوكيدٍ، والمرادُ من قولنا أداةُ شرطٍ أي: أن الحسابَ اليسيرَ متوقفٌ على شرطٍ واحدٍ وهو أن يؤتى الإنسانُ كتابه بيمينه.

وإذاً فليست المسائلُ جزافاً، وليس المحسنُ كالمسيءِ، ولا يمكنُ أن يُعاملَ المذنبُ المجرمُ معاملةَ الطائعِ المحسنِ.

فإن شئت أن تُحاسبَ حساباً يسيراً فذلك متوقِّفٌ على أن تُؤتى كتابك بيمينك، فإنه لا يُخلِّصك يومئذٍ غيرُ طاعتِك لربك وتأديتِك لما أمركَ به خالقك، وإذا أردتَ التفصيلَ في معنى الكلماتِ التي انطوت عليها هذه الآيةُ الكريمةُ فنقولُ: **الكتابُ**: هو ما كُتِبَ على الإنسان أي: ما حُفِظَ من أعمالهِ التي قدَّمتْها يداه في الحياةِ الدنيا فما من عمل يعمله الإنسان صغيراً أو كبيراً إلا ويُكتبُ عليه فهو يُكْتبُ في نفسهِ ويكَتبُ عند اللهِ. فأعمالُك أيها الإنسانُ جميعها تُسطَّرُ على صفحاتِ نفسك، وإنك لَتستطيعُ الآن في خلال برهةٍ وجيزةٍ أن تمرَّ بخاطرك على صفحاتِ حياتك وما قدّمت فيها من أعمالٍ.

وما هذا إلا لأنَّ أعمالَك مُثبتةٌ صورتُها على صفحةِ نفسك، فإذا أنت عُدْتَ لماضيك ونظرتَ نظرةً داخليةً إلى صفحةِ النفسِ رأيتَ ما فيها.

وكذلك يومَ القيامةِ يُطلِعُك اللهُ على ما قدَّمتَ فتجدُ حقائقَ أعمالك قائمةً في نفسك ولا يفوتُك منها شيءٌ.

وأمَّا **اليمين:** فهي مأخوذةٌ من يَمُنَ بمعنى: كَثُرَ خيره، ومنه اليُمْن وهو الخيرُ الكثير. وإذاً فليس المرادُ من ذلك أخذُ الكتابِ باليد اليمنى، إنما المرادُ أن تكون الأعمالُ التي قدَّمها الإنسانُ في دنياه صالحةً عاليةً يتيمَّن بها، أي: تعودُ على صاحِبها بالخيرِ الكثيرِ واليُمْنِ.

أما كلمة ﴿ **تُحَاسَبُ** ﴾: فإنها لا تعني جَمْعَ الحسناتِ بعضها إلى بعضٍ كعمليةٍ حسابيةٍ من جمعٍ وطرحٍ، إنما المرادُ: استيفاءُ الحقِّ ونيلُ الجزاءِ. تقولُ: حاسبتُ البائعَ، أي: أدَّيت له حقَّهُ.

واليسير: هو ضد العسيرِ، أي: أنه الذي يقارنه اليُسْرُ، فإذا كان الشيءُ الذي يقدّمُ للإنسانِ طيِّباً سارّاً فهنالك يتناولُه بيُسرٍ وسهولةٍ لا سيَّما إذا كان مُقدَّماً من يدِ مُحبٍّ.. وهكذا الجزاءُ على الأعمالِ الطيبةِ كلهُ خيرٌ وباعثٌ للسرورِ.

إذاً من كانت أعمالهُ التي قدّمها في دنياه خيراً يتيمَّن بها فسوف ينالُ على ذلك جزاءً طيباً، وأنه حينما يُقدَّم له ذلك الجزاءُ الطيبُ من هذا الربِ الرحيمِ يتناولهُ بكلِ سرورٍ ويُسْرٍ لما ينطوي عليه من المتعةِ الطيبة. ﴿ **وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾** ﴾: وأهلهم الذين كانوا يسيرون على مَسراهُ فتأهَّلوا معه لنيلِ الخيرِ.

ثم بيَّنَ تعالى حالَ أهلِ المعصيةِ فقالَ سبحانه:

﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾** ﴾: وكلمة ﴿ **وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ** ﴾: إنما تشيرُ إلى انحطاطِ العملِ. فإذا كان أحدُنا يحملُ حُزمةً من وردٍ تنبعثُ منها رائحةٌ عطريةٌ زكيةٌ فإنه يحملها بيمناهُ غيرَ خجلٍ منها، وكذلك حالُ أهلِ الأعمالِ الطيبةِ تراهُم في دنياهم فخورين بما يقومون به من الأعمالِ، وهم في الآخرةِ أيضاً فخورون بها.

وإذا كان أحدُنا يحملُ بيده ثوباً نجِساً تنتشرُ منه الروائحُ الكريهةُ، أو هرَّةً ميتةً

يريدُ أن يلقيها بعيداً بشمالهِ وراءَ ظهرهِ، وهو يفعلُ ذلك ليباعدَ ما يحمله عن نظره فإنه لا يُحِبُّ أن تقعَ عليه عينُه كما لا يحب أن يشمَّ رائحتَهُ النتنَةَ، وتراهُ يخفيهِ وراءَ ظهرهِ لأنه يخجلُ أن يراه الناسُ على ذلك الحالِ. وكذلك حالُ الذين كانت أعمالهم في دنياهم خبيثةً منحطةً فإنهم كانوا يخفونها عن الناسِ، ويومَ القيامةِ يُؤتى أحدُهم كتابَهُ فإنما يؤتاه وراءَ ظهرهِ ليباعد نفسهُ عن النظرِ إلى أعمالهِ الوحشيةِ الساقطةِ كما يخجلُ من ظهورها وانكشافها للناس.

ولكن ماذا يفعلُ هذا الشقيُّ بعد أن أُوتيَ كتابهَ وراءَ ظهرهِ؟. لقد بيَّن لنا تعالى ذلك بقوله: ﴿ **فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا** ﴾: **يَدْعُواْ**: أي: يتطلَّبُ ويبتغي.

والثبورُ: مأخوذةٌ من ثَبَرَ بمعنى حَبَسَ ومنع. ومنه المثابرةُ أي: استمرارُ الحالِ وعدمُ تبدّله. تقولُ: ثابرَ فلانٌ على الاجتهادِ، أي: حبسَ نفسهُ عليه واستمرَ، والثبورُ هو ملازمةُ النفسِ للحالِ التي هي فيه.

فالذي يُؤتى كتابه وراء ظهره سوف يدعو ثبوراً، أي: حينما يُزج في النار للمداواةِ يتطلَّبُ ألاَّ تُزاد له شدَّتها، وأن يبقى في درجةٍ واحدةٍ مستجيراً طالباً عدم التشديد.

﴿ **وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا** ﴾: **وَيَصۡلَىٰ**: أي يذوقُ حرَّ النارِ التي تسري فيه وتُسلَّطُ عليه. و﴿ **سَعِيرًا** ﴾: هي النارُ التي تُماثل شدَّتها مع حالِ كلِّ عاصٍ مذنبٍ، ومنه سعَّر أي: قوَّم السِّلعةَ أو المتاعَ فجعلَ له قيمةً معيَّنة تُماثلُ الثمنَ بالبضاعةِ.

فالعاصي في النار إنما يكونُ عذابهُ وشدةُ النارِ عليه مماثلةً ومعادلةً لجرمه ثم بيَّن لنا تعالى سببَ هذا الحرقِ والعذابِ، فقال تعالى: ﴿ **إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا** ﴿١٣﴾ ﴾: و(**أَهۡلِهِۦ**): هم الذين كان يسير معهم في الدنيا على مسرى واحدٍ حتى تأهَّلوا لدخول النارِ. و (**مَسۡرُورًا**): أي موافقاً لهم على عملهم، ومتواطئاً معهم على الشَّرِ.

﴿ **إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤** ﴾: **وحار:** بمعنى عاد ورجعَ، أي: أن الذي جعله يوافقُ أهلَ الخبثِ على خُبثهم، والذي أغراهُ في مشاركته بأعمالهم إنما هو ظنُّه أنه سوف لا يرجعُ بعد موته إلى ربه، وأنه لن يحور ثانيةً ويُخلقَ خلقاً جديداً.

وإذاً فالتكذيب بيوم القيامةِ يسبِّب انحطاطَ الإنسانِ في أعماله ودناءتهِ، وهذا الإيمانُ باليومِ الآخرِ لا يكون إلا بالإيمانِ باللهِ.

ثم إنَّ اللهَ تعالى نفى ذلك الظنَّ بعدمِ الرجوعِ بقوله: ﴿ **بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥** ﴾: و(**بَلَىٰٓ**): حرفُ جوابٍ وهي تختصُّ بالنفي وتُفيدُ إبطالَهُ. ولتوضيحِ ذلك نقول: لقد جاءت الآيةُ السابقةُ مبيِّنةً أنَّ الذي أُوتيَ كتابه بشمالهِ كان ينفي في دنياه أمرَ البعثِ، وأنه ظنّ أن لن يحور أي: أنه سوف لا يرجعُ، فجاءت كلمةُ ﴿ **بَلَىٰٓ** ﴾ في هذه الآيةِ مبطلةً هذا الظنَّ. ويكونُ ما نفهمه من كلمةِ ﴿ **بَلَىٰٓ** ﴾: أي: ليس الأمرُ كما يظنُّ ذلك العاصي المجرمُ الذي لا يؤمنُ بالرجوع والبعثِ.

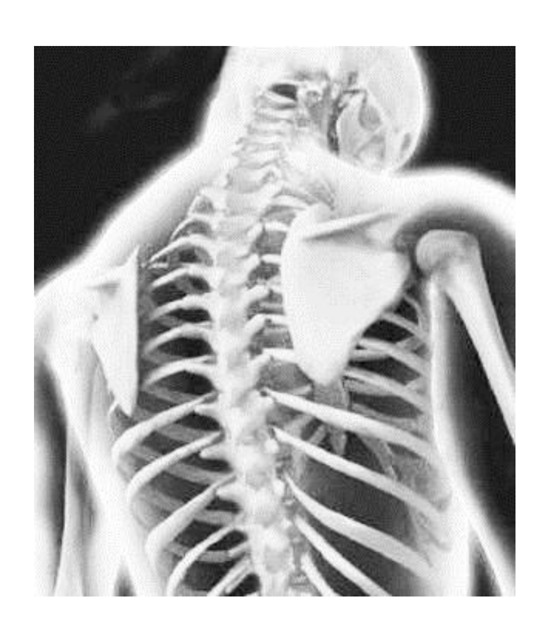
وأما كلمة ﴿ **إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا** ﴾: فإنما تعني أنه تعالى بصيرٌ بأحوالِ هذا الإنسانِ شهيدٌ على كلِ ما يصدُرُ منه في دنياه من الأعمالِ، فإذا كان يومُ القيامةِ وفَّاهُ حسابهُ وأعادَ إليه أعماله. وأما كلمة ﴿ **رَبَّهُۥ** ﴾ فمعناها المربي: الممدُّ بالحياةِ. وجاءت كلمة ﴿ **رَبَّهُۥ** ﴾: هنا لتثبت لك أن الذي يمدّك بالحياة بصورةٍ متواصلةٍ لحظةً فلحظةً وآناً بعد آنٍ لا يغيبُ عنه من أعمالك شيءٌ ولا يخفى عليه شيءٌ.



التدريبات:

احفظ سورةَ الانشقاق من أستاذك جيداً وثابر على دراستها واتلُها في صلاتك وتفكَّر بما ورد فيها من الحقائق.

انظر إلى العظامِ التي ركبكَ الله تعالى عليها (الهيكل العظمي)، تفكر بعظامك وانظر مدققاً فيها.. أطوالُها المختلفةُ.. أماكنُ تواجدها.. سماكاتُها وأحجامُها.. والوظائفُ التي تقومُ بها حتى تؤمِّن لك العيشَ والحركةَ والعملَ.. انظر بها مفكراً واكتبْ ما توصلتَ إليه من خلال بحثك ودراستك الخاصةِ العمليةِ دون الرجوعِ إلى المراجع والأبحاث الجاهزة.

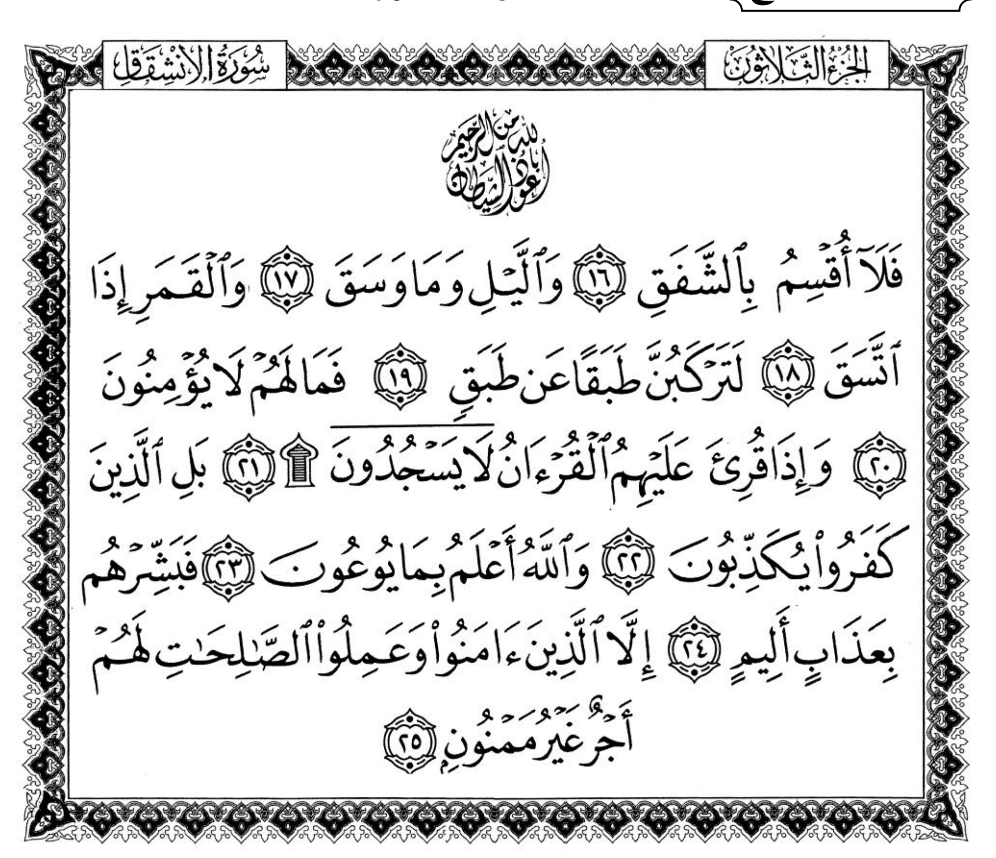


الأسئلة

1) قال تعالى: **(إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١)** إلى ماذا تُشيرُ كلمةُ **(ٱنشَقَّتۡ)** الواردةُ في مطلعِ السورةِ الكريمةِ؟.
2) لماذا سمى اللهُ تعالى هذه الكرةَ الأرضيةَ التي نعيشُ عليها **(أرض)؟.**
3) لماذا تطرحُ الأرضُ كلَّ ما عليها من المخلوقات يومَ القيامةِ؟.
4) قال تعالى: **(وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا)** ما هو معنى كلمة: **(سَعِيرًا)؟**
5) ورد بالدرسِ الفقرةُ التاليةُ: (فإن شئت أن تُحاسبَ حساباً يسيراً فذلكَ متوقِّفٌ على أن تُؤتى كتابك بيمينك، فإنه لا يُخلِّصك يومئذٍ غير طاعتك لربك وتأديتِك لما أمرك به خالقُك..) فما هو الكتابُ، وكيف يأخذُه الإنسانُ بيمينهِ؟.
6) ما الذي يجعلُ الإنسانَ المعرضَ يسايرُ أهلَ الفسقِ والضلالِ ويشاركُهم خبثَهم ومكرَهم؟.



الدرس السابع — تتمة تأويل سورة الانشقاق (3)



الجزء الثلاثون — سورة الانشقاق

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ﴿٢٥﴾

عزيزي الطالب: بعد أن بيَّن لنا تعالى في الآيات السابقة من هذه السورةِ الكريمةِ أن البعثَ حقٌّ، وأنه تعالى بصيرٌ بهذا الإنسانِ شهيدٌ على كلِ ما يصدرُ منه من أعمالٍ، ساق لنا طائفةً من الآياتِ الدالةِ على عظيمِ رحمته وكبيرِ فضلهِ وحنانه، لتعلمَ أيها الطالبُ أن الذي أكرمك بهذا الإكرامِ حريصٌ عليك ومحبٌ لك، ولا يريدُ فيما بيَّنه لك إلا تحذيرَك وتنبيهَك فلعلّك تنتبهُ لكلامهِ وتُصغي إلى إرشاده وتسعى فيما يجعلُك أهلاً لما أعدَّه تعالى لك من النعيم.

ونبدأ بآية. ﴿ **فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾** ﴾: وكلمة **لا أُقسمُ:** إنما تعني بيان شأنِ المذكورِ بعدها أي إنه عظيم جداً وأنك إذا فكّرت فيه استعظمتَهُ واستكبرتَهُ لكنَّهُ

عليه تعالى يسيرٌ وهيّن.

والشفق: مأخوذة من شَفَقَ بمعنى عَطَفَ وحَنَّ، تقولُ: شفقَ فلانٌ وأشفقَ على الصغيرِ أي عطفَ وحنَّ عليه: وشفق على فلانٍ أي: حرصَ على خيرهِ وإصلاحهِ.

والشفقُ: بقيةُ ضوءِ الشمسِ وحُمرتها عند الغروبِ. سُمّي شفقاً لأنه دليلٌ على شفقةِ الله تعالى وحنانه على خلقه. ولو أن الشمسَ كانت تغيبُ وهي على أشَد ما تكونُ حرارةً وتلاها الليلُ فجأةً بجوِّه الباردِ وظلمتهِ الشديدةِ لكان ذلك سبباً في تأثُّر النباتِ والأزهارِ والأثمارِ. وكذلك الإنسانُ والحيوانُ، وإن تعمَّقتَ في النظرِ ودققت في الأمرِ وجدتَ أن ذلك يكونُ سبباً في موتِ النباتِ وهلاكِ الإنسانِ والحيوانِ، ولكن من رحمةِ الله أن جعلَ الشمسَ تميلُ إلى مغربها كما جعلَ الليل يغشى الأرضَ من بعدها بصورةٍ تدريجيةٍ شفقةً على الخلقِ وحناناً عليهم.

ويكون المراد من آية: ﴿ **فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦** ﴾ أي: **لا أقسم** بما في الشفقِ من الخيرِ والإحسانِ والعطفِ والحنانِ. ثم قال تعالى: ﴿ **وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧** ﴾: وهذه **(الواو)** التي في أول هذه الآية إنما تبيِّن أيضاً شأن الليل فإنها تقول:

ولا أُقسِمُ بالليلِ فهو في خيرهِ عليكم عظيمٌ جداً وذو شأنٍ جديرٍ بالإكبارِ والإعجابِ لكنهُ عليه تعالى هيِّنٌ ويسيرٌ.

وأما كلمة: ﴿ **وَمَا وَسَقَ** ﴾ **:** أي: وما حملَ وجمعَ.

تقولُ: وسقَ المزارعُ سنابلَ القمحِ، أي: جمعها وحملها وأوسقَ الدابَةَ، أي: حمَّلها ومنه الوسْق أي: الحِمْل. تقول: اشتريت وسقاً من تمرٍ أو بطيخٍ.

وإذا دقَّقت في كلمة ﴿ **وَمَا وَسَقَ** ﴾ وجدتها تحوي أشياءَ كثيرةً مجموعةً منطويةً في هذا الليلِ محمولةً فيه فإذا جاء الليلُ جاءت معه رطوبةُ الجوِ وبرودَتُه ورافقَه الظلامُ وخيَّم فيه الهدوءُ والسكونُ فكانَ ذلك سبباً في انتعاشِ النباتِ وإنماءِ الثمارِ

وراحةِ الإنسانِ والحيوانِ.

وإنك إذا أخذتَ تبحثُ عن فوائدِ الليلِ لم تنتهِ عند حدّ ولم تُحصِ ما فيه من الخير، ولو أن النهار كان يدومُ لهلَكَت الأحياءُ ولما صلَحت هذه الأرضُ للحياةِ.

﴿ **وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾** ﴾: و (**ٱتَّسَقَ**): اجتمعَ بغيره منتظماً في سيره.

تقول: اتَّسقتِ الإبلُ، أي: اجتمعت إلى بعضها فلم يشرُدْ بعضها عن بعض، واتَّسقت أمورُ الدولةِ، أي: اجتمعت على نظامٍ فليس في سيرها شذوذٌ أو خللٌ. واتّسقت أمورُ المدرسةِ، أي: سارت الأمورُ فيها سيراً حسناً، فعرف كل تلميذٍ صفَّهُ وموضِعَه، وعرفَ كلُّ معلمٍ تلاميذَه والمادةَ المكلَّف بإلقائها وسارت الأمورُ فيها مجتمعةً على نظامٍ واحدٍ.

وأما المرادُ من هذه الآيةِ الكريمة: ﴿ **وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾** ﴾ أي: لا أقسمُ بالقمرِ إذا اتّسقَ أي إذا اجتمعَ بما وسقَ الليلُ من الخيراتِ، فكان القمرُ آلةً منظِّمةً يتوقَّفُ عليها سيرُ ما في الليل من الخيراتِ وانتظامُ كلٍّ منها في وظيفته المخصّصة به، فإذا اتسقَ القمرُ أي: إذا اجتمعَ بها سارت تلك الأشياءُ مؤدِّيةً وظائفها على أتمِّ وجهٍ وأكملِ نظامٍ. ولتوضيحِ ذلك نقولُ:

هَبْ أن معملاً فيه عمالٌ كثيرون، ولكلٍّ منهم وظيفتهُ المخصَّصة به، ومن تضافر أعماله بعضُها إلى بعضٍ يُنتجُ ذلك المعملُ المصنوعاتِ التي اختصَّ بها؛ فهذا المعمل لا بدَّ لهُ من رئيسٍ يُشرفُ على العمالِ ويُسيّر العملَ فيه، فإذا ما جاءَ رئيسُ المعملِ انتظمَ كلُّ عاملٍ في موضِعه، وجرتِ الآلاتُ في أعمالها، وأنتجَ المعملُ ما ينتجُه.

وكذلك التلاميذُ في الصَّفِ إذا جاءَ المعلمُ انتظموا في الدرسِ، وساروا في أعمالهم ودروسِهم على أكملِ وجهٍ، فإذا قلتَ اتّسقَ رئيسُ المعملِ واتّسقَ المعلمُ

فهمتَ المرادَ.. ويكونُ معنى الآيةِ: ﴿ **وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ** ﴾ أي: لا أقسِمُ لكم أيضاً بالقمرِ إذا اجتمعَ ما في الليل من العوامل القائمةِ على سعادَتِكم وراحَتِكم كيفَ أنه يكونُ جامعاً لها وسبباً في انتظامها في أعمالها.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى في الآياتِ الثلاثِ الأخيرةِ ما يذكِّرنا بشفقته وحنانه، أرادَ تعالى أن يبيِّن لنا أن حالَنا في الآخرةِ إنما هو متطابقٌ مع حالِنا في الدنيا سواءً بسواءٍ. فللمُحسنِ الإحسانُ، وليس للمسيءِ سوى الشقاءِ والعذابِ قال تعالى: ﴿ **لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ** ﴿١٩﴾ ﴾: وتفصيلاً لذلك نقول: **تَرْكَبُنَّ** مأخوذةٌ من رَكِبَ، تقول: ركبَ الدابةَ، أي: علاها وامتطى ظهرها، وركبَ السفينةَ، أي: سافر فيها، وركبَ الخوفُ والمرضُ، أي: حلَّ به الخوفُ والمرضُ ولازمَهُ.

والطبقُ: مأخوذة من فعل طَبَقَ. وطبقَ الشيءَ على الشيءِ، أي: أصابه من جميع جهاته، تقول: طبقتُ اليدَ اليمنى على اليسرى.. والفكَّ على الفكِ.. والطبقُ هو المطابق أو الحالُ المماثلُ.

تقولُ: هذا الكتابُ طبقَ هذا الكتابِ، وهذا الدواءُ طبق هذا المرضِ، ومنه قولهم: الدهرُ أطباقٌ، أي: أحوالٌ تصيبُ الإنسانَ بصورةٍ مطابقةٍ ومماثلة لما يناسبه.

ويكون المرادُ من هذه الآيةِ الكريمةِ:

أنَّ حالَ الإنسانِ في الآخرةِ مطابقٌ تمامَ المطابقةِ لحالهِ في دُنياه، فإن كان مُحسِناً فبقدر إحسانه يكونُ نعيمُه ورقيُّه، وإن كان مسيئاً فبقدر إساءته وإجرامهِ يكون عذابُه وتدنّيه. قال تعالى: (**وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى** ﴿٣١﴾)[1].

وبعد أن أرانا اللهُ تعالى عظمتهُ وقدرتهُ، وبعد أن عرَّفنا بفضله وحنانه، أثارَ تعالى

---

(1) سورة النجم: الآية (31).

العجبَ لحالِ هذا الإنسانِ المعرضِ عن خالقه الرؤوفِ به والعطوف عليه فقال تعالى: ﴿ **فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٢٠** ﴾: أي: ما بالُهم بعد أن أَريتَهم ما أريتَهم من الدلائلِ الدالةِ على عظمتي وقدرتي وفضلي وإحساني ورحمتي وحناني!. ما بالهم بعد أن ذكّرتَهم به لا يؤمنون أي: لا يُقبلون عليَّ فيشهدون حقائقَ ما تبيِّنه لهم وتدعوهم إليه. ﴿ **وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ۝٢١** ﴾: أي: وما لهم إذا سمعوا بياني وكلامي لا يسجدون: أي لا يتطلَّبون من فضلي وإحساني.

ثم بيَّن تعالى أن الكافرَ مهما ذكَّرتَه لا يذكرُ، ومهما أريتَهُ من الدلائل الدالَّة على عطفِ ربه وحنانه لا يقدِّر ولا يشكُرُ، فشهوتُه غالبةٌ عليه، ساترةٌ له عن رؤيةِ الحقِ وتقديرِ ربه المحسنِ إليه، قال تعالى: ﴿ **بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢** ﴾: أي: أن المعرض المائلَ بنفسهِ إلى الدنيا يُعارض الحقَّ مهما كان ظاهراً بيِّناً ويراهُ ولا يذعنُ إليه مهما كان نيِّراً واضحاً. ثم بيَّن لنا تعالى أن تكذيبهم إنما هو ناشئٌ عما وضعوهُ في نفوسهِم من الخبث فقال تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣** ﴾: و(**أَعۡلَمُ**): مأخوذةٌ من علِم. تقولُ: علمَ الشيءَ، أي: اطّلعَ عليه، وقد جاءت كلمة (**أَعۡلَمُ**) هنا في هذه الصيغة لتبيِّن لنا أنَّ الله تعالى أعلمُ بما في نفس الإنسانِ من الإنسانِ بذاته، فكم من شخصٍ لا يشعر بما يوعيه في نفسه من الخبث بإعراضه عن ربِّه، والله تعالى أعلَمُ به منه. و﴿ **يُوعُونَ** ﴾: مأخوذةٌ من أوعى، تقول: أوعى الشيءَ، أي: حفظَهُ وجمعَهُ، ومنه أوعى الطعامَ، أي: جعلهُ في وعاءٍ.

فالنفسُ بمثابةِ وعاءٍ يمكن أن يُوضعَ فيه الخيرُ أو الشرُ، فإن أقبلتْ على خالقها اكتسبتْ منه تعالى الكمالَ فصارتْ وعاءً للكمالِ والأخلاقِ العالية، وإن أعرضتْ عن خالقها نبتَ فيها الشرُّ والشهواتُ الخبيثةُ فكانت وعاءً للشرِّ والخُبث، ويكون ما نفهمُه من آية: ﴿ **وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣** ﴾: أي: إن

الله تعالى مطّلعٌ على ما يضعهُ ويوعيه أولئك الكفارُ في نفوسهم من الشهوات الخبيثة، ولذلك يسوقُ لهم ما يناسبهُم.

ثم بيَّن تعالى أنه لا يدعهم يومَ القيامةِ يتألمونَ مما أوعوه في نفوسهم، بل إنه تعالى رحيم بهم وسيعالجهم المعالجةَ المناسبةَ لهم فقال تعالى: ﴿ **فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴿٢٤﴾ ﴾: **وبشِّرهم:** مأخوذة من بَشَّرَ. تقول: بشَّرني فلان بالأمر أي: بلَّغني خبراً سارّاً وفرَّحني به.

والعذاب الأليم: هو الموجعُ وجعاً شديداً، وقد ذكر لنا تعالى كلمة ﴿ **فَبَشِّرْهُم** ﴾ بهذه الآيةِ ليبيِّن لنا أن لؤمَ الكافرِ وحزنَه على تفريطه في دنياه ؛ والشرَّ الذي أوعاهُ في نفسه سيجرّ له نغصاً وحسرةً عظيمةً وسيسبِّب له شقاءً وألماً نفسياً لا يطاق، فإذا عرفَ أن الله تعالى سيدخلهُ النارَ فسيكونُ ذلك بشرى له، لأنه لا يصرفه عما هو فيه من الألمِ النفسي الذي لا يطاقُ إلاَّ ألمٌ جسميٌ وهو عذابُ النارِ.

ومثلُ الكافرين ذوي العللِ النفسية عندما يُبشَّرون بدخول النارِ كمثلِ فقيرٍ مريضٍ، فإذا أنت سعيتَ له بالدخولِ في المستشفى ووفقت في سعيك ثم بيَّنتَ له ذلك فيكونُ بيانُك بُشرى سارَّةً له، لأن دخوله المستشفى سيباعدُ عنهُ ما هو فيه.

ثم بيَّن تعالى أن المؤمنَ الذي عملَ الصالحاتِ مُبعدٌ عن كلِّ ذلك وإنه ليس له في الآخرةِ إلا النعيمُ المقيمُ. فقال تعالى: ﴿ **إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ** ﴿٢٥﴾ ﴾: وكلمة ﴿ **إِلَّا** ﴾ أداة استثناء أي: إنها تجعل المذكورين بعدها في هذه الآيةِ في نجوةٍ من ذلك العذابِ الأليمِ.. أما كلمة ﴿ **ءَامَنُواْ** ﴾: فمأخوذةٌ من آمنَ إيماناً، والإيمانُ هو التصديقُ والثقةُ الحاصلةُ بعد الرؤيةِ والمشاهدةِ.

أما طريقُ الوصولِ إلى الإيمانِ فإنما يكونُ بالتفكيرِ في الكونِ وما فيه من المخلوقاتِ الناطقةِ بعظمةِ الخالقِ وحكمتِه، الشاهدة على عدله تعالى ورحمته.

فهؤلاءِ الذين سلكوا طريقَ التفكيرِ في الكونِ ورأتْ نفوسُهم ما فيه من العظمةِ والآياتِ الدالةِ على الحكمةِ الإلٓهيةِ والرأفةِ والرحمةِ تُكسِبهُم رؤيتُهم هذه تصديقاً وثقةً بخالقهم العظيمِ لأن ذلك لا يكونُ إلا بعد الشُّهودِ والرؤيةِ.

فإذا رأى الإنسانُ عظمةَ خالقهِ وشاهدَ عدلَ ربهِ ورحمتَهُ به فهناك يخضعُ له ويخشعُ ويرى أن أوامرهُ تعالى كلَّها خيرٌ، وعند ذلك ينطلقُ في طريقِ العملِ الصالحِ. ولذلك ذكر تعالى العملَ الصالحَ بعد الإيمانِ.

وإذاً فالإيمانُ أصلُ كلِّ مكرُمةٍ وفضيلةٍ، ومن دونه يكونُ الإنسانُ أشبهَ بالميِّتِ لا يعملُ خيراً بل إنما يصدرُ عنه كلُّ شرٍ وأذىً.

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لا يصيبُهم ذلك العذابُ الأليمُ، لأن عملهم كلهُ خيرٌ، ثم إن لهم على عملهم الصالحِ أجراً غير ممنون.

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: أي غير مقطوعٍ. تقول: منَّ الحبل أي قطعهُ وغير ممنونٍ أي غير ممتنٍ عليهم به، لأنهم خُيِّروا وأُعطوا الحرية في الاختيار فاختاروا طريقَ الإيمان وقدَّموا من العملِ الصالحِ ما جعلهم أهلاً لذلك العطاءِ. قال تعالى:

(..وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾)[1].



(1) سورة البقرة: الآية (143).

النشاط الذاتي:

لّما كان حال الإنسانِ في الآخرةِ مطابقاً تمامَ المطابقةِ لحالهِ في الدنيا. لذلك عليّ دائماً وقبل القيام بأي عملٍ موازنتهُ مع ما جاءَ به القرآنُ الكريمُ لأنّه النورُ الذي يفرّقُ الحقَ من الباطلِ والخطأَ من الصوابِ ويبيّن الحكمةَ من كلّ أمرٍ.

لهذا عليّ أن أواظب على قراءةِ القرآنِ الكريمِ وتدبّرِ آياته لتطبيقِ كلّ ما أمرَ به الله ويكون سيري على هدىً وبيانٍ منه تعالى.

التطبيق والتوجيه:

اجلِسْ قبل غروبِ الشمسِ بقليلٍ في مكانٍ يظهرُ من خلاله غروبُ الشمسِ بشكلٍ واضحٍ، وراقبْ كيف تختفي أشعةُ الشمسِ رويداً رويداً ثمّ لا يلبثُ أن يأخُذَ الشفقُ بالظهورِ ويتزايدُ شيئاً فشيئاً حتى إذا ما أفلَ حلّ الليلُ بظلمته، وأنَّه لولا هذا الانتقالُ اللطيفُ المتدرِّجُ لماتت النباتات وهلك الناسُ والحيوانُ، فهذا النظامُ الرائعُ البديعُ لابدّ له من ربٍ قديرٍ ومنظّمٍ حكيمٍ يتجلّى برحمته وحنانهِ على الخلائقِ أجمعين بما ينعكسُ عليهم خيراً وسعادةً.

- - - - - - - -

التدريبات:

احفظْ سورة الانشقاقِ غيباً وتعاون مع زملائك على تسميعها ودراسةِ ما جاء في تأويل معانيها الساميةِ.



الأسئلة

1) قال تعالى: ﴿ **فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨** ﴾ لماذا لا يقسم الله تعالى بهذه الآياتِ الكونيةِ الكبرى المذكورة في الآية الكريمةِ؟.
2) إلى ماذا تدل كلمة: **(الشَّفَقِ)؟.**
3) كيف يكون حسابُ الناسِ يومَ القيامةِ، وما هو المقياسُ الذي ينالون جزاءهم بناءً عليه؟.
4) إلى ماذا يُشير قوله تعالى: ﴿ **وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣** ﴾؟.
5) لماذا تكون النارُ يومَ القيامةِ بمثابةِ بُشرى لأصحابِ الأعمالِ السيئةِ؟.



سورة المطففين

ترتيبها ٨٣ — آياتها ٣٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ

مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ
يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾
وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ
حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾
عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

الدرس الثامن تأويل سورة المطففين (1)

أعزائيَ الطلبةُ: بعد أن ساقَ لنا تعالى في سورةِ الانشقاقِ من الآياتِ الدالّةِ على عظمتهِ وإحسانهِ ما يجعلنا نُقْبلُ عليه تعالى فيكونُ إقبالنا سبباً في طهارةِ نفوسنا، وبعد أن عرَّفنا أن الكافرَ المكذِّبَ إنما يجرُّ لنفسه بما يوعيه فيها من الخبثِ والشرِ عذاباً أليماً. أراد تعالى في هذه السورة أن يبيِّن لنا أن الشهواتِ الخبيثة التي يكسبها الإنسانُ بإعراضه عن ربه، هذه الشهواتُ تجعلُ راناً على القلبِ، أي: تُشكِّلُ حجاباً ساتراً يستر النفسَ عن رؤيةِ الحقائقِ، فيصبحُ هذا الإنسانُ في عمىً وضلالٍ لا يحسبُ حساباً لما يعقب أعماله السيّئة من الشرور والآلام، ولا يعود يرى ما ستجرُّه له شهواته في الآخرة من أليم العذابِ، ولذلك تراهُ يكذِّبُ بيومِ الحسابِ.

وقد أراد تعالى أن يحذِّرَ الإنسانَ من ذلك الإعراضِ وما يولِّدهُ في النفسِ من انحرافٍ عن الحقِ وميلٍ للعدوانِ فقال تعالى: ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١** ﴾: **والويل**: هو حلولُ الشرِ ونزولُ الهلاكِ، وتُقال هذه الكلمةُ لمن قامَ بعملٍ أبعدَ به عن نفسه خيراً عظيماً، وجرّ لها هَلَكَةً وشقاءً. فاللهُ تعالى إنما أعطى الإنسانَ (**ٱلْكَوْثَرَ**) أي: أنه أعدَّ له خيراً لا يتناهى ولكنَّ المعرضَ عن ربه إنما يجعلُ ذلك الخير المعدَّ له يولِّي عنه.

إن كلمة ﴿ **وَيْلٌ** ﴾: مأخوذةٌ من ولَّى أي: ولَّى عن أولئك المطففين بعملهم السيِّء ما كان أعدَّه الله تعالى لهم من الخيرِ العظيم. وإن كلمة ﴿ **وَيْلٌ** ﴾: مأخوذة أيضاً من **(ويْ)**، وهي كلمة تعجُّب أي: ما أعجبَ أمرَ هؤلاءِ وما أجهلهُم فكم حرموا أنفسهم من خيرات مهيَّأةٍ لهم!.

والمطففين: جمعُ مطفِّف، **والمطفِّف**: هو الذي يسعى دوماً في جرِّ المغنمِ لنفسه سواءٌ كان بائعاً أم مشترياً أو دائناً أو مديناً، معلِّماً أو أجيراً، فليس يهمّه في هذه الدنيا

إلا أن يكون رابحاً.. وقد أراد تعالى أن يفصّل لنا ذلك المعنى فقال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢** ﴾: **واكتال:** أي: طلبَ من غيره أن يكيلَ له، وهي مأخوذةٌ من فعلِ كالَ، كما أن ابتاعَ مأخوذةٌ من فعل باعَ.

وكلمة: ﴿ **عَلَى ٱلنَّاسِ** ﴾: إنما تُفيد الاستعلاءَ والسيطرةَ. وكلمة ﴿ **يَسْتَوْفُونَ** ﴾: أي يأخذونَّ حقَّهم كاملاً وافياً. ويكون معنى هذه الآية الكريمة: أن المطفِّفَ رجلٌ إذا كانت له السيطرةُ والاستعلاءُ على غيره استوفى منه حقَّهُ على الوجهِ الأتمِّ.. ثم بيَّن لنا تعالى صفة ثانيةً من صفاتِ المطفِّفين فقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣** ﴾: **وكالوا:** أي إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم فإنهم يُخسرون أي: يظلمونهم، ولا يؤدُّون لهم حقَّهم تامّاً كاملاً. وإذا أردت التوسُّع في معنى الآية فنقول:

التطفيف يتناول سائر نواحي البيع مما فيه غمطُ الناس وتخسيرهم، فالذي يُنقصُ المكيالَ ولا يعطيهِ حقَّهُ مطفِّفٌ، والذي يُنقصُ الميزانَ مطفِّف، والذي يبيع البضاعةَ الرديئةَ بسعرِ البضاعة الجيدةِ مطفِّف، والذي يأخذُ من الثمن قدْراً زائداً عن السعرِ الحقيقي الذي يقتضي أن يأخذَه مطفِّفٌ. وبصورةٍ عامةٍ كلُّ امرئٍ يسعى في جرِّ المغنم لنفسه غامطاً حقوق غيرهِ إنما هو مطفِّف.

والتطفيفُ يدخل مع الإنسانِ في البيع والشراءِ، وفي الشركةِ والقسمةِ والديْن، وفي معاملة الزوجةِ والجيران وفي كلِّ حالٍ من الأحوالِ، حتى في معاملةِ الحيوانِ، فالذي يحمِّل دابةً ويستخدمها في حاجته ثم لا يؤتيها حقَّها من الطعامِ والشرابِ إنما هو أيضاً مطفِّف. وهكذا كل إنسان لا يسير في معاملته بالعدل ولا يعامل الناس بمثل ما يحب أن يعاملوه، بل يستوفي حَقَّه منهم كاملاً فإذا كان عليه الحقُّ لم يؤدِّه لهم على الوجهِ الأكمل يُسمّى مطفِّفاً.

وإليكم هذه القصة الحقيقية مع أحد هؤلاء المطففين، والذي ساقته يد العناية الإلٓهية إلى العلاَّمة محمد أمين شيخو، علَّه يسمع الحقَّ ويتوب ويقلع عن تطففيه فيسلُكَ مع أهلِ الحق ولا يكونَ من الخاسرين.

قصة وعبرة..

اللحَّام المثالي والجزَّار المكّار

حين كان العلاَّمةُ السيدُ محمد أمين ضابطاً في الأمنِ العامِ في دمشق، قصدَه في المنطقةِ التي يسكنُ فيها (**منطقة المهاجرين**) أحدُ الجزَّارين من منطقة أخرى (منطقة الميدان) واستأجرَ منه دكاناً كان قد ورِثها العلاَّمة من أبيه، وسبب مجيء هذا اللحام إلى هذه المنطقة وتركه منطقتَه السابقةَ هو خلافٌ حصل بينه وبين أهلِ حيِّه بالميدان.

أخذ هذا اللحامُ يمارسُ مهنتهُ بنزاهةٍ واستقامةٍ عاليةٍ فكان يجلبُ إلى دكانه أحسنَ الذبائح من الخرفان المعلوفةِ والصغيرة ذات اللحمِ الطري الفاخرِ، وكان يخيِّر الزبائنَ فيقول للمشتري مثلاً:

من أي مكان من الذبيحة تريد اللحمة؟. فيشير المشتري من الذبيحة إلى المكان الطيِّبِ الذي يريدُ أن تكونَ لحمته منه، فيقطع له كما يشاءُ ويحلو له ويعطيه طلبهُ الغالي ويأخذُ أرخصَ الأسعار.. حتى وإن جاءه طفلٌ فلا يُعطيه إلاَّ أفضلَ ما عنده وبأرخصِ ثمن.. ونتيجة لذلك ذاع صيتُه في الحي وأصبح الناس يقفون أمام دكانه صفاً طويلاً كلاًّ بدوره مهما كان التفاوت في المستوى الاجتماعي بينهم، ضابط كبير يقفُ بدوره وراءَ عامل أو طفل.. فالعدالةُ المثلى رائدهُ، وبذا كان يبيعُ عدداً من الذبائحِ في اليومِ الواحدِ، وإن كان ربحه قليلاً ولكن مع حجم البيع الكبيرِ كانت غلَّته كبيرةً.

أما ما يتبقى من اللحوم الرديئةِ والشحومِ فكان يبيعها آخرَ النهارِ بالجملةِ للمزارعين الذين يمرُّون به بعد العصرِ.



ذات يوم لم يرَ إنساننا السيد محمد أمين إلاَّ وجمهرة غفيرةٌ من شباب حي الميدان يهتفون هتافات عالية.. يُحيُّون بها هذا اللحامَ وأتوا لترضيته ومصالحته، وليأخذوه معهم بعد الاعتذارِ منه وتطييبِ خاطره.

وانطلقَ فريقٌ منهم يجمعُ عدةَ العملِ من الدُّكانِ والبعضُ الآخرُ حمله على الأكتافِ ليعودوا به إلى حي الميدان.

فصرخَ اللحامُ قائلاً لهم: انتظروني فقط لأدفعَ أجرةَ الدُّكانِ لصاحبها.

فأجابه أحدهم: دعْ عنك ذلك، فأنا سأدفع لصاحب المحل ما يريد.

وفعلاً اتَّجه إلى صاحب المحل "العلاَّمة السيد محمد أمين" وسأله كم تريد، ودفع له الأجرة.. وهكذا عادوا بصاحبهم محمولاً على الأكتافِ لما عرفوه من نزاهته وكريم أخلاقه.

ولم تمضِ إلاَّ أيام قليلة حتى جاء لحام آخر فاستأجرَ ذلك المحلَّ، لكنه كان يختلفُ عن اللحام الأولِ تماماً: فقد كان غشاشاً يجلبُ أسوأَ الذبائحِ إلى محلِّه، وكان إذا جاءه طفلٌ صغيرٌ أو خادمةٌ صغيرةٌ، فإنه يُعطيها أردأ ما عنده من اللحم، ولذلك كان يبقى طوالَ اليومِ حتى المساء ولا يبيع إلا شقَّة واحدة أي نصف الذبيحة التي يجلبها.. نتيجة لذلك فقد تباعد الناس عنه شيئاً فشيئاً لغشه وعدم جلبه إلاَّ الأنواع السيئةَ من اللحوم.

هذا ما لاحظه إنساننا صاحب الدكانِ فأراد وكعادته إسداء النصحِ لهذا الرجل لعلَّه يستقيمُ في تعامله مع الزبائن وبما يرضون به، فينفَعَ وينتفِعَ ويربحَ.

فقال له: يا أخي لقد شَغَلَ هذا المحلَّ قبل مجيئكَ إليه لحامٌ آخر كان يجلب أحسن الذبائح وأفخر اللحوم، والله سبحانه وتعالى وفَّقه أيَّما توفيق لأمانته وحسن معاملته فكل ذبائحه تُباعُ خلال ساعاتٍ قليلةٍ، وربحهُ كان معقولاً بسيطاً

ولكن بما أنه يبيع الكثير فكان يربح الكثير، فلماذا لا تماثله بذلك وتحذو حذوه فتعامل الناس معاملةً طيّبة ونزيهة دون تمييز وتجلب أجودَ أصنافِ اللحومِ؟.

❖❖❖

وفي صباح اليوم التالي وبينما كان إنساننا ذاهباً إلى عمله ألقى نظرة على المحل فرأى أن ذلك اللحام ولأول مرة قد أتى بذبيحةٍ من أجود الأنواعِ وأحسنِها لحماً **فقال في نفسه**: الحمد لله لقد أصغى هذا الجزَّار إلى النصيحةِ وعمل بها.

ولكن ما إن عاد السيد محمد أمين من عمله حتى كانت المفاجأة الكبرى تنتظرهُ، فبالتفاتةٍ منه تجاهَ ذاكَ الدكانِ رأى أن الذبيحة لا تزال معلقة بتمامها وكمالها لم يقربها مشترٍ واحد، فهي كما رآها صباحاً واللحامُ يقلِّب كفَّيه ندماً ويتميَّز غيظاً وحنقاً على ذاكَ الذي نصحَ له.

حاول الناصحُ الأمينُ المرورَ دون أن يُشعر به اللحامُ الغشاشُ.. ولكن أنّى له ذلك.. فقد كان يترصَّد قدومَه بصبر نافدٍ وكانت دكانهُ بجانبِ باب دار السيد محمد أمين، وما أن وقعَ بصرُه عليه حتى **اعترضه قائلاً لائماً**:

انظر ماذا حلَّ بي نتيجةً لسماعِ نصيحتك... انظر الخطبَ الفادحَ الذي أحللته بي!. قال ذلك بتهدُّجٍ وسخطٍ وقلبُه مليءٌ بالغيظِ.

عندها ألهم الله السيد محمد أمين أن يضعَ يده على رأس الجزارِ **قائلاً**: استحلفك بالله ورسوله... ألم تقل في نفسك إن حالفني الربح سأستمر في هذه المسيرةِ الطيّبةِ، وإن كان عكس ذلك سأعود إلى ما قد سلف من عادتي وأجلبُ رديءَ الذبائحِ وأغشُّ؟.

دُهشَ الجزارُ ساعتئذٍ وفوجئَ بحدسِ إنساننا الصحيح **فأجابه متسائلاً**: يا للغرابة من قال لك ذلك!. وكيف عرفت مع أني قلْتُه في سرِّي!.

فردَّ عليه إنساننا قائلاً: ابتعدْ عن سبيلي... تريد إذاً اختبار ربّك وامتحانه تعالى؟. إن الله تعالى لا يُمتحَنُ، بل يُطاعُ عندها ترى النتائجَ الطيبةَ.

قال ذلك ودخل منزلَه مفكِّراً في أمر ذلك الجزارِ الذي لم يُبَعْ عندهُ شيءٌ من الذبيحةِ وكم ستكونُ خسارتهُ كبيرةً من جراءِ ذلك، وبعد أن تناولَ الطعامَ ونال قسطاً من الراحة أشفقَ عليه.. **وعاد إليه قائلاً:** احملْ ذبيحتك على دابَّةٍ واتْبعني.

ذهبَ به إلى عددٍ من معارفه أصحابِ المطاعم، فباعَ كلَّ واحدٍ منهم قسماً من الذبيحةِ وأعِيد له رأسُ ماله بعد أن كانت خسارتهُ محتمةً لأن الذبيحة لو بقيتْ عنده لفسدَتْ وتَلِفَت نظراً لعدم وجودِ ثلاجاتٍ في ذلك الزمانِ لحفظ الموادِّ الغذائيةِ.

وفي اليومِ التالي وبينما كان إنساننا في طريقه إلى عمله مرَّ كعادته من أمام الجزَّارِ وإذ به قد عادَ إلى سيرتهِ الأولى بجلبِ اللحمة الرديئة.

❖❖❖

فهذا الجزارُ المطففُ وأمثالهُ يسيرون بشهواتِ نفوسهم المريضةِ، ولا يخافونَ سوءَ الحسابِ، ولو أنهم فكَّروا بالموتِ وبالسؤالِ عن أعمالهم لغيَّروا سيرتهمُ الخبيثةَ، لذلك أراد الله تعالى أن يذكِّر المطففين بذلك اليومِ العظيمِ الذي سيقفونَ فيه بين يديه فقال تعالى: ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝** ﴾: و **(يَظُنُّ):** مأخوذةٌ من الظنِّ: وهو الاعتقادُ الراجحُ. ومنه قوله تعالى: (**..وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ..**)(1). أي: ثَبُتَ ذلك لديهم وتقرَّرَ في نفوسهم.

و ﴿ **مَّبْعُوثُونَ** ﴾: مأخوذةٌ من البَعْثِ وهو الإيقاظُ بعد رقدةٍ. فبعثُ الناسِ بعد موتهم إنما هو إعادتهُم إلى الحياةِ من بعد رقدتهم في قبورهم.

واليومُ العظيمُ: هو يومُ القيامةِ فهو عظيمٌ لما يتبعه من الخيرِ الواسعِ الأبدي الذي لا يتناهى للمحسنين. وهو أيضاً عظيمٌ لما يتبعهُ من الشقاءِ والعذابِ الأليمِ

(1) سورة التوبة: الآية (118).

للمسيئينَ. وأما كلمةُ ﴿ **أَلَا** ﴾**:** فهي هنا كلمةُ تحضيضٍ، والتحضيضُ هو الحثُّ على القيامِ بالفعل، كأن تقولَ للمسرفِ على نفسه ألا تتوبُ وقد بلغتَ المشيبَ.

ويكونُ المرادُ من هذه الآية الكريمة: ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ** ﴾:

أي: ألا يجبُ عليهم أن يفكِّروا وينظروا أن الذي خلق السمواتِ والأرض وأوجدهما على هذا النظامِ البديع هل يمكنُ أن يترُكَ الإنسانَ سدىً!.

إن العدالةَ الإلٰهيةَ تقضي أن لا يُعاملَ المحسنُ كالمسيءِ، وأنه لا بدّ من يومٍ تقفُ فيه الخلائقُ جميعاً للسؤالِ بين يدي ربِّ العالمين.. قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴿٦﴾ ﴾: **والربّ:** هو المربي الممدُّ بالحياةِ. و ﴿ **ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾: جمعُ عالمٍ وهي تشملُ سائر أنواع المخلوقاتِ.

ويكون المرادُ من هذه الآية: أي: أن الممدَّ بالحياةِ لهذه العوالمِ كلها هذا المربي الذي لا يُعجِزه شيءٌ سيدعو الناسَ للوقوفِ بين يديه وأنه سائلُهم عن أعمالهم يومَ هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيءٌ.



النشاط الذاتي:

إن ربي الذي خلقني هو أولُ من بدأني بالإحسانِ فحُباً به وحُباً برسوله الكريم ﷺ الذي علّمني التضحيةَ والعطاءَ الخالصَ لوجه الله، أعاهدُ نفسي صباحَ كل يومٍ وقبل أن أنطلقَ لعملي على أن أعاملَ الناسَ كافّةً دون النظرِ إلى قرابةٍ أو صداقةٍ معاملةً حسنةً وضمن الحقّ، ولا أبخسَهم حقّهم في أي مجالٍ من مجالات الحياة، وأعاملهم كما أحبّ أن يعاملوني.

التدريبات:

❖ احفظ سورة المطففين من أستاذك جيداً وثابر على دراستها والتفكُّرِ فيها.



الأسئلة

1) قال تعالى: ﴿ **وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١** ﴾ ما هو معنى كلمة: ﴿**وَيْلٌ**﴾؟.
2) اشرح بعض الأعمال التي إن قام بها الإنسانُ يكونُ مطففاً من جملة المطففين.
3) لماذا كان اللحامُ المثالي تتوافدُ عليه الزبائنُ بشكلٍ مستمرٍ، وما هو سبب ربحه الكثير؟.
4) بماذا ألهم الله تعالى العلاَّمة محمد أمين شيخو أن يجيب ذلك الجزَّارَ المكار؟.
5) لأي شيءٍ مهمٍ وخطيرٍ لفتَ تعالى المطففين حتى يكفوا عن كذبهم وغشِّهم؟.



الدرس التاسع — تتمَّة تأويل سـورة المطففين (2)



الجزء الثلاثون — سورة المطففين

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

أعزائي الطلاب: إن المُعرضَ عن ربه يحسبُ أن الحياةَ هي الحياةُ الدنيا فقط، وأنه ليس من حياةٍ بعدها ولا مسؤوليةَ عليه لذلك ورحمةً من الله أراد تعالى أن يقتلعَ هذه الفكرةَ الخاطئةَ من نفسه فقال تعالى: ﴿ **كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ** ﴿٧﴾ ﴾:

و(**كَلَّآ**): كلمةُ ردْعٍ وزجرٍ، **والكتاب:** ما يُكتب على الإنسان من أعماله، فلكل امرئٍ كتابٌ جامعٌ تسطَّرُ فيه أعمالهُ كلها صغيرها وكبيرها منذ أن أصبح مكلَّفاً حتى فِراقِهِ لهذه الدنيا. و﴿ **ٱلْفُجَّارِ** ﴾: جمعُ فاجر، والفاجرُ هو الذي فَجَرَ، أي: خَرجَ بعمله السيِّء عن السير الإنساني والطريقِ القويم.

و﴿ **سِجِّينٍ** ﴾: مأخوذةٌ من **سَجَنَ**، بمعنى قيَّد وحَبَسَ، ومنه: السِّجْنُ وهو

الحَبْسُ، والسجِّين: هو الشديد، فما كُتِبَ على الفُجّار من عملهم يجعلهم في سجِّين أي محبوسين في حالٍ شديدٍ عليهم لا يستطيعون الخروجَ منه.

أعزائي الطلاب: خلقَ الله تعالى الإنسانَ وجعل له من الأهليّةِ للترقي إلى طريقِ الكمالِ ما يجعلُه يعلو ويسمو على سائر المخلوقات، لكن الفاسقَ تحبِسُه أعمالُه المنحطَّةُ عن الإقبالِ على الله، وتمنعهُ من العُروجِ في طريقِ القُرْب، فكلّ ما يجدُه من الملاذِّ الجسدية لا يخلِّص نفسه مما هي واقعةٌ فيه من الهمِّ ولا يجعلُها تخرجُ من سجنِ الكَدَرِ والأحزانِ، فهو دوماً في سجِّين، أي: في حالٍ نفسيٍ شديدٍ أشدَّ عليه من السجن الجسدي.. وإذا أردت أن تدرك ذلك فانظر إلى حال الفاجرِ السائرِ في طريق الفسقِ والأذى تجدُه مكدَّر القلبِ، منغَّصاً مهما جلبَ من المال ومهما بلغَ من العزِ والسلطانِ، ومهما أعطى نفسه من الملاذِّ والشهواتِ فهو دوماً في ضيقٍ وضنكٍ لا يفارقُه الهمُّ والكَدَرُ. وقد بيَّن لنا الله تعالى ذلك بقوله: **﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا...﴾**[1].

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١٨٨﴾[2].

ذلك حالُهم في الدنيا فإذا جاء أحدَهم الموتُ وجدَ تفريطَه وخسارتَه ولؤمَه في نفسه فأصبحَ في سجِّين، أي أن نفسه تصبحُ محبوسةً في حالٍ شديدٍ من الحزنِ والألم النفسي والخجلِ بين يدي هذا الخالق الكريم وهنالك لا تجدُ مكاناً أوفقَ لها من النار فهو دوماً منطوٍ على نفسه وهي محاطةٌ بسجنٍ من الخجل والحزن وهو خالدٌ في نار جهنمَ لا يستطيعُ أن يخرج منها لأن حريقَ هذه النار وعذابها يجعلُه في سلوةٍ عما يحيطُ به من الآلام النفسية.

---

(1) سورة طه: الآية (124).

(2) سورة آل عمران: الآية (188).

ثم بيَّن لنا تعالى شأن ذلك الحالِ المذكور وعظيمِ أثره على النفس فقال تعالى:

﴿ **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ﴿٨﴾** ﴾: أي: أنك مهما تصوَّرت من حال ذلك الفاجر وهمّه وضيقه فهو أعظم، ومهما تخيَّلت من هموم السجناء وضيقهم في سجنهم فحالُ ذلك الفاجر في سجنه أشدُّ وأكبرُ!.

ثم بيَّن لنا تعالى دِقةَ إحصائه على المجرمين أعمالَهم التي فعلوها في دنياهم فقال تعالى: ﴿ **كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٩﴾** ﴾: **والمرقوم:** أي ذو أرقامٍ متتاليةٍ، فأعمالُ المسيئين جميعاً مسطرةٌ فيه عملاً إثرَ عملٍ منذ سِنِّ الرُّشدِ حتى نهايةِ الحياة، قال تعالى:

(وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴿٤٩﴾)[1].

ثم بيَّن تعالى أن المكذِّب إنما يحرمُ نفسه يومئذٍ من ذلك الخير الذي أعدّه الله تعالى له وأنه يجرُّ لنفسه بعمله السيِّء الشقاءَ والهلاكَ. فقال تعالى: ﴿ **وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾** ﴾: أي ما أعظمَ ما ولَّى عنهم من الخير وما أعظم الشقاءَ والهلاكَ الذي أوقعوا أنفسَهم فيه. ﴿ **ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾** ﴾: **ويوم الدين:** هو اليوم الذي تدينُ فيه الأنفسُ، أي: تقرُّ كلها بالحق، فهي تدين وتقر لأن الشهوة التي كانت تحجبها عن رؤية الحق في دنياها تظهر لها يومئذٍ حقيقتها، وهناك تخجل من عملها وإساءتها فتندم وتتحسَّر على تفريطها وتقصيرها، فترى أن كل ما جاءتْ به الرسُلُ عن ربها حقّاً، وترى أن الله هو الرحمنُ الرحيم، وأن الله عادلٌ وربٌ متفضِّلٌ، فتخضعُ مستسلمةً إليه وترى أن النار التي سيصير إليها العصاةُ هي لهم خيرُ علاجٍ، وأن الجنَّة التي سيصيرُ إليها الطائعون المحسنون هي لهم خير مستقرٍ ومُقام.

---

[1] سورة الكهف: الآية (49).

ومثلُ الخلق جميعاً يومئذٍ كمثل إنسانٍ بين يدي طبيبٍ حاذق، فتراه يدين له أي يستسلمُ لأمره من بعد أن عاينَ مقدرتَه وعرَفَ كمالَه وعلْمَه، فإن كان هذا الإنسانُ صحيحاً ووصف له ذلك الطبيبُ طعاماً مغذِّياً أخذ ذلك عنه بقبول وتسليم، وإن كان مريضاً عليلاً وأمره بالحِمْية ووصفَ له بعضَ العلاجاتِ المُرَّةِ الكريهةِ تراهُ يدينُ لكلامهِ ويذعِنُ مستسلماً لحكمتهِ.

وكذلك يومُ القيامةِ يدينُ الخلقُ جميعاً لربِّ العالمين، فيحمَدُ المحسنون ربهم عما يسوقه إليهم من النعيم، ويحمَدُه العُصاة المجرمون ويستسلمون له على ما سيُحلُّه بهم من العذاب في الجحيم، قال تعالى: (..**وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾**)[1].

ثم بيَّن لنا تعالى السبب الذي يجعلُ الإنسانَ مكذِّباً بيومِ الدين فقال تعالى: ﴿ **وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾** ﴾: أي: أن الإنسان إذا جعل يعتدي ويتجاوزُ الحدودَ، ولم يسلكْ طريقَ الإنسانيةِ كان من خصائصه التكذيبُ بذلك اليومِ، فإذا رأيتَ مكذّباً بيوم القيامةِ فاعلَمْ أنه رجلٌ مجرمٌ، وإذا أردت أن تفهمَ معنى كلمة ﴿ **مُعْتَدٍ** ﴾ وكلمة ﴿ **أَثِيمٍ** ﴾ فنقول: كلمة ﴿ **مُعْتَدٍ** ﴾: مأخوذةٌ من اعتدى بمعنى جاوز الحدَّ، وهي هنا تعني الذي يجاوز الحدودَ الإنسانيةَ في معاملته للناس، فإذا باع غشّ، وإذا وعدَ أخلفَ، وإذا سار في الطريق أطلقَ بصرهُ في الحرام، وإذا تكلَّمَ آذى بلسانِه الناس، وهكذا كل امرئٍ يقومُ بعملٍ لا يرضاهُ لنفسه ولا يحبُّ أن يعامله به الناس فهو معتدٍ.

أما ﴿ **أَثِيمٍ** ﴾: فهو الذي اكتسبَ باعتدائه تلك الصفةَ المنحطةَ التي لا تليقُ بالإنسانِ، والتي تجعلُه مُستحِقاً للعقوبةِ والتأديب، فهو عند قيامه بالفِعل الخبيثِ يُسمَّى معتدياً، فإذا صدرَ منه ولبسَ ثوبَ الإجرامِ، واكتسبَ اسْمَ المجرمِ الذي

---

[1] سورة يونس: الآية (10).

جَرَمَ نفسه أي: أبعد عنها الخيرَ وجرَّ لها العقابَ والتأديبَ سُمِّيَ أثيماً.

ثم بيَّن لنا تعالى كيفية تكذيب المعتدي بيوم الدين فقال تعالى: ﴿ **إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣** ﴾: أي: أنه بسبب انغماسه بالعملِ الخبيثِ لا يعودُ يميِّز الشرَ من الخيرِ، فإذا تَلَوْتَ عليه الآياتِ الدالةَ على عظمةِ الله، وإذا أنت لفتَّ نظرهُ إلى الكونِ وما فيه من الدلائلِ الناطقةِ بعظمةِ الخالقِ، وإن بيَّنت ما جاء به الرُّسُلُ عن الله من الهُدى والحقِ، عارضَك فيما تقولُ وزعَم أن ما تُبيِّنه له غيرُ متلائِمٍ مع عصره، بل هو من الأساطير، أي: الأحاديثِ المسطَّرةِ المروية عن الأقدمين والتي لا تصلح لزمانه. وفي الحقيقةِ، كل معتدٍ أثيم في أي عصرٍ كان، إذا هو لم يرجع عن غيِّه وشهواته لا يذعنُ للحق بل يكذِّب به لأنه يراه معارضاً له في سيره وغيرَ متلائِمٍ مع ما تشتهيه نفسُه الخبيثةُ من الرذيلةِ، وما هي مصطبغةٌ به من الدناءة، ولو أنه تابَ واستقامَ لشاهدَ الحقّ بمجرد رجوعهِ إلى الله وتوبته إليه.

ثم إن الله تعالى ردَّ على ذلك المعتدي الأثيم: ﴿ **كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤** ﴾: وكلمة **(كَلَّا):** كما رأينا من قبل كلمةُ ردعٍ ونفيٍ لذلك الزعمِ الباطلِ.

أي ليس الأمرُ كما يزعُمُ ذلك المعتدي وليست تلك الآياتُ البيِّنة بأساطيرِ الأولين، لكنَّ تلك الأعمالَ التي كسَبها وقامَ بها ذلك المجرمُ رانتْ على قلبه أي حَجبتْهُ وسترتْهُ فأصبحَ أعمى البصيرةِ لا يستطيعُ أن يميِّز الخيرَ من الشرِ ولا يتمكنُ أن يرى ما في أوامرِ الله من الهُدى والخير وبشيءٍ من التفصيل نقول:

رَانَ عليه: بمعنى حجَبه وغلبَ عليه. **والقلوب:** جمع قلبٍ وهي تعني قلبُ النفسِ التي تعقل وترى به الخير من الشر.

﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾: أي ما كانوا يقومون به من الأعمال. فالأعمالُ السيِّئةُ التي يكسِبُها الإنسانُ تقفُ حجاباً على القلبِ فتسترهُ وتغلبُ عليه كما تسترُ الغشاوةُ العينَ عن النظرِ، أو كما تسترُ الأوساخُ المتراكمةُ على زجاجةِ المصباحِ شُعلتهُ وهناك يختفي نورُه ولا يكاد يُبين. ولكن عن أي شيء يستر ذلك العمل السيِّء ذلك المجرم؟. إنه يستره عن الاستنارة بنور الله الذي به يرى الخير من الشر ؛ وقد بيَّن لنا تعالى ذلك بقوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ﴾: و(كَلَّآ): معناها كما رأينا كلمة ردعٍ ونفي، أي: ليست آياتنا بأساطير الأولين، لكن عملَ أولئك المعتدين وقفَ حجاباً بين قلوبهم وبين ربّهم فحجبهم عن الاستنارة بنوره تعالى، ذلك النورُ الذي يكشفُ للنفسِ حقائق الأشياء. وإذاً بالإجرامِ ومقارفةِ المعاصي والذنوبِ تُحجَبُ النفسُ عن نور خالقها، فتصبحُ عمياءَ لا تُبصرُ.

فإذا أراد الإنسانُ أن يتخلَّص من عمى البصيرة فما عليه إلا أن ينظرَ في الكونِ متأمِّلاً مهتدياً إلى خالقه، مُستقيماً على أمره، وهناك تنقشع الحجُبُ عن النفس، وتُقبل على الله تعالى فترى بنوره الخير خيراً والشر شراً. ثم بيَّن لنا تعالى نتائجَ أولئك المجرمين فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦ ﴾:والمراد بكلمة (**لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ**): أن ما فيهم من الآلامِ والعللِ النفسية هو الذي يجعلُ النار تشتعلُ بهم. وبشيء من التفصيل نقول: **صالوا:** مأخوذةٌ من صليَ. تقول: صلى النار، أي: قاسى شدَّتها واحترقَ بها. (**ٱلۡجَحِيمِ**)**:** هي النار المتأجِّجةُ المهوَّاةُ. فهؤلاء بما خالطَ نفوسهم من الخبث يحترقون في النار وتلتهبُ بهم، وما مثلهم إلا كمثلِ قطعةٍ من الترابِ غُمِستْ في الزيت وتشرَّبت به فأصبحَ مخالطاً لذراتها، فإذا ما أدنيتها من النار التهبت بما فيها، وكذلك المجرمُ يومَ القيامةِ تشتعلُ النار فيه بما خالطَ نفسه من العلل والأمراض النفسية.. ولو أنه كان طاهرَ النفسِ لما ضرَّته بشيء. فهو يرتمي فيها وتلتهبُ

به ليتخلَّص مما فيه من الآلام والعلل. ﴿ **ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾** ﴾: و(**يُقَالُ**): أي يقولُ بعضُهم لبعضٍ وهم يحترقون فيها هذه النار إنما جَرَرْناها لأنفسنا بعملنا، فهم يعترفون ويقرُّون على أنفسهم أن عذابهم فيها منبعثٌ عن أعمالهم الخبيثة التي قدَّموها في الدنيا، كما يعترف المفرِّط في الطعامِ أن ما أصابه من التُّخمَة إنما نشأ عن إفراطه. ومن عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ولا يظلم ربُّك أحداً.



التطبيق والتوجيه:

❖ إذا كان بعضُ التجّار لغرضٍ زائلٍ لا يغادرونَ حوانيتَهم مالم يُمسِك كلّ منهم دفترَ مبيعاته ليعرف كم هي مبيعاتُه وكم هي أرباحهُ، فما أجدرَ بالإنسانِ وقطارُ العمرِ يقتربُ في كل لحظة من محطته النهائية (الموت) أن يحاسب نفسه! فيشجِّعها إن أحسنتَ ويهذِّبَها إن أخطأت.

❖ قم كلّ مساءٍ وبعد أن تأوي إلى منزلك وقبلَ النومِ بمراجعةِ ما قمتَ به من أعمالٍ في يومك، وانظرْ هل كانت ضمنَ الصراطِ المستقيمِ وبما يرضي الله، وإن لم تكن كذلك فابحث عن السببِ وعن طريق الخلاصِ من تلك الأعمالِ وعاهِدْ ربك على تحسين عملِك وتلافَ تقصيرَك.

التدريبات:

احفظ السورةَ جيداً وتعاونْ مع زُملائِك على قراءتها غيباً.



الأسئلة

1) قال تعالى: : ﴿ **كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧** ﴾ إلى ماذا تُشيرُ كلمةُ: **(سِجِّينٍ)** ؟.

2) ما الذي سيخسرهُ ذلك المطففُ في الآخرةِ من أجل دنيا منقضيةٍ؟.

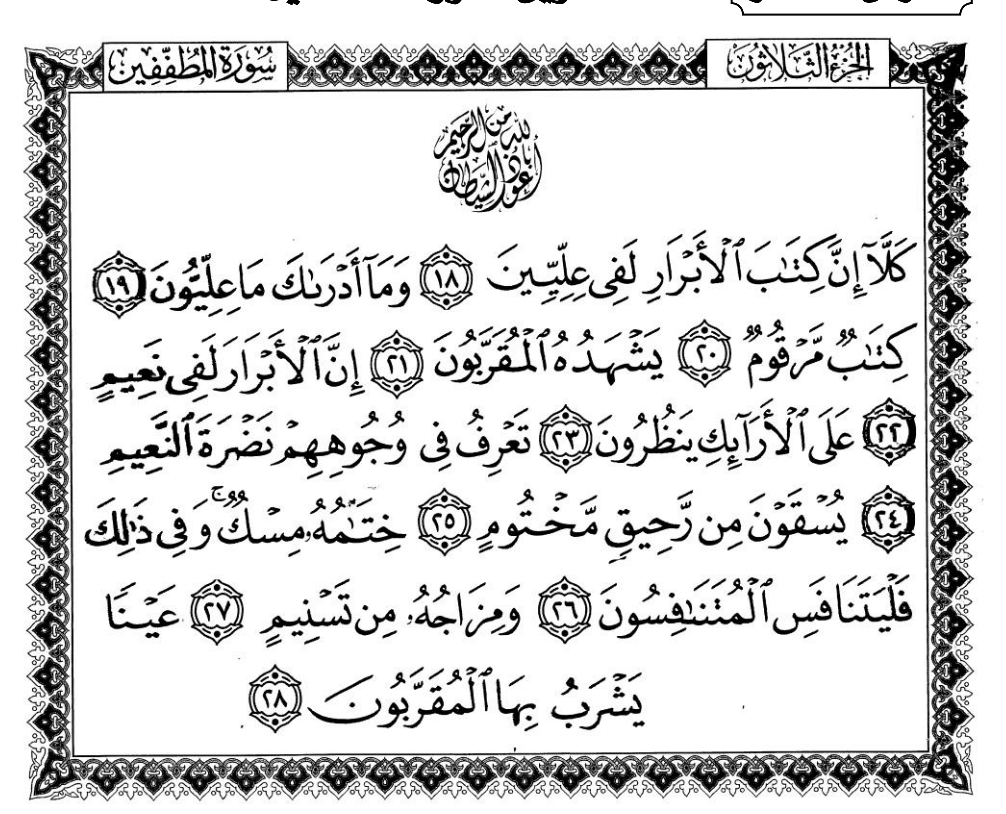
3) اشرحْ .. لماذا يستسلمُ الناسُ يومَ القيامةِ لربِّ العالمين؟.

4) الإنسان المعرضُ الفاجرُ.. إذا تَلَوْتَ عليه الآياتِ الدالةَ على عظمةِ الله، وإذا أنتَ لفتَّ نظرهُ إلى الكون وما فيه من الدلائل الناطقة بعظمة الخالق، وإن بيَّنتَ ما جاءَ به الرسُلُ عن اللهِ من الهدى والحقِ، عارضك.. لماذا؟.

5) ما هو الطريقُ حتى يتخلصَ به الإنسانُ من عمى البصيرة ويعودَ له نورهُ وشهودُه؟.



الدرس العاشر — تتمَّة تأويل سورة المطففين (3)


الجزء الثلاثون — سورة المطففين

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

أعزائي الطلاب: بعد أن تبيَّن لنا في الدَّرسِ السَّابق أن عملَ الفجَّار يجعلُهم في سجِّين، وأن الله لا يضيعُ مِن أعمالهم شيئاً، أرادَ تعالى أن يردَّ على الفُجّارِ زعْمَهم الذي يزعُمونَه بأن المؤمنينَ في تورُّعِهم عن إعطاءِ النفس هواها ومتابعةِ شهواتها إنما يحرمون أنفسَهم من السُّرورِ والنَّعيمِ فقال تعالى رادّاً عليهم قولَهم:

﴿ **كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ** ﴿١٨﴾ ﴾: **وكلا**: كلمةُ ردْعٍ ونفيٍ، أي ليس الأمرُ كما تزعُمون أيُّها الفُجَّار بأن المؤمنين في امتناعهم عن شهواتهم محرومونَ من السرور، فالمؤمنون أولو بصيرة وأصحابُ نفوسٍ ساميةٍ، رأوا دناءة الدنيا وأنها جيفةٌ فنفروا منها، وعافوا التطلُّع إليها، ولذلك لم يغترُّوا بها، كما رأوا الأعمال العالية التي تعود عليهم بالسعادةِ الأبديةِ والخيرِ الدائم فمالوا إليها وقاموا بها.

وأما **الكتابُ:** فهو ما كُتِبَ عليهم من أعمالهم. وقد سمَّاهم تعالى بالأبرار، **والأبرارُ:** مأخوذةٌ من برَّ بمعنى أَحْسَن، فهم أبرارٌ محسنونَ لأنفسهم ولسائر المخلوقاتِ وليس يصدر عنهم إلا كلُّ خيرٍ وإحسانٍ كما أن برَّ أيضاً بمعنى وفَّى بوعده.

فالإنسان قبل خروجه لهذه الدنيا، لَّما كان في عالَم الأزلِ نفساً مجرَّدةً عاهدَ ربَّه على السَّيرِ في دنياهُ ضمنَ أوامِره تعالى والاستنارةِ دوماً بنوره، إذ بنوره تعالى تنكشِفُ للنفسِ حقائقُ الأشياءِ فلا يضل الإنسان طريقه، ولا يجتذبُ لنفسه إلا كلَّ شيءٍ طيبٍ يعودُ عليه بالسرورِ والسَّعادةِ.

هكذا عاهدَ الإنسانُ ربَّه. فالأبرارُ همُ الذين جاؤوا لهذه الدنيا فبرُّوا بوعدِهم وأقبلوا على خالقهم فلم ينقطعوا عنه، ولذلك كانتْ معاملَتُهم مع الخلق جميعاً كلها خيراً وبرّاً وإحساناً.

ولكن بِمَ تعودُ عليهم أعمالُهُم الإنسانيةُ التي كلُّها برٌّ وإحسان؟. إنها تجعلُهم في عليِّين. أي أنها تجعلهم يتنقَّلون في النَّعيمِ العالي لحظةً فلحظةً وحيناً بعد حين، فمن نعيمٍ عالٍ إلى نعيم أعلى، وهكذا دوماً يرقون في درجات القُربِ والتجلِّي الإلٰهي رقيّاً متتالياً ليسَ له انتهاءٌ أبدَ الآبادِ وذلك ما نفهمه من كلمة ﴿ **لَفِى عِلِّيِّينَ** ﴾. وإذا أردت عزيزي الطالب أن تدركَ كيفيةَ هذا الرقيّ المتتالي فنقول:

الإنسان في الدار الآخرةِ إنما يتنعَّمُ بسبب عمله. فالأبرار الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه وكانوا من أهل المعروفِ والإحسانِ إذا هم قدموا بعد هذه الحياةِ الدنيا على الله تعالى تنكشِفُ لهم أعمالُهم العاليةُ التي قدَّموها من قبلُ، فيكون لهم من إحسانهم سببٌ للإقبالِ على خالقهم، وهناك تتنزَّل التجلِّياتُ الإلٰهيةُ على نفوسهم ولا تزال أعمالُهم تمرُّ أمامَهم واحداً فواحداً بصورةٍ متسلسلةٍ، وهم يرقون بها ويزدادون عُروجاً ونعيماً حتى يعودَ لهمُ العملُ الأولُ فيرقونَ به من جديدٍ ولا يذكرونَ أنه مرَّ من قبل.

ومثلُهم كمثلِ رجلٍ وضعَ عينيه أمامَ صندوقٍ ذي مناظرَ تدورُ بصورةٍ متسلسلةٍ الواحدةُ تِلْوَ الواحدةِ، فإذا انتهت الصُّورُ وعادت الصورةُ الأولى عاد لها بشوقٍ وكأنه لم يرها من قبلُ فيعودُ يتنعَّم بها من جديد.

وكذلك الإنسانُ في الآخرةِ لا يلبثُ أن تمرَّ عليهِ أعمالُه كلّها حتى يعودَ له الأولُ فيقبلُ بواسطته على اللهِ تعالى، وهو لا يذكُر أنه مرَّ به، بل يراهُ جديداً، وهكذا تراه يعرُجُ في مدارجِ الإقبالِ والنعيمِ عُروجاً لاحدَّ له ولا انتهاء.

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا شأنَ ذلك النعيم الذي يلقاهُ الأبرارُ في الدارِ الآخرةِ فقال تعالى: ﴿ **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾** ﴾: أي: وما أعظمَ ذلكَ النعيمَ العالي، وما أكثرَ سرورَ صاحبه به، إنك مهما تصوَّرتَ من علوّهِ وسموّهِ فلست تستطيعُ أن تُدركَ له نهايةً أو حدّاً.

ثم بيَّن لنا تعالى أن نعيمهم إنما ينشأُ عن عملهم المسجّلِ ضِمنَ أرقامٍ متتاليةٍ فقال تعالى: ﴿ **كِتَـٰبٌ مَّرۡقُومٌ ﴿٢٠﴾** ﴾: و(**مَّرۡقُومٌ**): هو ذو الأرقامِ المتتاليةِ: فأعمالُهم المكتوبةُ عليهم إنما هي محفوظةٌ بأرقامٍ متسلسلةٍ واحداً بعد واحدٍ فليس يضيعُ منه شيءٌ. ﴿ **يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾** ﴾: و (**ٱلۡمُقَرَّبُونَ**): جمع مقرَّبٍ والمقرَّبُ: هو الذي سارَ في طريقِ الحقِّ فقرَّبَتْهُ طاعتهُ إلى خالقهِ وأوصلَه سيرهُ العالي إلى مقامِ القُربِ من ربِّه. فهو يشهَدُ أي يرى ويعاين في الدنيا سموَّ عمله فيزدادُ إقبالاً على ربِّه وبذلك يزداد معروفاً وإحساناً. وهو يشهدُ عملَه العالي أيضاً عند موته فيموتُ راضياً مطمئناً ثم إنه يشهده في الدارِ الآخرةِ فيرقى به رقيّاً متتالياً.

وبعد أن ذكر لنا تعالى أن كلَّ إنسانٍ إنما يجعلُه كتابُه في المنزلةِ التي تُناسبُه وتليقُ به فكتابُ الفجَّار يجعلُهم في سجِّين وكتابُ الأبرارِ يجعلهم في عليِّين، أراد تعالى أن يبيِّن لنا حالَ الأبرار فقال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾** ﴾: و(**نَعِيمٍ**): مأخوذةٌ من نَعِمَ، تقول: نَعِمَ فلانٌ، أي: رَفِهَ عيشُه ولانَ وطابَ واتَّسعَ.

فالأبرارُ الذين برُّوا بوعدِهم وصدقوا ما عاهدوا الله عليه. أي أقبلوا على ربِّهم مستنيرين بنورهِ غير منقطعين عنه، فكان كل عملِهم مع الخلقِ برّاً وإحساناً، هؤلاء الأبرارُ إنما يحيون في الدنيا حياةً طيبةً لا يُنغِّص صفوها منغِّصٌ، ولا يكدِّرها مُكدِّر، ذلك لأنهم يرون أعمالَهم العاليةَ فيُقْبِلون على الله، ومن كانت نفسه مقبِلةً على خالقها فهي دوماً في نعيمٍ، فإذا هم فارقوا هذه الدنيا إلى الدار الآخرةِ انتقلوا من نعيمٍ إلى نعيمٍ أرقى وأبقى، ولَدارُ الآخرةِ خيرٌ ولَنِعمَ دارُ المتقين.. ثم بيَّن لنا تعالى أن سرورَ الأبرار إنما ينشأُ عمَّا قدَّموه من أعمالٍ فقال تعالى: ﴿**عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ** ﴿٢٣﴾﴾: و(**ٱلْأَرَآئِكِ**): جمْعُ أريكةٍ، والأريكةُ: هي السريرُ المزيَّنُ الفاخرُ، حيث إن الأَرَائِكَ إنما هي السُّررُ التي يتَّكئ عليها الإنسان فيتوصَّلُ بها للإقبال على الله، وهناك ينظرُ أي ينعمُ بمشاهدةِ ذلك التجلِّي الإلٰهي الذي يُزيلُ عن النَّفسِ جميعَ ما بها من هُمومٍ وأتعابٍ.

وبالحقِّ إن الإنسانَ في دنياه وآخرتهِ لا يستطيعُ الإقبالَ على ربِّه ما لم يكن له عملٌ صالحٌ يستندُ عليه، فإذا جاءَ الإنسانُ بالأعمالِ الصالحةِ كانت لنفسهِ مستنداً ومتَّكأً فتقْبِلُ بها على خالِقها في الدنيا وتُقبِل بها عند الموتِ، وكذلك حالُها في الدارِ الآخرةِ ورقيّها دوماً مبنيٌ على أعمالِها وذلك قانونٌ من قوانين النفسِ لا يتغيَّرُ ولا يتبدَّلُ. فالنفسُ تجدها خجلةً منقبضةً، ومدبرةً غيرَ مقبلةٍ إذا لم يكن لها مع من تواجهه معاملةً حسنةً، فإن هي قدّمت إحساناً التفتت مقبِلةً فخورةً وكان عملُها الطيبُ لها بمثابةِ مستندٍ وأريكةٍ. وإذاً فرقيّ الإنسان وسعادتُه إنما يكون بأعماله، فمن كان أكثر إحساناً كان أكثر إقبالاً على ربه، وبالتالي أكثرَ سعادةً ونعيماً، وإنما يتفاوتُ الناسُ بحسبِ أعمالهم. (**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾**) [1].

[1] سورة الزلزلة: الآية (7-8).

ثم بيَّن لنا تعالى أن ذلك النعيمَ الذي يجدهُ الأبرارُ المحسنون لا يخفى أمرهم على غيرهم، وإنما يظهر لك إذا نظرتَ إلى وجوههم.. فقال تعالى: ﴿ **تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ** ﴿٢٤﴾ ﴾: **والنضرةُ**: هي الجمالُ والحُسْنُ. فهؤلاء المحسنون ليسوا بمكدَّرين من أعمالهم، بل هم فرحون بها مسروروون منها، فإذا أنت نظرت إلى وجوههم عرَّفك حُسنها وجمالُها وبريقُها بما انطوتْ عليه نفوسُهم من السرورِ والنعيمِ.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى أنّ الأبرارَ على الأرائكِ ينظرون، وأنها تظهرُ على وجوههم نضرةُ النعيم. أراد تعالى أن يبيِّن لنا نوعَ العملِ الذي قدَّموه في دنياهم، فكان لهم أريكةً ومستنداً يستندون عليه فيرقون ذلك الرقي المتتالي فقال تعالى: ﴿ **يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ** ﴿٢٥﴾ ﴾: **والسقي**: هو تقديمُ الماءِ وسوقُه لمن يريدُ أن يشربَ، تقولُ: سقى فلانٌ الدابةَ، أي: وضعَ بين يديها الماءَ، وسقى الزرعَ، أي: ساقَ إليه الماءَ ليشربَ ويروى به. **والرحيقُ**: الخالصُ والصَّافي: تقولُ: مسكٌ رحيقٌ، وعسلٌ رحيقٌ، أي: خالصٌ لا غشَّ فيه، ومنه رحيقُ الزَّهر وهو مادةٌ سُكَّريةٌ أودعها اللهُ في الأزهارِ يمتصُّها النَّحْلُ فتكونَ عسلاً.

والمختومُ: مأخوذةٌ من خَتَمَ زجاجةَ الدواءِ، أي: سدَّها سدّاً مُحكماً بالشَّمعِ أو غيره حِفظاً لها من الفسادِ وتسرُّب الجُرثوم.

ويكونُ المرادُ من هذه الآية الكريمة: إن الأبرار إنما تُساق لهم في الدنيا بسبب إقبالهم على ربِّهم طيباتُ الأعمالِ ورحيقُها الخالصُ من كل شائبة. فإذا أرادوا كسب المالِ مثلاً جعلَ الله تعالى كَسْبَهم له من أطيبِ وجهٍ، وإذا أرادوا التزوُّجَ بالنساءِ جعل الله تعالى نصيبهم في الزواج أطهرَ النساءِ وأشرفَهُنَّ، وإذا أرادوا إنفاقَ المالِ كان صَرْفُهم له في مساعدةِ ذوي الحاجاتِ ومعونةِ البائسين، وفي كلِّ وجهٍ طيبٍ مفيدٍ، وإذا أرادوا أن يتكلَّموا أجرى الله الحقَّ على لسانِهم، فكان

كلامُهم أمراً بالمعروفِ أو إصلاحاً بين الناسِ ودعوةً إلى الهُدى والخيرِ، وهكذا دائماً يُسقَوْنَ أي يُساق لهم أصفى الأشياءِ وأنقاها وأخلَصُها.

وأما ما نفهمهُ من كلمةِ: ﴿ **مَّخْتُومٍ** ﴾: هنا فهو المحفوظُ من تسرُّب الأذى والفساد إليه فلا يمكن لهؤلاء الأبرار يوماً ما أن تفسدَ أخلاقُ زوجاتهم، فهن دوماً طاهراتٌ محفوظاتٌ، ولا يمكن لكسبهم أن يتسرَّب إليه درهمٌ من حرامٍ، ولا يمكن لهم أن ينطقوا بالباطل وعملهم دوماً طيبٌ محفوظٌ من تسرُّب الأذى إليه. وبشيءٍ من التفصيل نقول:

نفسُ الإنسانِ مَثَلُها كمثلِ الإناء فإذا أقبل الإنسانُ على ربه أصبحتْ نفسُه بهذا الإقبالِ طيبةً طاهرةً، فلا تتطلّبُ إلاّ الطيِّبَ الطاهرَ، وهناك يُعطيها اللهُ طلَبها فتُسقى الرَّحيقَ، أي: يُساق لها طيِّبُ الأعمالِ وأطهرُها المختومِ الذي لا يمكنُ أن يخالطَه فسادٌ أو يمازِجَهُ مكروهٌ.

وإن هو أعرضَ عن ذكرِ ربِّه امتلأتْ نفسه بسبب إعراضِها بالخبثِ، ونبتَ فيها الشَّرُّ، وصارتْ تتطلَّبُ الأشياءَ الخبيثةَ فيُساقُ لها طلبُها وتُعطى شهواتها وبذلك يخرجُ منها جرثومها وخبثها ولا يعودُ كامناً فيها، ولو أنها لم تطلق للفعلِ لظلَّتْ شهوتُها فيها، بل لتوسَّعت تلك الشهوةُ فطغَتْ على النفسِ كلِّها فأهلكها خبثُها، وإذا أردتَ أن تدركَ هذه الحقائقَ فأقْبل على ربِّك في صلاتكَ كما أمركَ تظهرُ لك الحِكمةُ الإلٓهية في ما يسوقهُ اللهُ للناسِ، وهناك تقرُّ بالعدالة الإلٓهيةِ وتزدادُ إقبالاً على الله فلا تتطلَّب نفسك إلاَّ الطيِّبَ ولا تُسقى إلا من الرَّحيقِ المختوم. ثم بيَّن لنا تعالى سرور الأبرار في النهاية بذلك فقال تعالى: ﴿ **خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ** ﴾: **والختام:** هو كلُّ ما يُختَمُ به على الشَّيءِ، والختامُ أيضاً: هو نهايةُ وآخرُ الشيءِ. **والمِسْكُ:** نوعٌ من أفخرِ أنواعِ الطيبِ سُمّيَ مِسكاً لأن الإنسانَ يتمسّكُ به لما يفوحُ منه من الرائحةِ المنعشةِ للنفسِ.

فهؤلاء الأبرارُ دوماً تفوحُ عليهم أعمالهم في النهايةِ بروائحَ طيبةٍ، فهم

مسرورون دوماً من عملهم لا يخجلون منه أمام الناس، كما لا يخجلون منه بين يدي الله، بل إنهم فخورون مُتمسِّكون به لما يرون من سموِّه وشرفه.

والواقع أن الإنسان إذا قام بعملٍ من أعمالِ المروءةِ والشَّرفِ تجدُه فخوراً مُتمسِّكاً به بين الناس، فلا يجلسُ في مجلسٍ إلا جلسةَ سموّ وشرفٍ، لما يفوح عليه من عمله الطيب الذي قام به. ذلك هو حاله في الدنيا، وكذلك الأمرُ عند الموتِ، وفي الآخرةِ ختامُ عمله عليه مسكٌ. ﴿ **وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾** ﴾: **والتنافُس:** هو التسابقُ للشيءِ العالي الطيبِ بحيثُ يريدُ كلُّ امرئٍ أن يجرّه لنفسه، فمن محبةِ الله تعالى أنه يحثُّنا على التنافس في تلك الأعمالِ الطيبة، ومن عملَ صالحاً فلنفسه ومن أساءَ فعليها.

ولكن ما الذي كان يخالطُ عملهم حتى كان سبباً في نعيمهم وسرورهم؟..

لقد كان يخالطه النيَّةُ العاليةُ، وهذا ما بيَّنه الله تعالى لنا بقوله: ﴿ **وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾** ﴾ **والمزاجُ:** مأخوذة من مَزَجَ بمعنى خَلَطَ، تقول: مزجَ فلانٌ اللبنَ بالماءِ، ومزجَ عصيرَ الفواكه بماء الزهرِ، وعلى هذا فالمزاجُ هو ما يُصبُّ فوق شيء آخرَ ويمزجُ به فالماء مزاجٌ وماء الزهرِ مزاجٌ.

أما **التسنيمُ**: مأخوذةٌ من سَنَمَ، يُقال: سنمَ القمحُ، أي: ارتفع وخرجت سنابلهُ التي تعلو رأسه، ومنه السَّنام وهو الحدَبةُ التي تعلو ظهر الجملِ. و﴿**تَسْنِيمٍ**﴾: هو تبوُّء المنزلةِ العاليةِ، تقول: تسنَّم فلانٌ منصب الوزارة. وبناءً على ما قدَّمناه نقول: إن الرحيقَ المختومَ الذي يُسقاهُ الأبرارُ أي أنَّ الأعمالَ الطيبة التي كانوا يقومون بها في الدنيا إنما كان يمازجُها ويخالطُها التسنيمُ أي النيَّةُ العاليةُ التي ترفعُ من شأنها وبذلك تتسنَّمُ نفوسُهم منازلَ القربِ الإلٓهي. وبشيءٍ من التفصيل نقول:

قد يقوم شخصان اثنان بعملٍ متماثلٍ فيتصدَّقُ أحدهُما بمبلغٍ من المالِ على أحدِ الفقراءِ، وليست له غايةٌ من عمله إلا التقرُّبُ إلى الله تعالى بمساعدةِ ذلك الفقير.

وقد يتصدَّق الآخرُ بنفسِ المبلغ، لكنه إنما يريدُ بعمله أن يشتهرَ بين الناسِ بحبِّ الخير، وبذلك تروجُ تجارتُه مثلاً إن كان تاجراً ويُقبل الناس عليه، وهكذا بين الأول والثاني بَوْنٌ شاسعٌ وفرقٌ عظيمٌ.

فمزاجُ عملِ الأوَّلِ النيَّةَ العاليةَ، وبذلك تُقبِلُ نفسُه على ربِّها فتتسنَّم مواطِنَ القُربِ الإلٓهي. وأما الآخرُ فليس له من عمله شيءٌ، وهكذا مزاجُ عملِ المؤمنِ دوماً من تسنيمٍ، أي: نيةٌ طيبةٌ تسمو به إلى المنازلِ الرفيعةِ.

ثم بيَّن لنا تعالى أن تلك النيةَ العاليةَ التي تمازجُ عملَ الأبرارِ إنما تلازمُ كلَّ عملٍ من أعمالهم فقال تعالى: ﴿ **عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ** ﴿٢٨﴾ ﴾: **والعينُ:** هو ينبوعُ الماءِ. ويَشْرَبُ بِهَا: أي بواسِطَتِها. فتلك النيةُ العاليةُ إنما هي ينبوعٌ لا ينضُبُ لدى الأبرارِ فما من عملٍ يعملونه إلاَّ وتقارنه النيّةُ العاليةُ.

وأما كلمة ﴿ **يَشْرَبُ** ﴾: فإنما تعني الشُّربَ من التجلِّي الإلٓهي. تقول: شَرِبَ الماءَ، أي: جرعَهُ ورويَ منه وأما كلمة ﴿ **بِهَا** ﴾ أي: بسببها وبواسطتها. ويكون ما نفهمهُ من هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿ **عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ** ﴾: أن النيةَ العاليةَ لدى الأبرارِ إنما تقارنُ كلَّ عملٍ من أعمالهم، فهي بمثابةِ عينٍ دائمةِ الجريانِ، وبواسطةِ هذه النيةِ العاليةِ يشربون من التجلي الإلٓهي.

فإذا أردتَ أن ترقى بعملك فلتكُن غايتُك من أعمالك رضاءَ اللهِ تعالى، وليكن مزاجُ عملك من تسنيم، وهنالك تشربُ من التجلي العالي الإلٓهي، ومن كان أعلى نيةً كان أكثرَ نعيماً، وأرقى منزلةً، واللهُ تعالى عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ.

قال رسول الله ﷺ: **« إنَّما الأعمالُ بالنيَّاتِ، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى »**[1].

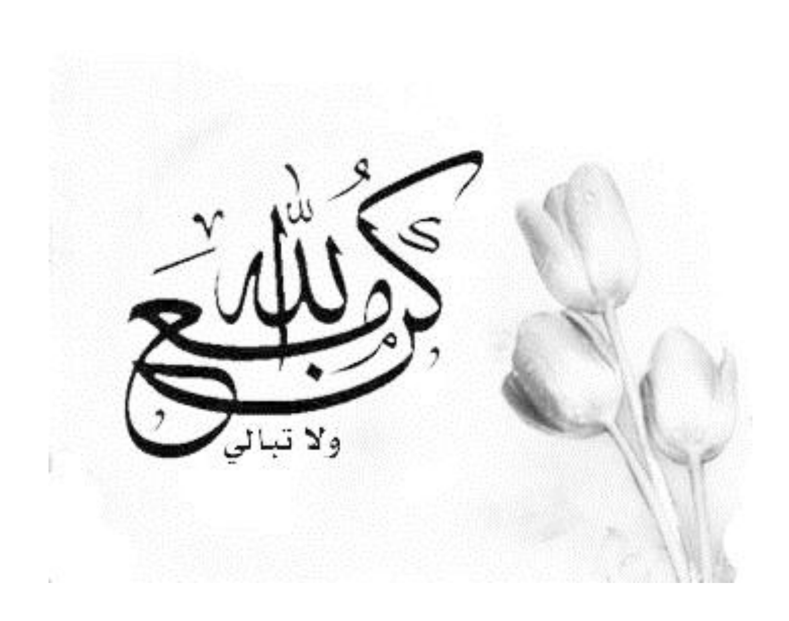


[1] متفق على صحته.

التدريبات:

❖ احفظِ السورةَ الكريمةَ جيداً وتعاون أنتَ وزملاؤك على دراسةِ ما جاء في تأويلِها السامي.

❖ اذكر مقارنةً بين نفسِ المؤمنِ المقبِلةِ على الله تعالى وما فيها من خيرٍ، وبين نفسِ الكافرِ المعرِضةِ عن الله تعالى وما فيها من شرٍ.



الأسئلة

1) لماذا ينفِرُ المؤمنُ من الدُّنيا، ولماذا يقومُ بالأعمالِ الصَّالحةِ ويُجاهدُ هوى نفسه؟.

2) على ماذا عاهدَ الإنسانُ اللهَ تعالى قبل قُدومهِ لهذه الحياةِ الدنيا، وما هو معنى كلمة ﴿ ٱلْأَبْرَارَ ﴾؟.

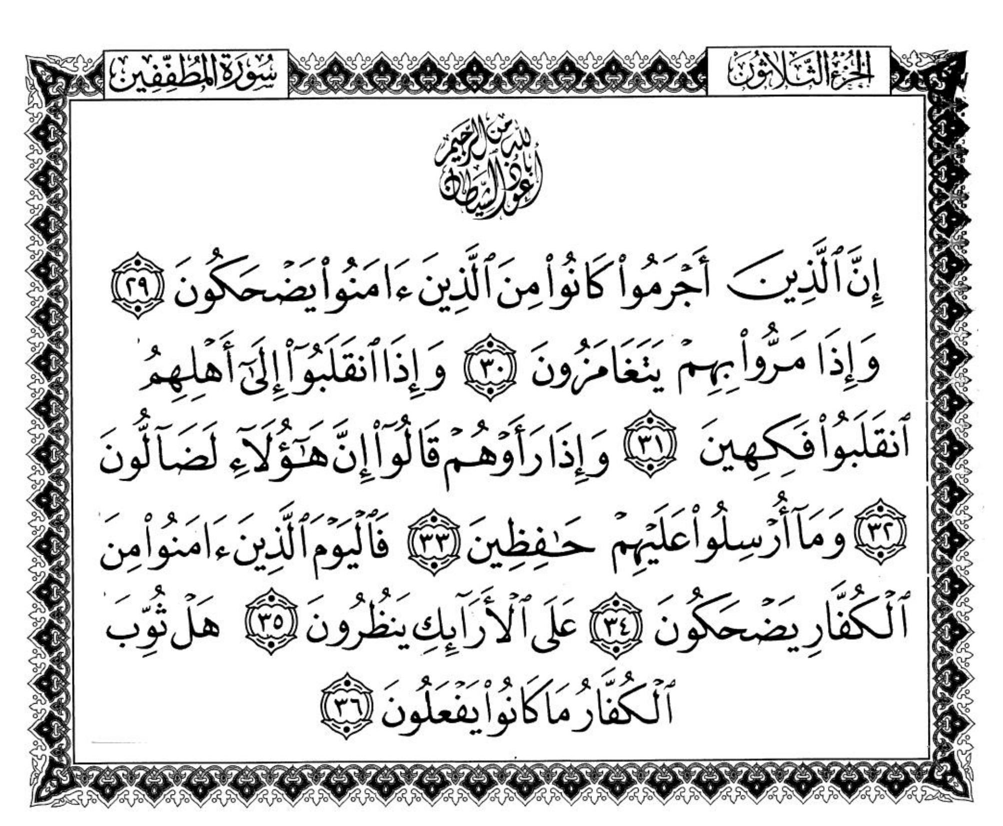
3) قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ ﴾ إلى ماذا تُشير آية: ﴿ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ ﴾؟.

4) ما هو الشيءُ الذي يستندُ عليه المؤمنُ في إقبالهِ على الله تعالى؟.

5) ما هو معنى قوله تعالى: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ ﴾؟.



‏الدرس الحادي عشر‏ تتمَّة تأويل سـورة المطففين (4)


الجزء الثلاثون — سورة المطففين

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾
وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ
ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ
﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ
ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ
ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

أعزائي الطلابُ: بعد أن بيَّن لنا الله تعالى حالَ المؤمنين وأنهم بالقربِ من ربهم تعالى ، وبعد أن حثَّنا على التسابُقِ والتنافسِ على أعمالِ الخيرِ والإحسانِ لجميعِ الخلقِ أرادَ تعالى أن يبينَ لنا ضلالَ المجرمِ في دنياه، وعمى بصيرته عن رؤيةِ السُّلوكِ العالي الذي كان يسلُكُه الأبرارُ فقال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ** ﴿٢٩﴾ ﴾ : **(أَجۡرَمُواْ):** مأخوذةٌ من جَرَمَ وهي بمعنى: رفعَ الخيرَ عن نفسه وحرمها منه بعمله السيِّء. تقول: جرم الناقةَ ، أي: جزَّ صوفها. وجرمَ النخلة ، أي: قطفَ ثمرها ، وأجرمَ الرَّجُلُ ، أي: أنه بإعراضهِ عن ربِّه وقع في الشرِ وآذى غيرهُ ، وبذلك رفع الخيرَ وأبعده عن نفسه.

و﴿**كَانُوا** ﴾**:** أي كانوا في دنياهم. **وضحك منه:** أي عجبَ منه واستخفَّ بعمله. فالذين أجرموا أي: الذين أعرضوا عن ربهم، فوقعوا في الشُّرور، وحرموا أنفسَهم من الخيرِ، هؤلاء كانوا في دنياهم يعجَبون ويسخَرون من المؤمنين ظانِّين أنَّ المؤمنين بترفُّعهم عن الدنايا إنما يضيِّعون على أنفسهم لذائذَ الحياةِ.﴿ **وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ** ﴿٣٠﴾ ﴾: و(**يَتَغَامَزُون**): مأخوذةٌ من غَمَزَ، تقول: غَمَزَ بعينه، أي: أشار بها، وتغامزَ القومُ، أي: أشارَ بعضُهم إلى بعضٍ بأعينهم. ويكون ما نفهمه من هذه الآية: أن المجرمين كانوا إذا مرَّ بهم المؤمنون يشيرون بأعينهم إلى بعضهم بعضاً استخفافاً واحتقاراً لشأنهم. ﴿ **وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ** ﴿٣١﴾ ﴾: (**ٱنقَلَبُوا**)**:** بمعنى رجعوا وانصرفوا مأخوذةٌ من قلبَ بمعنى صَرفَ، تقول: قَلَبَ المعلم الطلابَ أي: صرفَهم إلى بيوتهم، وقلبَ القائدُ الجندَ أي: أعادهم إلى أوطانهم، وانقلب القومُ، أي: عادوا ورجعوا.

و﴿**أَهۡلِهِمُ** ﴾**:** أي أصحابهم وعشيرتهم، مأخوذةٌ من أَهِلَ بمعنى: أَنِسَ وسُرَّ بصحبته. ﴿**فَكِهِينَ** ﴾: مأخوذةٌ من فَكِهَ، أي: كان طيبَ النفسِ ضَحوكاً، يُقال: تفكَّه فلان بالشيء، أي: تلذَّذَ به وتمتَّع. وتفكَّه بِعِرْض فلان، أي: تلذَّذ باغتيابه. فهؤلاء المجرمونَ كانوا إذا رجعوا إلى أهلهم وصحْبِهم رجعوا متلذِّذين باغتيابِ المؤمنين.

﴿ **وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ** ﴿٣٢﴾ ﴾: و (**لَضَآلُّونَ**): مأخوذةٌ من ضلَّ ضدُّ اهتدى، تقول: ضلّ الطريقَ، أي: لم يهتدِ إليه وضاعَ عنه.

فهؤلاء الذين أجرموا كانوا إذا رأوا المؤمنين من بعيدٍ قالوا فيما بينهم إن هؤلاء المؤمنين بتورُّعهم عن الشهواتِ وحرمانهم أنفسهم منها إنما أضاعوا سُبلَ السعادةِ، وأبعدوا عن أنفسهم السُّرورَ والخير. ﴿ **وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ** ﴿٣٣﴾ ﴾: **وأرسله:** أي وجَّهه وبعثه، و ﴿ **حَٰفِظِينَ** ﴾: مأخوذةٌ من حَفِظَ، بمعنى: صانَ وراقبَ، والحافِظُ: هو الموكَّل بالشيءِ المراقب له.

فهذه الآيةُ إنما ذكرها الله تعالى لتبيِّن لنا لسانَ حالِ المجرمين في انتقادهم على المؤمنين سيرهم واعتقادهم.. فالمؤمنون إنما يحفظون جوارحهم من المعاصي طاعةً لربِّهم، لأنهم يعلمون أنَّ الله تعالى أرسل الإنسانَ إلى هذه الدنيا وأمره أن يكون حافظاً لجوارحه من المعاصي.

أما المجرمون فإنهم يُطلقون لأنفسهم العِنانَ مدَّعين أن البشر ما أُرسلوا لهذه الدنيا ليكونوا كما يعتقدُ المؤمنون حافظين على أنفسهم من الوقوع في الشهواتِ الدنيئةِ، وأنه لا قيدَ يقيِّدهم، ولا رقيبَ يُراقبهم، فلْيطلقوا لأنفسهم عنانها، وليتمتعوا بملاذِّ الدنيا وشهواتها ذلك هو مذهبُهم وتلك هي سيرتُهم ومسْراهم.

﴿ **فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾** ﴾: والمرادُ بكلمةِ (**فَٱلْيَوْمَ**): أي يومَ القيامةِ، ويضحكون منهم: أي يستخفُّون بعقلهم حينما يرونهم قد أضاعوا الآخرة ونعيمها بعرضٍ قليل من الدنيا.

وعلى هذا فليس ضَحِكُ المؤمنين من الكافرين شماتةً بهم، بل عجباً منهم واستصغاراً لهمَّتهم وعقلهم ؛ وما ضحكُهم منهم إلا كضحِك رجلٍ من طفلٍ أراد أن يشتري بدينارٍ ذهبي لعبةً بخسةَ الثَّمنِ لا يساوي ثمنها قرشاً واحداً.

وقد عرَّفنا تعالى بسبب ضَحكِ المؤمنين من الكُفَّار فقال تعالى: ﴿ **عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾** ﴾: و(**ٱلْأَرَآئِكِ**): جمع أريكةٍ كما مرَّ بنا من قبلُ، وهي تشير إلى عملِ الإنسان الذي يعتمدُ عليه فيكون مستنداً له في الوصول إلى بغيته وأمانيه.

وهنا إشارةٌ إلى أعمالِ المجرمين وأساليبهم الخدَّاعة المموَّهة التي قاموا بها في الدنيا فكانت لهم مُستنداً في الوصول إلى مآربهم وغاياتهم الدنيوية.

فالمؤمنون في الدار الآخرة حينما ينظرونَ إلى أرائكِ المجرمين وأساليبهم الخدَّاعة التي قاموا بها في الدنيا سعياً وراءَ عَرَضِها الزائلِ يضحكون منهم ويستخفُّون بهمَّتهم الدنيئة.

ثم حذَّرنا تعالى من نتيجة عملهم، ومما يعودُ به الفعلُ الخبيثُ على صاحبهِ من الشرِّ في دنياه قبل آخرته، فقال تعالى: ﴿ **هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾** ﴾:

و(**ثُوِّبَ**): مأخوذةٌ من ثابَ، بمعنى: رجعَ، تقول: ثابَ فلانٌ إلى رُشْدِه، أي: رجعَ إلى وعيه. وثُوِّب ـ بضم أوله ـ أي: أُعيدَ عليهم عملُهم.

ويكون ما نفهمه من آية: ﴿ **هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾** ﴾: أي: أما أُعيدَ عليهم عملُهم، أما أُلبسوه فكان لهم بمثابة ثوبٍ وكانوا به عبرةً للناس.

والواقع أنّك لو تتبَّعت أهل الفسقِ والعصيان، ونظرت إلى عواقبهم لرأيت كلاًّ منهم قد أُلبس فعله، وثُوِّب ما يتناسب مع جرمه.

فما من زانٍ إلا رجعَ زناه عليه بالأمراض والفقر، وما من قاتل إلاّ وكان نصيبهُ القتلُ، وما من بائع يغشُّ الناس إلاّ وذاق وبالَ غشّه وكانت عاقبةُ أمره خسراً. وفي الحديث الشريف: « **إنَّ لكلِّ حسنةٍ ثواباً ولكلِّ سيئةٍ عقاباً** ».



الأسئلة

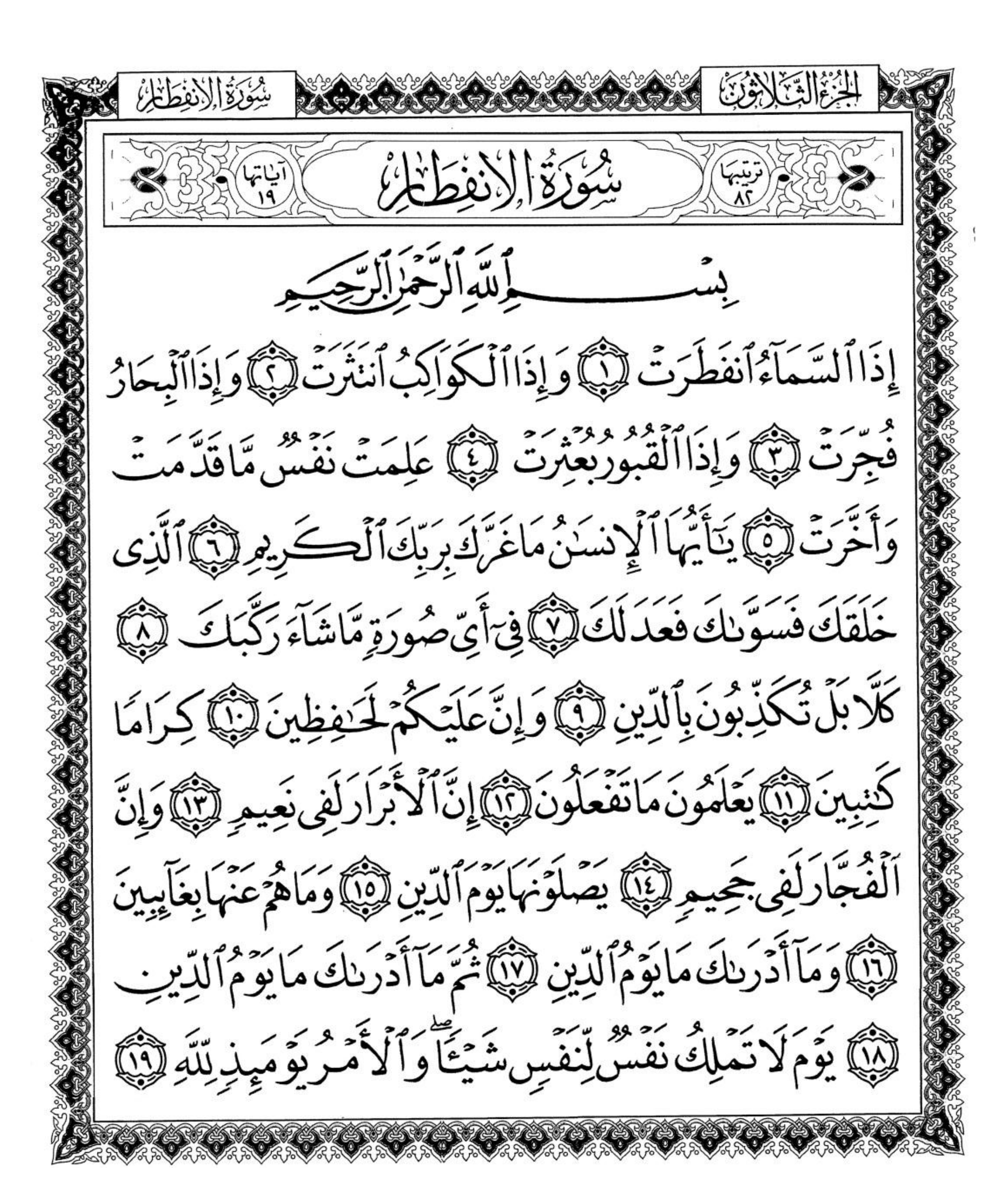
1) لماذا سمَّى القرآنُ الكريمُ المعرضَ عن الله تعالى (بالمجرمِ) فما هو مدلولُ تلك التسميةِ؟.

2) الإنسانُ الذي يغشُّ الناسَ ويكذبُ عليهم من هم (أهله)؟.

3) قال تعالى: ﴿ **وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ** ٣٣ ﴾: إلى ماذا تُشير هذه الآيةُ الكريمةُ؟.

4) رأينا أن كلمة **(ثُوِّبَ)** مأخوذةٌ من ثاب، بمعنى: رجع، فكيف تنطبقُ هذه المعاني على المطففين؟.





ترتيبها ٨٢ — **سورة الانفطار** — آياتها ١٩

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ
فُجِّرَتۡ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ﴿٤﴾ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ
وَأَخَّرَتۡ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِي
خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾
كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا
كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ
ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ
﴿١٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ
﴿١٨﴾ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

الدرس الثاني عشر تأويل سورة الانفطار

طلابنا الأعزاء: في هذه السُّورةِ الكريمةِ يريدُ اللهُ تعالى أن يبيِّن للناس أنه لا بدّ لهم من يومٍ ترى فيه كلُّ نفسٍ ما قدَّمت من الأعمالِ، وأنه في ذلك اليومِ لا تنفعُ الإنسانَ شفاعةُ الشافعين، فلا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمرُ يومئذٍ للهِ، ومثلُ الناسِ يومئذٍ بين يدي اللهِ كطفلٍ نصحهُ والدُه بألاَّ يلعبَ بالسكِّين الحادَّةِ فما ألقى لكلام والدهِ بالاً بل ذهبَ يلعبُ بها حتى قُطعتْ يدُه، وجُرحتْ جُرحاً بليغاً، فوقفَ ينظرُ إلى ما كسَبتْ يداه؛ أفَتراه إذا صار بين يدي الطبيب ليداويَهُ هل يتقدَّمُ من هذا الطبيبِ أحدٌ من أهلهِ وذويه فيطلبَ منه أن يتركَهُ وشأنه؟. ذلك هو حالُ الخلْق يوم القيامةِ بين يديْ رب العالمين!. فهو يسوق لكلِّ امرئٍ ما يناسبهُ وهو الحكيمُ العليمُ.

وقد بدأ تعالى السورةَ بآياتٍ تبيِّن لنا ما يقعُ من الحوادثِ قبلَ أن يقومَ الناسُ لربِّ العالمين. فقال تعالى: ﴿ **إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤** ﴾.

ونبدأُ بالآيةِ الأولى: ﴿ **إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١** ﴾ فنقول:

انفَطَرَتْ: أي رجعتْ إلى فِطرتها التي خلقها اللهُ تعالى عليها، وعادتْ إلى حالها الأوَّلِ إذ إن كلمةَ **(ٱنفَطَرَتۡ)** مأخوذة من فطرَ، نقولُ: فطر الأمرَ، أي: اخترعهُ، ومنه الفِطرةُ، أي: الصِّفةُ التي يتّصفُ بها كلُّ موجودٍ منذ الخلْق الأول **(عالمُ الأزلِ)**. ويكونُ ما نفهمهُ من كلمةِ **(ٱنفَطَرَتۡ):** أي: رجعتْ إلى فطرتها الأولى يوم أن خلقها الله، وقبلَ أن تكونَ محيطةً بهذا الكونِ جامعةً لما فيه من الموجودات، وبشيءٍ من التفصيل نقول:

خلق الله تعالى المخلوقاتِ، وألبسَ كلَّ شيءٍ ثوبَ الوظيفةِ المناسبةِ له، فجعلَ

السَّماءَ محيطةً جامعةً لهذا الكونِ، وهي أشبهُ والحالةُ هذه بقشرةِ البطيخةِ التي تجمعُ ما فيها من لبٍّ وعُروقٍ وبذور، فإذا كان يومُ القيامةِ انفطرتِ السَّماءُ، أي: عادت لِفطرتها من قبلِ أن تلبسَ ثوبَ وظيفتها، فعادت نفساً مجرّدة، ولكن ماذا يتلو هذه الحادثةَ؟. لقد بيَّن لنا تعالى ذلك بقوله: ﴿ **وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢** ﴾: **والكواكبُ:** جمع كوكَب مأخوذةٌ من كوكبَ، بمعنى: توقَّدَ وبرقَ، وهي أيضاً بمعنى اجتمعَ والتفَّ حول غيره.

فهذه النُّجومُ كلُّها إنما هي كواكبُ في توقُّدها وبريقها، وإنما هي أيضاً كواكبُ في اجتماعها حول الأرضِ عاملةٌ على تأمين سيرها المنتظم وتنقُّلها. و﴿ **ٱنتَثَرَتْ** ﴾: مأخوذة من نثر، بمعنى: رمى وفرَّق.

تقول: نثر المزارعُ الحبَّ، أي: ألقاهُ متفرِّقاً على غيرِ نظامٍ وترتيبٍ، ومنه انتثرَ الشيءُ أي وقعَ وتساقطَ متفرِّقاً. ويكونُ المرادُ من هذه الآيةِ:

أي: أنه إذا انكشفتِ السَّماءُ المحيطةُ بهذه الكواكبِ والجامعةُ لها على هذا النظامِ البديعِ، فعندَ ذلك تنتثرُ الكواكبُ متفرقةً متشتتةً، وتخرجُ عن هذا النظام البديعِ، كما تنتثرُ الحبّاتُ المنظومةُ في عِقدِ اللؤلؤِ إذا انقطعَ خيطها الناظمُ لها. ﴿ **وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣** ﴾: **(فُجِّرَتْ)**: مأخوذةٌ من فجرَ، بمعنى: خرجَ عن موضعه المخصَّصِ به، ومنه: انفجر، نقول: انفجرتْ أنابيبُ المياه، أي: تصدّعتْ وخرجَ الماءُ منها مندفعاً. فهذه البحارُ الملأى بالماءِ لو نظرتَ إلى سطحِها الواسعِ الممتدِ لوجدَته مُنحنياً محدّباً إذ الأرضُ كرةٌ سابحةٌ في الفضاءِ! والعلمُ البشريُّ لا يشكُ أن هذه الكواكبَ المحاطةَ بالسَّماءِ إنما تقومُ بقوةٍ ضاغطةٍ تؤثّرُ على سطحِ الأرضِ تأثيراً متجهاً من السَّطحِ إلى المركزِ وبذلك تجدُ المياهَ ملازمةً مواضعَها من البحارِ.

فإذا انفطرت السَّماءُ. وانتثرتِ الكواكبُ وزالتْ تلك القوةُ الضَّاغِطةُ فهنالك

تتفجّرُ البحارُ ويذهبُ ماؤها وترجعُ لحالها الأولِ يوم خلقَ اللهُ الأرضَ. وتُمَدُّ الأرضُ فيغدو سطحُها ممتداً امتداداً واسعاً لا يكاد يُدْرَك له حدٌّ أو نهايةٌ، وساعتئذٍ تُبعثرُ القبورُ ويَخرجُ منها الناسُ، ولذلك قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ** ﴿٤﴾ ﴾:و **(ٱلْقُبُور):** جمع قبر، وهو المكانُ والموضعُ الذي يُدفَنُ فيه الإنسان، يُقال: قَبَرَ الميتَ، أي: دفنه. **وبُعْثِرَتْ:** مأخوذةٌ من بعثر، بمعنى: بدَّدَ وفرَّق، تقول: بعثر الهواء الأوراقَ، أي: فرَّقها عن بعضها على غير نظامٍ، وجعلها مبدَّدةً هنا وهناك.

ويكون معنى هذه الآيةِ: أي: عندما تزولُ السَّماءُ وتنتثرُ الكواكِبُ ويزولُ الضَّغطُ عن الأرضِ تُبَدَّدُ ذراتُ الترابِ المتماسكةُ التي شدَّها إلى بعضها ذلك الضَّغطُ وتلك القوةُ فتتفرَّقُ متبددةً، ويتبعُ ذلك خروجُ الناس من قبورهم للوقوفِ بين يدي ربهم وحينئذٍ ترى كلُّ نفسٍ ما عملتْ قال تعالى: ﴿ **عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ** ﴿٥﴾ ﴾: و**(عَلِمَتْ):** أي شاهدتْ واطّلعتْ ومن ذلك قوله تعالى: (..**إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ** ﴿١١٩﴾)[1]. أي: مُطَّلعٌ ومشاهدٌ.

وقدَّم الشيءَ: أي: جعلهُ أمامه وحاضراً بين يديه. **وأخَّر:** ضد قدّمَ، أي: جعله لوقتٍ آخر.. فإذا كان يومُ القيامةِ، وحدثت تلك الحوادثُ التي أوردها الله تعالى في مَطْلع هذه السورة، ووقف الناس بين يدي ربهم، فهنالك تشاهدُ كل نفسٍ وترى ما **(قَدَّمَت)** في دنياها من خير أو شر.

كما تشاهد وترى ما **(أَخَّرَت)** أي: ما ستُكافأ به من الإحسان لقاء ما قدَّمته من عملها الطيبِ أو ما ستصيرُ إليه من العذابِ لقاءَ ما قدَّمتهُ من السُّوءِ، فعملُها الذي قدَّمته وكلُّ ما صدرَ منها في الدنيا، تجدهُ يومئذٍ حاضراً ماثلاً بين عينيها، وجزاؤها على أعمالها تشاهده أيضاً وتطَّلع عليه.

---

[1] سورة آل عمران: الآية (119).

فهي بين عملٍ صدرَ منها لا يغيبُ عنها، وبين جزاءٍ ستنالهُ ماثلٍ أمامها.

وما مثل الإنسانِ المسيءِ يومئذٍ إلا كرجلٍ اقترفَ جريمةً ووقفَ بين يَدي الحاكِم، فهو ساعتئذٍ يرى ما قدَّم من العملِ عند اقترافِ الجريمةِ، كما يرى العقُوبةَ التي أخَّرها لنفسه والتي ستُطبَّقُ عليه بسببِ جُرمه، وكذلك حالُ المحسنِ المطيع يرى الماضي والمستقبلَ أي: يرى العملَ والنتيجةَ والجزاءَ.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى ذلك البيانَ وحذَّرنا هذا التحذيرَ أرادَ تعالى أن يُذكِّرنا بفضلِه وإحسانِه فقال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦** ﴾: **وغرَّ:** بمعنى خدعَ وأطمعَ بشيءٍ باطلٍ، تقول: غرَّ البائعُ المشتري، أي: أوهمهُ أن البضاعةَ من نوعٍ جيدٍ وذاتُ ثمنٍ غالٍ، والحقيقةُ أنها رديئةُ النوعِ بخسةُ الثمن، فتقول: غرّ الطُعْمُ السمكةَ، أي: حسِبته لذيذاً حَسَناً فإذا بالموت الزؤام مستقرٌ كامنٌ فيه. و(**بِرَبِّكَ**): أي مربيك الممدّ لك بالحياةِ والإمدادِ الدائمِ الذي لا ينقطعُ طرفةَ عينٍ. **والكَرِيم:** هو الذي لا شائبةَ فيه، تقول: رزقٌ كريمٌ.. وقولٌ كريمٌ، أي: حسنٌ كريمٌ لا عيبَ فيه. **وربِّك:** أي: صاحبُ الأسماءِ التي كلُّها كمال، الذي لا يصدُر عنه إلا كلُّ فضلٍ وإحسانٍ وخيرٍ. ويكونُ المرادُ من هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦** ﴾: أي: ما هو الشيءُ الذي خُدعتَ به من هذه الدنيا فتوهَّمتَ أنه خيرٌ وانصرفتَ عن الإقبالِ على مربيكَ الممدِّ لكَ بالحياةِ، والذي لا يصدُر عنه إلا كلُّ إحسانٍ وفضلٍ وخيرٍ. ما الذي صَرفكَ عن الإقبالِ على ربِّك وأنتَ ترى فضلَهُ الذي لا ينقطعُ وخيراتِه التي ساقَها ويسوقُها دوماً إليك!؟.

ثم بيَّن لنا تعالى طرَفاً من فضلهِ علينا في أدوارٍ ثلاثةٍ مرَّرنا بها حتى صار أحدنا بشراً سوياً وإنساناً كاملاً فقال تعالى: ﴿ **ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧** ﴾:

وخَلَقَ: أي أوجدَ وأبدعَ على غيرِ مثالٍ سبقَ، وكلمةُ **(خَلَقَكَ)..** هنا إنما تشيرُ إلى الدَّورِ الأولِ الذي أظهرَ اللهُ تعالى فيه الإنسانَ للوجودِ يومَ بدأ خلْقهُ من نُطفةٍ، فانعقدَ جنيناً في بطن أمهِ، **وسوَّى الشيءَ:** أي جعلهُ مستوياً لا خللَ فيه ولا نقصَ، وكلمة **(فَسَوَّىٰكَ)** هنا تشيرُ إلى الدَّور الثاني الذي مرّ به الإنسانُ في بطن أمهِ إذ حوّلَ اللهُ تعالى هذه النطفةَ المنعقدةَ فجعلَ منها إنساناً تامَّ الخلْقةِ كاملَ الترتيبِ.

فإن أنت نظرتَ إلى وجهك وما فيه من الأعضاءِ وجوفِكَ وما فيه من أجهزةٍ، وعظامِكَ وما هي عليه من دقّةٍ في التركيب، وعروقكَ وأعصابكَ وما قامت عليه من نظامٍ بديعٍ، ودماغِك وما فيه من مراكزَ... أدركت معنى هذه التسويةِ، وعرفتَ أنها تشيرُ إلى جعْلِ تلك النطفةِ إنساناً سوياً.

أما **(عدل):** فبمعنى: قَوَّم، تقول: عدَّل فلانٌ الرمحَ، أي: قوَّمهُ، وعدَّل الشِعرَ، أي: جعله موزوناً مستقيماً.

(فَعَدَلَكَ): هنا تشيرُ إلى الدَّورِ الثالثِ الذي يصلُ إليه الإنسانُ في الحياةِ، إذ يتقلَّبُ من طفلٍ إلى إنسانٍ رشيدٍ ذي جسمٍ كاملٍ وفكرٍ ناضجٍ.

ويكونُ المرادُ من هذه الآيةِ الكريمةِ والآيةِ التي قَبلها:

أي: يا أيها الإنسانُ ما الذي صَرفكَ عن الإقبالِ على ربكَ ذلك المربي الذي خلقك في بطن أمكَ أولَ ما خلقك من نطفةٍ، ثم سوّاكَ، فجعل هذه النطفةَ إنساناً سوياً، فإذا ما خرجتَ لهذا العالم أدام عنايته بك حتى تبلغَ أشدَّك وتنقلب واعياً راشداً!.

ثم بيَّن لك تعالى أن الذي خلقك هذه الخلْقةَ التامةَ وسوَّاك هذه التسويةَ كان قادراً أن يجعلكَ في صورةٍ مخالفةٍ لهذه الصورةِ الكاملةِ وأن يركِّبك تركيباً آخر فيجعلكَ على صورة حيوانٍ من الحيوانات. أو على تركيبٍ غير ما أنت عليه الآن

فقال تعالى: ﴿ فِىٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ ﴾: فالله تعالى تفضَّل عليكَ بأن جعلكَ على هذه الصورةِ الكاملةِ التي أنت عليها الآن. أفلا يليق بك وقد عرفتَ فضلَهُ أن تشكُرَ نعمتهُ فلا تميلَ عنه إلى زينةِ الدنيا ومتاعها، أفلا يجدرُ بك أن تُقبلَ عليه ولا تنصرفَ عنهُ إلى سواهُ!. ثم إن الله تعالى شجبَ على المعرضينَ سيرهم وأنكرَ عليهم عملَهم فقال تعالى: ﴿ كَلَّا ﴾: **وكلاَّ:** كلمةُ ردعٍ وهي تفيدُ هنا معنى الاستفهامِ الإنكاري أي: إنها تقول: أليس ما بيَّنتُهُ لك حقاً؟. أتستطيعُ أن تنكر أيها الإنسانُ فضلي عليكَ في الخلق والإمدادِ؟. ألستُ الذي خلقتُك في بطن أمِّكَ؟. ألستُ الذي جعلتُك إنساناً سوياً؟. ألستُ الذي وهبتُك القوةَ والنماءَ وزيَّنتُكَ بالفكرِ حتى صرتَ إنساناً كاملاً وشخصاً واعياً راشداً؟.﴿ بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ ﴾: وهذه الآية إنما تفيدُ هنا أيضاً تقبيحَ عمل المعرضينَ في تكذيبهم لما جاء به الرسولُ الكريمُ ﷺ عن رب العالمين.

أفتبدِّلون هذه النِّعمَ وذلك الإحسانَ بالتكذيبِ فيما شرعته لكم من الأوامرِ التي هي كلُّها حقٌ وخيرٌ والتي يدلُّك عليها كل ذي نفسٍ فاضلةٍ وعقلٍ صحيحٍ.

﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ ﴾: **وحافظين:** أي ملائكةً يحفظون أعمالَكم فلا يغيبُ منها شيءٌ. وهؤلاءِ الملائكةُ هم ﴿ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ ﴾: **والكرامُ:** جمعُ كريمٍ، وهو كما رأينا من قبلُ الكاملُ الخالي من الشوائبِ ومن كلِّ نقصٍ وعيبٍ.

وقد جاءت صيغةُ الجمعِ هنا على وزن كرام لتبيِّن لنا أن الملائكةَ إنما كَمُلتْ صفاتُهم وكرُمت بإقبالِهم على خالِقهم. لأن الكريمَ هو اللهُ سبحانهُ وتعالى وحدَهُ. وكل مَن أقبلَ عليهِ كَرُمت صِفاتُه واشتقَّ منهُ الكمالَ. وقد أوردَ تعالى كلمةَ **(كِرَامٗا)** في هذه الآية ليبيِّن أن الملائكةَ إنما يكتبون بالحقِّ دون زيادةٍ أو نُقصانٍ غير مُقصِّرينَ في تأديةِ ما أمرهمْ به اللهُ تعالى. و﴿ كَٰتِبِين ﴾: أي يكتبون عليكُم جميعَ ما يصدُر عنكم

من أعمالٍ. ثم بيَّن لنا تعالى أن كتابةَ هؤلاءِ الملائكة إنما بُنيت على المشاهدةِ والعيانِ فقال تعالى: ﴿ **يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢** ﴾: مأخوذةٌ من عَلِمَ، وهي كما مرَّ بنا بمعنى: شاهدَ أو اطَّلع، فالملائكةُ دوماً مشاهدون لأعمالِ الإنسانِ، يرونَ كلَّ حركةٍ من حركاتهِ ولا يفارقونَه في اللَّيلِ ولا في النهار.

وقد أورد تعالى كلمة **(يَعۡلَمُونَ)** في صيغةِ المضارع ولم يقلْ عالمين لأن كلمة **(عالِم)** تفيد ثبوتَ العِلمِ قبلَ صُدورِ الفعلِ ووقوعه، أما **(يَعۡلَمُونَ)** فتفيدُ حصولَ هذه المشاهدةِ عند صدورِ الفعلِ من صاحبهِ.

وليس للملائكةِ أدنى اطلاعٍ على ما في نفسِك، وكلُّ ما يجري في النفسِ ليس يعلَمُه ولا يطَّلع عليه إلاّ الله، فإن أنت تُبتَ منه ورجعْتَ عنه لم تؤاخَذ عليه. أما إذا باشرتَ الفعلَ فهنالك يطَّلِع عليه الملائكةُ فيكتبونَ ويكونون شهوداً عليك.

ثم إن الله تعالى بيَّن عاقبةَ عملِ الإنسانِ المحسنِ ومعادَهُ عليه بالخيرِ، فقال تعالى: ﴿ **إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣** ﴾: و(**ٱلۡأَبۡرَارَ**): جمع بار، وهو الذي وفَّى وبرَّ بما عاهدَ اللهَ عليه، فالناسُ جميعاً عاهدوا ربهم في الأزلِ على السيرِ في طريقِ الكمالِ الإنساني، ووعدوه بعدمِ الانقطاعِ ودوامِ الإقبالِ عليه.

فالذين جاؤوا لهذه الدُّنيا ووفَّوا بعهدهم فأقبلوا على ربِّهم مرافقةً نفوسهُم نفسَ الرسولِ الكريمِ ﷺ وأحسنوا في معاملَتهم فكانوا أصحابَ برٍّ بالخَلْقِ أجْمَعين، يحيون حياةً طيبةً كلُّها سرورٌ ونعيمٌ.

وإذا كانتِ النِّعمةُ هي المسرةُ والحالةُ التي يسْتلِذُّها الإنسانُ، فالنعيمُ أعظمُ وأكبرُ، إذ إن النِّعمةَ تدلُّ على حالةٍ واحدةٍ ونوعٍ واحدٍ، وتعني استمتاعاً بشيءٍ مؤقتٍ، والنَّعيمُ يُفيدُ دوامَ المسَرَّةِ وتنوُّعَها وكمالَها من كلِّ ناحيةٍ.

فالأبرارُ في نعيم، وهذا النعيمُ يشملُ حياتَهم في الدنيا والآخرةَ، فهم مسرورون

في دنياهم مما قدَّموهُ من الإحسانِ، ولذلك تجدهمْ مُنَعَّمِين بلذةِ الإقبالِ على ربهم، مغمورينَ بما يفيضُه من نورهِ وتجلِّيه على قلوبهم.

وترى الأبرارَ في الآخرةِ مسرورين أيضاً، فهم ناظرون إلى أعمالهم، مُقبلونَ بها على ربِّهم، متدرِّجون في النعيمِ الأبديِ المقيمِ.

ثم بيَّنَ لنا تعالى حالَ الفجَّارِ فقال: ﴿ **وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ** ﴿١٤﴾ ﴾: **و الْفُجَّارَ:** جَمْع فاجِرٍ، وهو الذي خرجَ بأعماله عن طريقِ الإنسانيةِ التي يجبُ على الإنسانِ سلوكُها في الحياةِ. و(**جَحِيمٍ**): هو المكانُ الشديدُ الحرِّ والجوُّ الملتهبُ المشحونُ بالنار المتأجِّجةِ، فجوُّ المدفأةِ الملتهبةِ ذاتِ الجمرِ المتأجِّجِ جحيمٌ مثلاً، وجوُّ جهنَّمَ كلُّه جحيمٌ لما فيه من حرٍ شديدٍ.. إذاً الفجَّارُ صائرونَ لذلك الجوِّ الملتهبِ ذي النارِ المتأججةِ المشتعلةِ. ﴿ **يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ** ﴿١٥﴾ ﴾: و(**يَصْلَوْنَهَا**): أي يشتعلون بها وتلتهبُ بهم. و(**ٱلدِّينِ**): هو الحقُّ الذي تدينُ أي تخضَعُ له النفوسُ الكاملةُ وتقرُّ بسموِّه. وسمِّي يومُ القيامةِ، بيومِ الدينِ لأن الأنفسَ في ذلك اليوم تدينُ أي: تخضَعُ كلها للحقِّ معترفةً به. ﴿ **وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ** ﴿١٦﴾ ﴾: و**غَائِبِينَ**: مأخوذةٌ من غابَ بمعنى احتجبَ واستترَ. وعنها: أي عن الجحيمِ وشدته. ويكون معنى هذه الآية الكريمة:

إن الفجَّارَ في النارِ لا يغيبونَ فيها عن شعورهمْ لأن السِّيطرةَ في هذه الحياةِ للجِسْمِ، والنَّفسُ إنما تتألمُ عن طريقِ الجسمِ، فإذا تخدَّرتِ الأعصابُ لم تعُدِ الإحساساتُ تنتقِلُ للنفسِ. وإذا نامَ الإنسانُ توقَّفتِ الأعصابُ أيضاً عن نقل الحسِّ للنفسِ المستقرَةِ داخِلاً. أما في الدَّار الآخرةِ فتصبحُ الغلَبةُ للنفسِ، وهي يومئذٍ محيطةٌ بالجِسْمِ، ولذلك تأتيها النارُ مباشرةً، لذا تجدُ أهلَ النارِ لا يغيبون عن ألمِ الحريقِ. ثم بيَّن لنا تعالى عظيمَ شأنِ ذلك اليومِ فقال: ﴿ **وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ** ﴿١٧﴾ ﴾:

وأدرى: مأخوذة من درى الشيءَ، أي: توصَّلَ إلى علْمِه، وأدراهُ بالأمرِ، أي: أعلَمه به. ويكونُ ما نفهمُه من هذه الآية: أي وما أعظمَ ذلك اليومَ!. إنكَ مهما تصوَّرتَ من هوله وشدته فلا تستطيعُ أن تدري وترى ما فيه من عسْرٍ وشدةٍ تحلُّ بأولئكَ الفجّارِ المعرضين، ثم بيَّن لنا تعالى ما يعقبُ تلك الشِّدةَ والعُسْرَ من الألمِ العظيمِ الذي يلقاهُ المعذَّبونَ بالنارِ، والذي لا يمكنُ أن يتصوَرَه إنسانٌ فقال تعالى: ﴿ **ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾** ﴾: ثم بيَّن لنا تعالى أن الناسَ يومئذٍ مجزيُّون بأعمالهم فلا شفاعةَ ولا وساطةَ ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى، بل الخَلْقُ جميعاً في العدالةِ سواءٌ، قال تعالى: ﴿ **يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا** ﴾: ثم بيَّن لنا تعالى أن الأمرَ يومئذٍ بيده سبحانهُ وحدَه فهو يسوقُ لكلِّ امرئٍ ما يلائِمُ حالَه وما يناسِبُهُ، فقال تعالى: ﴿ **وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾** ﴾.



النشاط الذاتي:

بعد أن أدركتُ أن الحياةَ الحقيقيّةَ هي الحياةُ الآخرةُ وأن الحياةَ الدنيا مهما امتدتْ فهي إلى زوالٍ، فاللهُ تعالى جعلها مزرعةً للآخرةِ نقدّمُ فيها الأعمالَ الصَّالحةَ لنقطفَ ثمارها غداً ونتنعم بها. لذلكَ ووفاءً بعهدي مع الله على كبيرِ ما تفضّلَ به عليَّ من نِعَمٍ قررتُ أن أسارعَ دون أي تردّدٍ إلى القيامِ بصالحِ الأعمالِ، راجياً من الله تعالى أن يجعلني مفتاحاً للخيرِ مغلاقاً للشرّ.

التطبيقُ والتوجيهُ:

فكّرْ في خلواتِك ببدايةِ خلْقكَ كيفَ كُنتَ نُطفةً ثم جنيناً في بطنِ أمّكَ ثم خرجتَ طفلاً وتدرجْتَ في النموِّ حتّى صِرتَ إنساناً كاملَ الهيئةِ مزوّداً بكل ما يلزمُكَ من الأعضاءِ المناسبةِ المتناسِقَة التي تمكّنُكَ من تأديةِ أعمالِكَ على أبدعِ ما يكون. وانظرْ كيفَ أنكَ كنتَ في كلِّ مرحلةٍ من هذه المراحلِ مفتقراً إلى دوامِ عنايتهِ تعالى وتربيته لكَ، لتتعرف إلى بدايتك ولتُدرِكَ فضلَ ربِّك عليكَ وأن لا إلَهَ إلا الله.

التدريبات:

احفظْ سورةَ الانفطارِ من أستاذكَ بالمدرسةِ جيداً وثابرْ على تدبُّرِ ما جاءَ في تأويلِ آياتها الكريمةِ.



الأسئلة

1) ما هو معنى كلمة : **(ٱنفَطَرَت)** الواردة في مطْلَعِ السورةِ الكريمةِ؟.

2) ما هو التأثيرُ الذي تؤثِّرُ به الكواكبُ على البحارِ والمحيطاتِ؟.

3) قال تعالى : ﴿ **عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥** ﴾ ما هو الشيءُ الذي قدمتهُ النفسُ في الدنيا وستعلَمُه بالآخرةِ؟. وما المراد من قوله تعالى : **(وَأَخَّرَتۡ)**؟.

4) اذكرِ الأدوارَ الثلاثةَ التي مرَّ بها خَلْقُ الإنسانِ حتى أصبحَ إنساناً كاملَ الخِلْقةِ والتركيبِ، واذكُرِ الحِكمةَ من ذلك.

5) لماذا وصف اللهُ تعالى الملائكةَ بكلمةِ : **(كِرَامٗا)**؟.

6) قال تعالى عن وظيفةِ الملائكةِ : **(يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢)** اشرحِ الآيةَ الكريمةَ.

7) اشرح وبيّن الفرق بين حال الأبرار وبين حال الفجار، وبيّن بعض الحِكَمِ البالغة من قوله تعالى: ﴿ **يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩** ﴾.



سُورَةُ التَّكوِيرِ

ترتيبها ٨١ — آياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

الدرس الثالث عشر تأويل سـورة التكوير (1)

أعزائي الطلاب: بعد أن عرَّفنا تعالى في سورة الانفطارِ أن الإنسانَ يومَ القيامة سيرى ويشهدُ ما قدَّمَ في دنياهُ من الأعمالِ، وما أخَّر لنفسه من الجزاءِ، أراد تعالى في هذه السورةِ الكريمةِ أن يُبرهنَ لنا ما بيَّنه لنا في السورةِ السابقةِ وأن يُثبِّتَ في نفوسنا تلك الحقيقةَ الراهنةَ، كما وأرادَ أن يبيِّن لنا أن الإيمانَ باليومِ الآخرِ وما فيه من الجزاءِ على الأعمالِ، وأن التصديقَ بما جاءَ به الرسولُ ﷺ كلٌّ ذلك موقوفٌ عليكَ أيها الإنسانُ.

فإذا أنتَ أقبلتَ على اللهِ ذلك الإقبالَ الذي يملأُ النفسَ كمالاً فهنالكَ تطلبُ نفسُك الحقَّ وتسعى إليه، فيُكْرِمُها ربُّها برؤيتهِ ومشاهدته.

وقد بدأ تعالى هذه السورة بطائفةٍ من الآياتِ التي تُعرِّفك بما سيقعُ من الحوادثِ في ذلكَ اليومِ العظيمِ لتتعرَّف بذلك إلى بالغِ قُدرته، ولتطّلعَ على عظمتهِ، ولتعلمَ أنه إنما خلق لكَ ما خلقَ في هذا الكونِ من الموجوداتِ رحمةً بكَ وتأميناً لحياتك!. فإذا كان يومُ القيامةِ ذهبَ بذلك كلِّه إذْ لم تبقَ لك حاجةٌ به ولذلك قال تعالى: ﴿ **إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ** ۝١ ﴾: وكوِّرَتْ: مأخوذةٌ من كوَّرَ بمعنى جمعَ الشيءَ على بعضهِ ولفَّهُ. تقول: كوَّر فلانٌ العمامة على رأسه وكوَّر الثوبَ.

وتكويرُ الشَّمسِ إنما هو جَمْعُ أشعتِها المنتشرةِ في الفضاءِ وتوقيفُها عن وظيفتِها في الإشعاعِ ونشرِ الحرارةِ والضياءِ. ففي يوم القيامةِ تُكوَّرُ الشَّمسُ وتُلفُّ فيُمحى نورُها وتعودُ إلى ربِّها من بعدِ أن أدَّتْ وظيفتها وقامتْ بمهمَّتها. ولكن ماذا يرافقُ تكويرَ الشمسِ من الحوادثِ؟. يرافِقُها أيضاً انطفاءُ الكواكبِ، ولذلك قال تعالى:

﴿ **وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ** ۝٢ ﴾: **وانكَدَرَتْ** مأخوذةٌ من كَدَرَ، ومنه كدَّر، تقول: كدَّر فلانٌ الماءَ، أي: عكَّرهُ وأذهبَ صفاءهُ وكدَّرني الأمرُ أي: أذهبَ صفاءَ

نفسي. و(ٱنكَدَرَتۡ) أي: انطفأ لمعانُها وزالَ صفاؤها فصارت مكدَّرةَ اللونِ.

فاللهُ تعالى إنما يمدُّ النجومَ كما يمدُّ الشمسَ بالنورِ والإشعاعِ، فإذا هي ذات إشعاعٍ ولمعانٍ وصفاءٍ. فإذا كان يومُ القيامةِ وانقطعَ عنها الإمدادُ الإلٓهي فحينئذٍ يزولُ لمعانُها وتنطفئُ شُعلتُها. ثم قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ۝٣** ﴾ **: وسُيِّرت**: مأخوذةٌ من سيَّرَ.

تقول: سيَّر الأميرُ فلاناً من بلدهِ، أي: أخرجهُ منه وأجلاه عنه. وقد سُمِّيت القافلة سيَّارة لأنها تخرجُ من بلدٍ إلى بلدٍ.. فاللهُ تعالى إنما خلقَ الجبالَ لتثبيتِ الأرضِ وتنظيم دورانها وحركتها، ولتثبيت قشرتها الأرضية لئلا تَنْساحَ بقارّاتها، وفي يوم القيامةِ تُسيَّرُ الجبالُ فتزولُ من مكانها وتعودُ ذراتُها نفوساً مجرّدةً فلا ترى لها أثراً.

ثم إن الله تعالى أرادَ أن يبيِّن لنا ما يتبعُ تكويرَ الشَّمسِ وانْكِدارَ النُّجومِ وتسيير الجبالِ من الحوادثِ، فقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ۝٤** ﴾: ولتوضيحِ معنى **(ٱلۡعِشَارُ)** نقول: بيَّنا من قبلُ أثناءَ تأويلِ سورة الفجر (في منهاج المرحلة الثالثة) عند قوله تعالى: (**وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ۝٢**)[1]: إنه من المشاهَدِ أن الليلَ لا يثبتُ على حال، بل إنه يختلفُ في السَّنةِ الواحدةِ من زيادةٍ إلى نُقصانٍ. فتجدُ الليلَ ينتقلُ مختلفاً يوماً عن يوم، وفي يومٍ واحدٍ من أيامِ الربيعِ تجدُ الليلَ مساوياً للنهار **/22/ آذار(مارس)** أي أن كلَّ واحدٍ منهما اثنتا عشرة ساعة.

ثم إن الليل يأخذُ بالتناقُصِ دقيقةً أو دقيقتين أو أكثر أو أقل وهكذا حتى يصلَ في يومٍ من أيام الصيف إلى حدٍّ أصغري من النقصان **/22/ حزيران (يونيو)** فترى ليل الصيفِ قصيراً جداً.

فإذا بلغ هذا الحد الأصغري أخذ يتزايد شيئاً فشيئاً حتى يعود مرةً ثانيةً في يومٍ من أيامِ الخريفِ إلى الاعتدالِ فيتساوى الليل مع النهار **/22/ أيلول (سبتمبر).**

---

(1) سورة الفجر: الآية(2).

ثم إنَّهُ يتصاعدُ في الزيادةِ حتى يصلَ في الشِّتاءِ إلى حدٍّ أعظمي من الطول **22/ كانون أول (ديسمبر)**، فترى ليلَ الشتاءِ طويلاً جداً ثم ينحدِرُ متناقصاً حتى يصلَ في الربيعِ إلى نقطةِ الاعتدالِ التي كان فيها من قبلُ متساوياً مع النهار وهكذا...

إذا أنت جمعتَ هذه الدقائقَ والثواني التي يتزايدُ فيها الليلُ، إلى جانبِ الدقائقِ التي يتناقصُ فيها خلالَ سيرهِ في العامِ الواحدِ، وجدتَ مجموعَ دقائقِ النقصانِ مع دقائقِ الزيادة مائةً وعشرين ساعةً أي **عشرَ ليالٍ** ، وبهذا التبدُّل في الليلِ تتمتَّعُ النباتات نهاراً بنورِ الشمسِ كلُّ ثمرة ونباتٍ بما يناسبُ طبيعته، وبذلك تتولَّدُ وتظهرُ ظهوراً منظَّماً بالغاً في الكمالِ وتنتظمُ الحياةُ على وجهِ الكرةِ الأرضيةِ. ولولا ذلك النظامُ المحكَمُ الذي بموجبه تتولَّدُ الفُصولُ لاختلفتِ المناطقُ ولاضطربتِ الحياةُ ولما أمكنتْ.

فمَنِ الذي جعلَ للأرضِ هذا السيرَ وأوجدها على هذا النظامِ؟.

أليس ذلك دليلاً على خالقٍ حكيمٍ وربٍ قديرٍ؟.

والآن بعد أن بيِّنا معنى ﴿ **وَلَيَالٍ عَشْرٍ** ۝٢ ﴾: نرجعُ إلى تأويلِ الآيةِ الكريمةِ التي نحنُ بصددها فنقولُ: ليس المرادُ من كلمةِ **(ٱلْعِشَارُ)** هنا ما يزعمُه بعضُهم من أنَّها إناثُ النوقِ التي من عادتها أن تحملَ جنينها في بطنها عشرةَ أشهرٍ فإنَّ سياق الآياتِ هنا لا يمتُّ إلى هذا المعنى بصلةٍ إذ إن الآياتِ السابقةَ إنما جاءتْ في موردِ ذكرِ الحوادثِ الكونيةِ التي تحصلُ يومَ القيامةِ، وبناءً على هذا واستناداً على ترابطِ الآياتِ القرآنيةِ بعضِها ببعضٍ وإحكامِ نسجِها، يكون المرادُ من هذه الآية الكريمة: ﴿ **وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ** ۝٤ ﴾: أن **الْعِشَارُ** إنما تعني السنين التي حوتْ كلُّ واحدةٍ منها لياليَ عشراً.

فإذا كان يومُ القيامةِ لم تَعُدْ للإنسانِ حاجةٌ بالليالي العشْرِ ولا بهذا النظامِ القائمِ الآن، إذ إن الحياةَ يومئذٍ إنما هي من نوعٍ جديدٍ تختلفُ كلَّ الاختلافِ عن

حياتنا الآن، ولذلك تُعطَّل الْعِشَار.

وبعد أن بيَّن لنا تعالى ما يقع من تغييرٍ على سطحِ البرِّ بتعطيلِ الْعِشَار أرادَ أن يبيِّن لنا التغيراتِ التي تنشأُ في البحرِ كتعطيلِ وظائفِ الحيواناتِ البحرية فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ ﴾: والْوُحُوشُ: جمع وحش، وهو البعيدُ النافرُ المنفردُ في طرازِ حياته عن غيره، مأخوذةٌ من فعل وَحَشَ.. ومنه استوحش.. تقول: استوحش فلانٌ أي: وجد نفسه وحيداً منفرداً.

والمرادُ بكلمةِ (ٱلْوُحُوشُ) هنا: الأسماكُ والحيواناتُ البحريةُ سمِّيتْ وحوشاً لانفرادِها في طِرازِ حياتها عن سائرِ المخلوقاتِ. وحُشرت: أي: جُمعت، تقول: حشَر الناس، أي: جمَعهم، وحشرَ الحاكمُ الرجلَ عن وطنه، أي: أخرجه منه.

فالحيواناتُ البحريةُ التي تعملُ على تنقيةِ ماءِ البحرِ واجتذابِ ما فيه وجرثومهِ والموادِّ الضَّارةِ وغير ذلك مما لا يعلمهُ إلا اللهُ لو أنها زالتِ الآن من البحر لتغيَّر ماؤه، وبالتالي لفسد الهواءُ وانتشرتِ الأوبِئَةُ. فإذا كان يومُ القيامةِ وانتهتْ وظيفةُ هذه الأسماكِ والحيواناتِ المائيةِ جُمعتْ وعادتْ إلى خالقها.

وبعد أن تُجمع هذه الحيوانات وتُحشر نفوسها إلى ربها تسجر البحار ولذلك قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ ﴾: **وسُجِّرتْ:** أي: فاضت مياهها وتجاوزت مواضعها تقول: سَجَرَ الإناء، أي: ملأه. فالبحار الآن مياهها محبوسة في مواضعها، فإذا كان يوم القيامة، سُجِّرَت البحار أي: فاضت مياهها وذهبت ذراتها متناثرة، وعادت نفوس تلك الذرَّات أيضاً إلى خالقها.

وفي هذه الآياتِ السابقةِ كلِّها إشارةٌ إلى قدرته تعالى الواسعةِ، إذ به تعالى قامت الآن هذه الكائناتُ كلُّها، وبه دوامُ حياتها وانتظامُ وجودِها، فإذا شاءَ ربُّك وأرادَ زالتْ تلك الكائناتُ، وعادَ كلٌّ منها إلى خالقهِ نفساً مجرَّدةً عن الثوبِ الذي تلبَسُه الآن.. كما أنَّ هذه الآياتِ تشيرُ أيضاً إلى فضلهِ تعالى الواسعِ علينا، إذ إنه سُبحانهُ

هو الذي سَخَّر لنا هذه المخلوقاتِ لتتمَّ لنا الحياةُ الآن.

وبعد أن بيَّن لنا ما سيقعُ بأمرهِ تعالى من الحوادثِ الكونيَّةِ يومَ القيامةِ، أرادَ أن يلفتَ نظرَنا إلى المسؤولياتِ التي تترتَّبُ على الخَلْقِ في ذلك اليومِ العظيمِ فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ ﴾: و (زُوِّجَتۡ): مأخوذةٌ من زوَّج بمعنى: قرنَ، قال تعالى: (ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ..)[1]. أي: قُرناءَهم الذين شاركوهم في الظلمِ. ويكونُ المرادُ من هذه الآية: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ ﴾: أي: أنه إذا قامتِ القيامةُ وحدثتْ تلك الحوادثُ المبيَّنةُ في مطلعِ السورةِ عند ذلكَ تُزوَّج النفوسُ أي: تقرن وتَتجمَّعُ إلى بعضِها بعضاً. فأنفُسُ المحسنينَ تُجْمَعُ في زُمرٍ، وأنفسُ أهلِ السُّوءِ تجمعُ في زمرٍ. ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ ﴾: و (ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ): هي البنتُ التي دُفِنتْ حيَّة. وكان من عادةِ بعضِ قبائلِ العربِ أنهم يخجلون بالبنتِ مخافةَ أن يصدرَ منها في كِبَرها ما يجرُّ العارَ لأهلها، فإذا بُشِّر أحدُهم بالأنثى توارى من القوم من سوءِ ما بُشِّر به، وعمدَ إليها فقتلها دفناً في الترابِ من غير ذنبٍ جنتهُ.

فإذا كان يومُ القيامةِ أوقفَ اللهُ تعالى هذه البنتَ بين يديهِ وسألها عن السببِ الذي قُتلتْ به، ولذلك قال تعالى: ﴿ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ ﴾ أي: ما هو الذنبُ الذي جَنَتهُ حتى أزهقَ أبوها روحها وقتلها به؟.

وإذاً فليست البنت مُلْكاً لأبيها يفعلُ بها ما يشاءُ، وإنما هي نفسٌ كنفسِه، وليس له عليها سوى ولايةِ التربيةِ، فإنْ هو أحسنَ تربيتَها تقرَّبَ بذلك إلى ربِّه، وإن هو قتلها أو لم يقُمْ بما عليهِ من واجبِ التربيةِ فلا بدَّ من الوقوفِ بين يدي الله تعالى والسؤالِ عن تقصيره.

---

[1] سورة الصافات: الآية (22).

وقد بيَّن لنا تعالى أن الأعمالَ التي يعملُها الإنسانُ إنما هي كلّها مثبتةٌ عند الله تعالى ولذلك قال سبحانه: ﴿ **وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠** ﴾ **والصُّحُفُ:** جَمْعُ صحيفةٍ، **ونشر:** بمعنى أذاعَ.. ولكل إنسانٍ صحيفةٌ جامعةٌ لسائرِ أعمالهِ، فإذا كان يومُ القيامةِ ووقفَ الخلْقُ بين يدي ربهم نُشرت لهم جميعاً صحائفُ أعمالهم فغدت بيّنة ظاهرةً.

﴿ **وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١** ﴾: **وكشط الشيء:** أزاله ورفعه، تقول: كشط الجزَّار جلد الذبيحة، وكشط الغطاء عن الشيء، أي: رفعه عنه.

فإذا كان يومُ القيامةِ ونُشِرتْ صُحفُ الخلائقِ رُفعتِ السماءُ وزالتْ، وأصبحَ الخلْقُ بين يدي اللهِ لا يحجبهم عنه حجابٌ، وهنالك وفي ذلك الوقتِ تظهرُ النارُ لأهلِ الشقاءِ والعلل، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢** ﴾.

وتدنو الجنةُ بزينتِها من أهلِ الطاعةِ والإحسانِ، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣** ﴾: و **(أُزْلِفَتْ):** مأخوذةٌ من أزلفَ بمعنى: أدنى وقرَّبَ. ولكن، لماذا تُسعَّرُ الجحيمُ وتُزلفُ الجنةُ؟.

يكونُ ذلك لأن أهلَ المعاصي والذنوبِ حينما تظهرُ لهم أعمالُهم وتؤلمهم عللُهم يرون النارَ ضروريةً لهم لمداواةِ ما فيهم من عللٍ.

كما أن أهلَ الجنةِ الأصحاءَ حينما تظهرُ لهم أعمالهمُ العاليةُ تتسامى نفوسهمْ وتشتهي الخلودَ إلى النعيمِ، ولذلك قال تعالى: ﴿ **عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤** ﴾: أي تُسعَّرُ النارُ وتُزلفُ الجنةُ لأن كلَّ نفسٍ علمتْ أي: شاهدتْ ورأتْ ما أحضرتْ.



النشاط الذاتي:

علي أن أعلمَ أن لكلِّ مخلوقٍ في هذا الكونِ وظيفةً، وقد ألبسَهُ الله تعالى الثوبَ الذي يتناسبُ مع تأديتهِ لهذه الوظيفةِ، وما إن تنتهي هذه الوظيفةُ حتى ينتهي بقاءُ هذا المخلوقِ، فإذا ما كان يومُ القيامةِ زالَ كلُّ ما في السَّماءِ وما على الأرضِ من زينةٍ ومتاعٍ دون أن يبقى له أيّ أثر، ولن يبقى إلا اللهُ وحدَه، وما الدنيا إلا وهمٌ زائلٌ وسرابٌ وإن الله وحدَه هو الحيُّ الباقي الذي لا يزولُ.

التدريبات:

احفظ سورةَ التكويرِ من أستاذك جيداً وتعاون مع زملائك على قراءتها غيباً.



الأسئلة

1) إلى ماذا تُشير الآية الكريمة : ﴿ **وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤** ﴾؟.

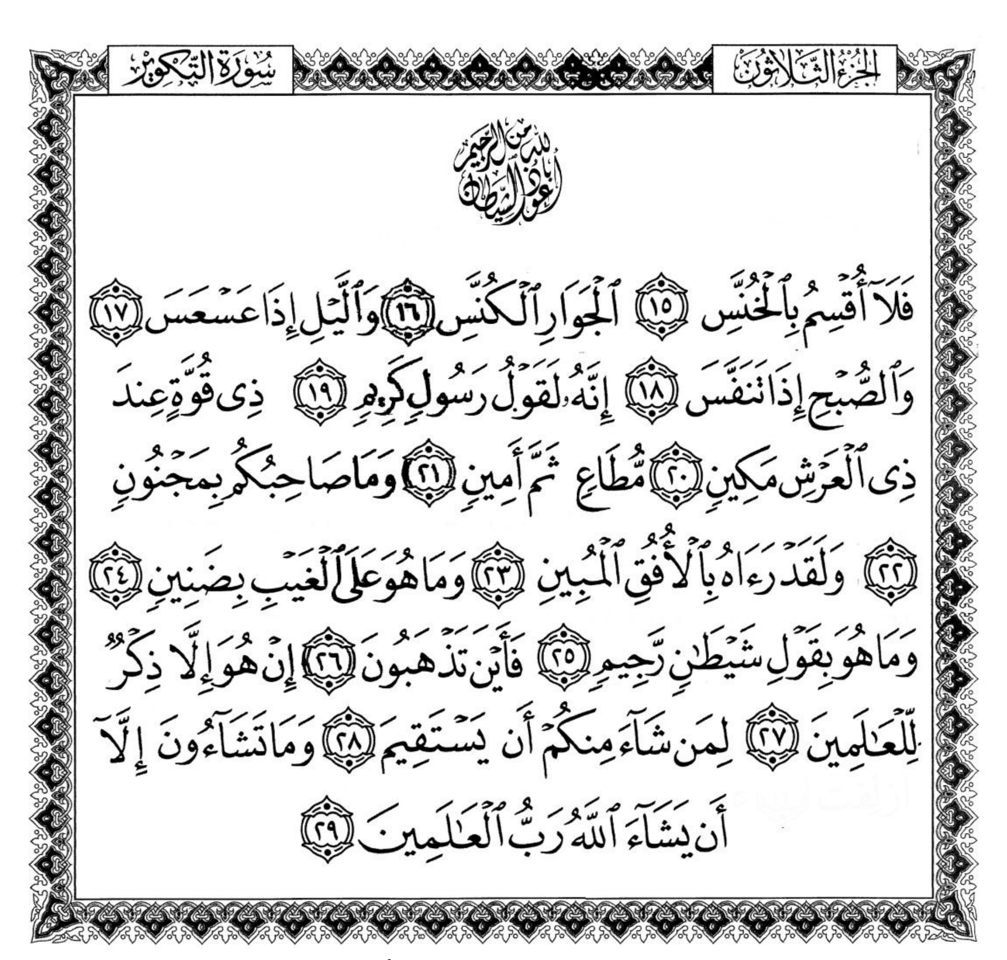
2) ورد بالدرس أن كلمةَ الوحوشِ تعني الأسماكَ والحيوانات البحريةِ، فلماذا سميت هذه الحيوانات البحرية بالوحوش؟.

3) ما هو معنى كلمة ﴿ **ٱلصُّحُفُ** ﴾ المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠** ﴾ وكيف تُنشرُ تلك الصُّحُفُ؟.

4) لماذا تُسعَّر النارُ يومَ القيامةِ؟.



الدرس الرابع عشر   تتمة تأويل سورة التكوير   (2)



أعزائي الطلاب: بعد أن بيَّنَ لنا تعالى ما بيَّنَ في مطْلعِ سورةِ التكويرِ عن زوالِ هذا الكونِ العظيم وبعدَ أن بينَ لنا أن أعمالَ الإنسانِ ستكونُ ماثلةً أمامهُ وسيُحاسَبُ وفقاً لها، أراد أن يعرِّفنا بعظمةِ صاحبِ هذا الكلامِ وجليلِ شأنهِ، فلعلَّنا إن عرفنا عظمتَهُ، أصغينا لقوله، وعندئذٍ تشهدُ نُفوسُنا الحقائقَ وتؤمنُ به تعالى، ولذلك قال عزَّ وجلَّ: ﴿ **فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾** ﴾.ولتفصيلِ معنى هذه الآياتِ نبدأُ بآيةِ: ﴿ **فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾** ﴾: **الخُنَّس:** جمع خانس، وهي هنا: إنما تعني النجوم التي تخنُس،

أي: لا تعودُ أجرامُها ونورُها تظهر لأعيننا إذا طلعَ النورُ وأضاءتْ شمسُ النهارِ.

﴿ **ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ** ﴿١٦﴾ ﴾: **الْجَوَارِ**: جمع جاريةٍ وهي السارحةُ المتنقِّلةُ.

و(**ٱلْكُنَّس**): مأخوذةٌ من كَنَسَ، بمعنى: لازمَ موضِعَهُ، تقول: كنسَ الظبيُ في الغابةِ وكنسَ النَّجمُ في مجراهُ أي: لازمهُ. و(**ٱلْكُنَّس**): جمع كانس، وهي هنا إنما تعني النجومَ الجاريةَ في مداراتها المخصّصة بها، لا تخرجُ عنها، السابحةُ في أفلاكِها ومجاريها فلا تتجاوَزُها ولا تتعداها.

وقد بيَّن لنا تعالى عن عظمة هذه النجومِ، لا بل عن عظمتِهِ تعالى بكلمة **(فَلَآ أُقۡسِمُ..)** لننظرَ إلى عظمةِ هذه النجومِ، ثم ننتقلَ منها إلى تعظيمِ خالقها وموجدها.

فهذه النجومُ العظيمةُ التي تراها أيها الإنسانُ في السماءِ هذه النجومُ السابحةُ في الفضاءِ والتي كثيرٌ منها أكبرُ من الأرض بملايين المراتِ!. هذه الشُّعَلُ المضيئةُ التي ما زالت تتوقَّدُ دون أن تنطفئَ شُعلتها وقد مضى عليها آلافُ السنينَ والأعوامِ!. هذه الجوارِ التي لا يكاد يُحْصيها العددُ والتي تلازمُ مجاريها وأفلاكها دون أن يصْطَدِمَ منها نجمٌ بنجمٍ أو يخرجَ عن مدارهِ ومجراه، إذا أنت نظرتَ إليها أيها الإنسانُ نظراتٍ مِلؤها التفكيرُ والإمعانُ هالَكَ أمرُها وقدَّرت عَظمتَها! ولكن إذا أنت رجعت إلى كلمة **(فَلَآ أُقۡسِمُ..)** استطعتَ أن تنتقلَ منها إلى عظمةِ خالقها تلك العظمةُ التي لا تتناهى! وخشعتْ نفسُك لجلالهِ تعالى.

فما خلْق هذه النجومِ كلِّها وإمدادِها وتسييرها وتدبيرِ شؤونها إلا بأمرٍ واحدٍ منه تعالى وبكلمةِ (**كنْ**) وذلك لفظ يقرِّب لك الحقيقةَ التي هي أعظمُ من أن يدركَها إدراكٌ أو يصلَ إلى كُنهِها عقلُ أي مخلوقٍ من المخلوقاتِ.

وبعد أن ذكَّرنا تعالى بهاتينِ الآيتين لفتَ نظرَنا إلى آيةِ الليلِ فقال تعالى:

﴿ **وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ** ﴿١٧﴾ ﴾: **وعَسْعَسَ**: أي جاء بظلامه شيئاً فشيئاً، وأقبلَ رويداً رويداً. وفي الواقع لو أن الليل جاء فجأةً لوقعتْ مخاطرُ وحوادثُ، ولتضررتِ المخلوقاتُ من ذلك الانتقالِ المفاجئِ.

ولو أنك تتبعتَ ما ينشأُ عن الانتقالِ من النُّورِ والحرارةِ إلى الظلامِ والبرودةِ طفرةً واحدةً لوجدتَ أن الحياةَ على وجهِ الأرضِ تكونُ متعذّرةً وغيرَ ممكنةٍ.

﴿ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ ﴾: **وتَنَفَّسَ**: أي تبلَّجَ وأضاءَ بصورةٍ تدريجيةٍ، والضياءُ كالظلامِ لو أنه لم يأتِ على هذه الصورةِ لنشأ عنه ما ينشأُ عن الليلِ إذا غشي الأرضَ بصورةٍ مفاجئةٍ. فمن الذي جعلَ الصُّبْحَ يتنفَّسُ حتى يعمَّ النورُ وينكشفَ الظلامُ؟.

أليس هناك من قدرةٍ حكيمةٍ وقوةٍ عظيمةٍ مسيِّرةٍ؟. أليس ذلك هو اللهُ ربُّ العالمين؟. أليس هذا النظامُ القائمُ بهادٍ إليه تعالى، ودالٍّ على جلالهِ وعظمتهِ ورحمتهِ بالخلْقِ أجمعين؟.

وبعد أن ذكَّرنا تعالى بما ذكَّرنا من الآياتِ الدالةِ على عظمةِ صاحبِ هذا البيانِ أرادَ سبحانهُ أن يعرِّفكَ بقدرِ رسولهِ الكريمِ الذي اصطفاهُ ليكونَ مبلِّغاً وللعالمين نذيراً فقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ﴾: وكلمةُ **(رَسُولٍ)**: إنما تعني رسول الله ﷺ. وكلمة **(كَرِيمٍ)**: هي كما مرّ معنا من قبلُ في سورة الانفطار بمعنى: الخالي من الشوائبِ والنقصانِ والمتحلِّي بالكمالِ.

والهاءُ بكلمة **(إِنَّهُۥ)**: إنما تشيرُ إلى القرآنِ الكريمِ الذي جاء به الرسولُ ﷺ عن اللهِ تباركَ وتعالى. ويكونُ المرادُ من هذه الآيةِ مرتبطةً بما سبقها:

أي أنّ خالِقَ هذا الكونِ العظيمِ يشهدُ لك أن الوسيطَ الذي جاءك ليبلِّغكَ كلامَهُ وبيانَهُ إنما هو رَسُولٌ كَرِيمٌ لا تستطيعُ أن تجدَ فيه شائبةً أو نقصاً، ولذلك اجتباهُ ربهُ ليكون رسولاً للعالمين ﷺ.

ثم بيّن لنا تعالى صفةً ثانيةً من صفاتِ رسولهِ ﷺ فقال تعالى:

﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ ﴾: **و(ذِي قُوَّةٍ)**: أي صاحبُ قوةٍ على

التَّحمُّلِ، تحمُّلِ التجلِّي الإِلَهي. و(**مَكِينٍ**): أي الثابت الذي لا يتزعزعُ.

فرسولُ اللهِ ﷺ من إقبالهِ العالي على ربِّه أضحى مكيناً، أي ثابتَ النفسِ فهو عند الوحي لا يتزعزعُ، وهذا ما جعلهُ أهلاً لتحمُّل رسالةِ ربّه، وذلك كلُّهُ يُشيرُ إلى أن ما جاء به الرسولُ كلُّه حقٌ، إذ إن المكينَ إنما يكونُ واعياً لكلِّ ما يتلقاهُ فلا يضيِّعُ منه شيءٌ. ﴿ **مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ** ﴿٢١﴾ ﴾: **والمُطَاع**: مأخوذةٌ من أطاعَ بمعنى: انقادَ للأمرِ واتَّبعهُ. ولكن لماذا وصفَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ هنا بكلمة (**مُّطَاعٍ**)؟.

لقد وصفهُ بهذا الوصف ليبيِّنَ لنا نفسيةَ رسولهِ الكريمِ تجاهَ ما تلقَّاهُ عن الله من الأوامرِ.. فرسولُ اللهِ بإقباله العالي على ربِّه أصبحتْ نفسُه في حالٍ من الكمالِ لا تُحِبُّ ولا تهوى معهُ غيرَ متابعةِ الأمرِ الإِلَهي. فهو ﷺ **مُطَاعٍ** أي: ذو نفسٍ ساميةٍ مطيعة له في متابعةِ الأوامرِ الإِلَهيةِ الداعيةِ إلى التمسُّكِ بالحقِ والكمالِ. وأما كلمةُ (**ثَمَّ**) الواردةُ (بفتح الثاء) في هذه الآيةِ فقد وُضعتْ بصيغةِ المدحِ أي: ما أَعْظم أمانةَ هذا الرسولِ المطاعِ على بلاغاتِ ربّه، وأعْظِمْ به فوقَ العالمين، فهي إنما ترتبطُ بما قبلها وبما بعدها ولتوضيحِ معناها نقدِّم بمثالٍ فنقول:

لو أن رجلاً اصطبغت نفسهُ بصبغةِ المروءةِ وشغفتْ بنجدةِ الضَّعيفِ ثم إنَّك أمرتَهُ بعملٍ من أعمالِ المروءةِ والنجدةِ، فهذا الرجلُ عندما يسمعُ هذا الأمرَ تجدهُ مطاعاً أي إن نفسَه تطيعُه في ذلك كلَّ الإطاعةِ، لأنها شغوفةٌ وتتطلَّبُ مثلَ هذه الأعمالِ، كما تراهُ أميناً على ما سمعَهُ، أي حريصاً عليه فلا ينساهُ، لأنه مشغوفٌ به متطلِّبٌ إياه. ونعودُ الآن إلى الآيةِ الكريمة فنقولُ:

إنما جاءتْ كلمةُ (**ثَمَّ**) لتبيِّن لنا حالَ رسولِ الله ﷺ عند تلقِّيهِ الوحيَ من ربه، فهو (**مُّطَاعٍ**) أي: أن نفسَه مطيعةٌ له بمتابعةِ أوامرِ الوحي الإِلَهيةِ كما أنه أيضاً ﴿ **ثَمَّ أَمِينٍ** ﴿٢١﴾ ﴾: أي حريصٌ عليه فلا ينساهُ بل يَعِيهُ ويبلِّغهُ بتمامِه.

﴿ **وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾** ﴾: **والصاحِب**: هنا إنما تعني رسول الله ﷺ.

ومَجْنُون: مأخوذةٌ من جَنَّ، بمعنى: سترَ، تقول: جنّ الليل الشيءَ، أي: سترهُ. **والمَجْنُون**: هو الذي سُتِر عليه الحق وخفيَ عليه.

فهذه الآيةُ الكريمةُ تبيِّن لنا أن الرسولَ الكريمَ ﷺ الذي بيَّن للخلقِ عن الله طريقَ الحقِ والإنسانيةِ، والذي ظهرَ لجميعِ الخَلْقِ كمالُهُ وسيرهُ في طريقِ الحقِ والإنسانيةِ، لا يمكِنُ أن يُقالَ فيه أنه مجنونٌ، أي: سُتِرَ عنه الحقُّ وخفيَ عليه، وأن ذلك الكمالَ الذي اصطبغَ به، وذلك التمسُّكَ بالحقِّ الذي ظهرَ منه، وتلك الإنسانيةَ التي تحلَّى بها، بل ذلكَ البيانُ الذي جاء به، والشَّرعُ الذي حملَ رسالَتَهُ عن ربِّه، كل هذا ينفي عنه ذلكَ القولَ ويجعلُنا نرد أيدينا في أفواهِ من يقول به. ﴿ **وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾** ﴾: **والهاءُ**: من كلمة **(رَءَاهُ)**، إنما تشيرُ إلى ما أوحيَ إلى رسول اللهِ ﷺ من القرآنِ الكريمِ الدالِّ على كمالِ الله والهادي إلى طريقِ السعادةِ.

والأُفق: في الأصلِ أبعدُ ناحيةٍ يمكنُ أن يراها الرائي من الأرض حيثُ تظهرُ له السماءُ ماسَّةً الأرضَ مُتصلةً بها.

وهي هنا إنما تشيرُ إلى الحدِّ النهائي في الإقبالِ على الله، ذلك الحدُّ الذي وصلَ إليه رسولُ اللهِ ﷺ فكان مبيِّناً أي: مُظْهِراً وكاشِفاً الحقائِقَ.

ويكونُ المرادُ من هذه الآيةِ الكريمة: أن رسولَ اللهِ ﷺ إنما بلَغَ في الإقبالِ على ربِّه حدّاً نهائياً لا يمكنُ أن يُدانيَهُ فيه إنسانٌ. وبذلك الإقبالِ النهائي كُشِفَت له الحقائقُ، فشهِدتْ نفسُه ما شهدَتْ من عدلِ اللهِ، ورحمتهِ، وعظمتهِ، وقدرتهِ، وسائرِ كمالاتهِ، كما شهدتْ طريقَ الحقِّ والسعادةِ.

فلما جاءَ الوحيُ بالأوامرِ الإلٓهيةِ كانتْ كُلها معروفةً عنده، إذ إنه شاهدَ حقائقها من قبلُ بذلك الإقبالِ الذي تقدَّمَ نزولَها عليه. ﴿ **وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾** ﴾: و**(ٱلۡغَيۡبِ)**: هو كلُّ ما غابَ عنك واستترَ.

والضَنِين: في الأصلِ بمعنى البخيلُ.

ويكونُ المرادُ من هذه الآية الكريمة: أن رسولَ الله ﷺ لا يبخلُ على الناس ببيانِ ما غابَ واستترَ عنهم من حقائقِ الأوامرِ المنزَّلَةِ عليه، بل إن حنانهُ وعطفَهُ وما انطبعَ في نفسِه من الصفةِ الكاملةِ يدعوهُ لبيانِ كلِّ ما فيه من الخير والسعادةِ لهذا الإنسانِ. ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾** ﴾: **والشَيْطَان:** هو البعيدُ عن الله، مأخوذةٌ من شَطَنَ بمعنى: بَعُدَ، ومن شاط، بمعنى: فَسد واحترقَ، فببعده عن الله فسدتْ نفسُه وخبُثَتْ.

والرَجِيم: هو المطرودُ. ويكون المرادُ من هذه الآية الكريمةِ:

إن هذا القولَ الذي جاء به رسولُ الله ﷺ لا يمكنُ أن يكونَ (كما زعم الكفار البعيدون عن الله) وحياً وإلقاءً من الجِنِّ في نفسِ الرسولِ ﷺ، لأن الشيطانَ البعيدَ عن اللهِ لا يدركُ الحقَّ ولا يتأتَّى له أن يأتي بالحقِّ أو يدلَّ على الخيرِ. والشيطانُ مؤذٍ ولا يدلُّ إلاَّ على ما فيه الشرُّ والشقاءُ، وهذا القرآنُ الذي جاءَ به رسول الله ﷺ كلُّه حقٌ وكلُّه خيرٌ، وجميعُ أوامره إنسانيةٌ ونافعةٌ للإنسانِ، وذلك كلُّهُ يردُّ قولَ الكافرين، ويشهدُ بأن ما جاء به رسولُ اللهِ ﷺ كلُّه من عندِ الله قال تعالى:

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾)[1]. ﴿ **فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾** ﴾: **أي:** أَلكُم بعد هذا البيانِ من ردٍّ تردُّون به؟. وهل لكمْ من حجةٍ تناقِضُهُ فتحتجُّون بها؟.

﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾** ﴾: **والذِكْرُ:** هو أن تتحدَّثَ لآخرَ عن شيءٍ رآه أو سمعَ به من قبلُ. فحديثُكَ عن البحر لرجلٍ كان سمعَ بالبحر ورآهُ إنما هو ذكرٌ، لأنك

(1) سورة النساء: الآية (82).

حينما تتكلَّم له عنه يتذكَّر ما كان شهدَ ورأى من قبلُ، ولتفصيلِ معنى الآية نقول:

هذا البيانُ الذي بيَّنهُ الله تعالى لعبادهِ في القرآن الكريمِ إنما هو ذكرٌ لأنه يذكِّر الإنسانَ بما رآهُ من خَلْقِ السمواتِ والأرضِ وما فيهما من الآياتِ الدالةِ على عظمةِ الخالقِ كالجوار الكُنَّس، وآيةُ الليل والصبحِ، كما يذكِّره بأصلهِ ممّ خُلِقْ، وكيف نشأ وتطوَّر، حتى صار إنساناً سويّاً!.

ثم إنه يذكِّرهُ أيضاً بما حلَّ بالأقوام الذين مَضوا من قبلُ، وكيف أنهم هَلَكوا بمعارضتهم الحقَّ وتكذيبهم رُسلَ الله، وأخيراً يذكِّر الإنسانَ بما سيكونُ عليه حالهُ في الآخرةِ إن محسناً ففي النَّعيمِ وإن مُسيئاً ففي الحميمِ وإلى الجحيمِ.. إلى غير ذلك من الآيات التي توقِظُ الإنسانَ من غفلته وترشِدُهُ إلى خالقه. وكما يذكِّر القرآنُ الإنسانَ في بادئِ الأمرِ بما رآهُ بعينه من صورِ الأشياءِ كذلك يذكِّر الإنسانَ المُقبلَ بما انطبعَ في نفسه من الكمالِ في ساعاتِ إقباله على ربِّه.

أما كلمةُ **﴿لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾** الواردةُ في هذه الآية: فهي إنما تعني البشرَ جميعاً في كلِّ عصرٍ من العصور، وفي كلِّ قُطرٍ من الأقطار على اختلاف أجناسهم وعناصرهم فهم كافةً مقصودونَ ومعنيُّونَ بهذا الخطابِ، لأنهم جميعاً عبادُ هذا الخالِق الكريمِ والربِّ الرحيم. ولكن من الذي يستفيدُ من هذا الذكر؟. ومن هو الذي يقعُ في نفسه موقعاً حسناً فيكون سبباً في جعله مقدِّراً عظمةَ ربّه وخالقِ هذا الكون كله، وداعياً له إلى سلوكِ السبيلِ الإنساني الذي يجعلُه أهلاً لفضلِ خالقه جديراً بإحسانه ونعيمه؟.

إنه لا يستفيدُ من هذا الذِّكْر إلاّ الذي تطلَّبتْ نفسُه السلوكَ الإنسانيَّ القويمَ وشاء أن يسير به ويستقيمَ عليه، ولذلك قال تعالى: ﴿ **لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾** ﴾:

أي: إن هذا البيانَ الذي أوردهُ اللهُ تعالى ذكرٌ للعالمين لا يستفيدُ منه ولا يتَّعظُ به إلاَّ من تطلَّبت نفسُه سلوكَ طريقِ الحقِ وشاء أن يستقيمَ.

أقولُ: وهذه الآيةُ تبيِّنُ لنا عدلَ اللهِ تعالى في خلْقهِ ورحمته بجميعِ عباده فهو سبحانهُ لم يخُصَّ بفضلهِ أناساً دون آخرين، بل جعل نيلَ الفضلِ الإلٰهي متوقفاً على مشيئةِ الإنسانِ واختياره. فكلٌّ من شاءَ وأرادَ الاستقامةَ إذا تُلي عليه هذا البيانُ كان ذِكْراً له وأثَّر في نفسه.

ثم إن اللهَ تعالى بيَّن لنا أن مشيئةَ الإنسانِ في الاستقامةِ متوقفةٌ على شيءٍ واحدٍ، فهذا الإنسانُ الحرُّ في إرادته، المطلَقُ في اختياره، لا يشاءُ أن يستقيمَ إلاَّ إذا وجدَ ربُّه منه صدقاً في طلب الحقِّ وعزماً صحيحاً على الوصولِ إليه.

أما مجرَّدُ طلبِ الاستقامةِ خالياً من الصِّدْقِ فلا يغني صاحبَهُ شيئاً، ولا يريهُ حقيقةً، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾: أي: إن مشيئَتك أيها الإنسانُ بالاستقامةِ لا تصِحُّ ولا تتولَدُ في نفسك إلاَّ إذا رأى ربُّك منك صِدقاً في طلبِ الحقِّ. فإذا وجدَ فيك هذا الصِدقَ رزقَك تلك المشيئةَ مشيئةَ الاستقامةِ.

وإذاً فالأمرُ بيدك أيها الإنسانُ، فما دُمْتَ مستسلماً لشهواتك غارقاً في أوحالها غيرَ طالبٍ بصدقِ الوصُولَ إلى الحق، فلا بدَّ أن شهوتك تظلُّ حِجاباً بينك وبين رؤية الحقِّ، ولستَ تستطيعُ أن تتطلَّبَ ذلك الطلبَ العالي في الاستقامةِ، وبالتالي لا تستطيعُ أن تتذكَّرَ ما جاءك به القرآنُ من العِبَرِ والآياتِ، لأنك مريضٌ ونفسَك ملأى بشهواتها الخبيثةِ، ومن الخيرِ لها أن تُفرَّغ مما خالَطها من الخُبْثِ.

أما إذا أنت قمعتَ شهوتك بإقناعِ نفسك، وصدقتَ في طلبِ الوصولِ إلى الحق، فهنالك يتجلَّى عليك ربُّك بنورهِ فيريكَ الحقَّ ويرزُقُك ذلك المطلبَ العالي وتلك المشيئةَ الطيبةَ في الاستقامة. فإذا ذُكِّرتَ بما في القرآن ذكرتَ واتَّعظتَ: ﴿...وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾[1].



(1) سورة غافر: الآية (13).

التطبيق والتوجيه:

قم ليلاً وراقبْ نجومَ السماء، كم هي عظيمةٌ ومع ذلك فهي ثابتةٌ في أفلاكها ومنتظمةٌ في مجموعاتها، فكِّر فيها كيف يبدأُ ظهورُها بالتدريجِ وبعد الفجرِ راقبها كيف تبدأُ بالاختفاءِ شيئاً فشيئاً. دقّق في زينةِ السَّماءِ هذه، كم هي بديعةٌ وكيف جعلنا الله تعالى نراها صغيرةً رغمَ أبعادها السحيقةِ ، وكيف يغطيها الله تعالى بضوءِ النهارِ فلا تعودُ تظهرُ للعيان. تدركُ بعد تفكيركَ العميقِ فيها عظمةَ خالقها ومُبدِعها فتخشَعُ نفسُك لذِكره تعالى.

التدريبات:

احفظ جيداً سورةَ التكوير من أستاذك وثابرْ على تلاوتها ودراسةِ ما جاء في تأويلها الحق، فإنه لا يقرِّبُ الإنسانَ من خالقه إلا تدبُّرُ آيات القرآن الكريم والتفكُّرُ بالكون وأعمالُ الخير والصلاحِ.



الأسئلة

1) قال تعالى: ﴿ **فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥** ﴾ ما هو معنى كلمة (**بِٱلۡخُنَّسِ**) ولماذا لا يُقسِمُ بها الله تعالى؟.

2) ما الذي يحدثُ لو أن الليلَ جاء بظلامهِ فجأةً ولم يكن على هذه الصورةِ من التدرُّجِ والتي يأتينا بها شيئاً فشيئاً؟.

3) قال تعالى: ﴿ **إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠** ﴾ لماذا وصفَ تعالى سيدَنا محمد ﷺ بكلمة: (**ذِي قُوَّةٍ**)؟.
وما هو معنى كلمة: (**ذِي ٱلۡعَرۡشِ**)؟.

4) ما الذي رآهُ رسولُ الله ﷺ في الأفقِ المبين؟.

5) اذكر استنتاجكَ من الدرس حول قوله تعالى: ﴿ **إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨** ﴾.




الفصل الثاني
قسم
البحوثُ الإسلاميةُ

الدرس الأول   هـل النبـوَّةُ هِبَـةٌ؟.

أعزائي الطلاب: الأنبياءُ والمرسلونَ بشرٌ مِثلُنا في الخلْق، ولِدوا كما ولِدنا ويرحلون عن الدنيا كما نرحلُ.. لكن ما الذي ميَّزهم على غيرهم حتى أصبحوا أئمةً ومهبطَ التجليِّ الإلَهي.. وجديرينَ بتلقي رسالاتِ ربهم، ودعوةِ أقوامهم إلى خالقهم، لإخراجهم من الظُّلُماتِ إلى النورِ، ومن الشَّقاءِ والحرمانِ إلى السعادةِ والهناءة والحبورِ؟..

الجوهرةُ الثمينةُ

خصَّ اللهُ تبارك وتعالى الإنسانَ عن بقيةِ المخلوقات بجهازِ التفكير " الجوهرةُ الثمينةُ "، فالإنسانُ وحدَه هو الكائنُ المفكِّرُ بين كافةِ المخلوقات في هذا الكونِ. فإن استفادَ من تفكيره حقَّ الاستفادةِ، للغاية التي خُلِقَ من أجلها تجاهَ حياته الأبديةِ، ومستقبلهِ الأخْروي، سما فوق العالمين، دنيا فآخرة.

الأنبياءُ بشرٌ مثلُنا ولكن تميَّزوا عن غيرهم باستفادتهم من هذه الجوهرةِ الثمينةِ أتمَّ الفائدةَ.

فمنذ أن بدأ وعيُهم، نظروا في أنفسهم وفيما حولَهم من آياتٍ ،مفكِّرين صادقين، طلباً للوصول لخالقهم العظيم، نظروا في السماء وما فيها .. الشمس.. القمر.. النجوم.. والأرض وما عليها، فأوصلهم نظرُهم، وهداهم تفكيرُهم، إلى الإيمان بالخالق المربِّي المسيِّر لهذا الكون ولهم...

هنالك خشعت نفوسُهم، وسجدَت لهيبته تعالى، وعكَفت في أبوابِ محبته، وثابروا مداومين على الإقبال تجاه ربهم، وعلى شهود أنوار ذي الجلال والجمال، لا ينقطعون عنه لحظةً، لا ليلاً ولا نهاراً وفي الحديث الشريف:

« نحن معاشرَ الأنبياء تنام أعيُننا ولا تنام قُلوبنا »[1]، وأصبحوا ذوي بصائرَ نافذةٍ، رأوا الحقَ من الباطلِ بنور الله تعالى فحُفظوا وعُصموا من الزللِ والخطأ بشخوصِ بصائرهم إلى مُبدعِ الكمالِ، وخالقِ الجمال، ذي الجلال والإكرامِ، فلم ينقطعوا عنه طرفةَ عينٍ وهذا سببُ عِصمتهم من الأخطاءِ صغيرها وكبيرها.. وامتلأت قلوبُهم رأفةً ورحمةً، عطفاً وحناناً من ذي الجلال والإكرام، فطلبوا هدايةَ الخلْق، وضَحّوا في سبيل خالقهم، بكل غالٍ وثمين، وضربوا للنَّاس مُثُلاً عليا في البطولات المشحونةِ بالجهاد الإنساني المقدَّس، وفي الفرار من الرذيلة فرارَ الإنسانِ من النار. وفي اقتحامهم غمرات الموتِ في سبيل إنقاذِ أخيهم الإنسان ابتغاءَ مرضاةِ الله، وفي انطلاقهم للأعمالِ الصالحة العظمى ..

وقد ذكر لنا تعالى أمثالاً عاليةً من التضحيات التي قدَّموها، لعظيم حبِّهم به، وطلباً لرضاهُ عزَّ وجلَّ، فهم لم ينالوا الرسالة والنبوَّةَ هبةً أبداً، بل باجتهادهم وبتفكيرهم العالي، وجهادِهمُ الإنسانيِّ المتواصلِ في التضحياتِ المجيدة، والأعمالِ الجليلة.. وبكمالهم العالي الرفيعِ، وعظيم محبتهم لله، صاروا أهلاً لأن يصطفيهمُ تعالى، وجديرين بأن يختارَهم ويجتبيَهُم، ليكونوا هداةً لخلْقه، قائمينَ بتلقي رسالاته، وتبليغها لعباده، " فهم صفوةُ الله من خلْقه، وخيرتُه من عباده" .. اصطفاهم عن أهليتهم العليَّة.

خليل الله ﷺ: وقد جعل اللهُ لنا سيدَنا إبراهيمَ ﷺ مثلاً أعلى ليُبيِّن لنا أن المسألةَ ليست جزافاً، بل بالحق والعدل..

فمنذ أولِ نشأته، استخدمَ تفكيرَهُ متأمّلاً بنفسه تأمُّلاً عميقاً، وبالكون وما فيه من آيات، فنهضَ عما كان فيه قومه من عبادةٍ للأصنامِ، وتوصَّل لشهودِ ربه، وللإيمان بلا إله إلا الله إيماناً حقيقياً ذاتياً، نعم لقد قامَ يفكرُ ويبحثُ بتصميمٍ وإرادةٍ لشهود المنعمِ العظيم المتفضِّل جلَّ وعلا.

---
[1] أخرجه ابن سعد في الطبقات 1/136 عن عطاء.

وقد ذكر لنا تعالى كيف أتمَّ الكلمات التي ابتلاهُ بها ربُّه، قال تعالى:

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ.. ﴾[1].

ليست المسألة جزافاً، بل بالعدل والحساب، لما طلب سيدُنا إبراهيم الولدَ ورُزِق بإسماعيلَ عليهما السلام أُمِرَ بأن يذهبَ إلى وادي مكة..

﴿..بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ..﴾[2] .. إلى الصحراء .. يُلقيه هناك، فأطاعَ.. لما كَبِرَ إسماعيلُ عليه السلام، وظهرت عليه أنوارُ النبوةِ، عشقَهُ، عندها أُمِرَ بذبحه!. لكي لا يبقى في قلبه الشريفِ إلاَّ حبُّ اللهِ فلا حبَّ لولدٍ مهما سما وعلا ليظهرَ أمام حبه العظيم لربه أصلِ ومنبعِ كلّ حبٍ وخيرٍ وحقٍ.

فهذا مثلٌ عن بذلِ سيدِنا إبراهيمَ عليه السلام وتضحياته، طاعةً للهِ وحبّاً به، وعطفاً على عباده ورحمةً. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[3]: ولما همَّ بذبحه: ﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا..﴾: للأمر الإلٓهي. ﴿..وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ ﴾[4]: ظهرَ صِدْقُ سيدنا إبراهيمَ العظيمُ جليّاً. ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ وكلمة (أَنْ) تحملُ معنى السرعةِ: أنْ توقَّفْ يا إبراهيمُ.. ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾[5]

وكذلك ظهرَ صِدْقُ سيدِنا إسماعيلَ العظيمُ عليه السلام، طاعةً لله، وطلباً لرضاه، بخضوعه للأمر الإلٓهي بالذَّبْحِ. فقال سمعاً وطاعةً يا رب، فابنهُ أيضاً استجابَ، وبذلك ظهرَ صدقُه واستسلامُه لله، عندها نالَ الرسالةَ.

كلمةُ: ﴿..إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾، تبيِّنُ أن العطاءَ الإلٓهيَّ إنما هو مبنيٌ على قواعدَ ثابتةٍ وقوانينَ..

---

(1) سورة البقرة: الآية(124).

(2) سورة إبراهيم: الآية(37).

(3) سورة الصافات: الآية(102).

(4) سورة الصافات: الآية(103).

(5) سورة الصافات: الآية(104-105).

كَذَلِكَ أنتم يا عبادي، لا بدَّ من ظهورِ صدقِكُم وعملِكُم، وهكذا الخلْق كلهم عبادهُ، كلٌّ من سعى نالَ.. ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ.. ﴾ فلما طبَّق ذلك بالتمام: ﴿ ..قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ.. ﴾: الآن أصبحتَ أهلاً للإماميَّةِ والرسالة، أي بعد الامتحان، وظهور صدقك معي وعملِك وعطفك على عبادي، فلما أقبلتَ ونلتَ الكمالَ حزتَ ذاك المقام. ﴿.. قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ.. ﴾: يا ربِّ اجعلْهم أئمةً. ﴿.. قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤ ﴾[1]: الظالمُ لنفسه لا أُعطيه ذلك المقام، أي لا يكونُ إماماً.. العطاءُ كلُّه ضمنَ عدالةٍ، وضمن اجتهادٍ.

هذه تضحيةٌ من جملةِ تضحياتٍ كثيرةٍ، ذكر منها تعالى تحطيمَه لأصنامِ قومه، ونتيجةُ ذلك عرَّضَ نفسَه للحريقِ حبّاً بإنقاذِ العباد لإخراجهم من الظلمات إلى النور لولا أن جعل الله النارَ برداً وسلاماً.

إذاً لم ينلْ سيدُنا إبراهيمُ عليه السلام الرسالةَ والإماميةَ هبةً، بل بالحقِ والعدلِ، ضحَّى بالدنيا وما فيها طلباً لرضاء الله بعد أن سلك بمدرسةِ التفكير بالكون، عندها أعطاهُ اللهُ ما أعطاه. مثله كمثل غيره من الأنبياء والرسلِ الكرام عليهم السلام: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ.. ﴾[2].



(1) سورة البقرة: الآية(124).

(2) سورة الأنعام: الآية(90).

الأسئلة

1) بماذا خصَّ اللهُ تعالى الإنسانَ من دون جميع الكائنات ولماذا؟.
2) إذا كان السادةُ الأنبياءُ عليهمُ السلامُ بشراً مثلَنا ولا يختلفون عنا بشيءٍ فلِمَ اصطفاهم سبحانه وتعالى للهداية والإرشاد؟. ولماذا لا يقعُ الأنبياءُ بالأخطاءِ الصغيرة والكبيرة؟.
3) اشرح الحديثَ الشريفَ: **« نحن معاشرَ الأنبياء تنامُ أعينُنا ولا تنام قلوبُنا ».**
4) لماذا أمرَ اللهُ تعالى سيدَنا إبراهيمَ بذبح ابنه سيِّدنا إسماعيلَ عليهما السلام؟.



الدرس الثاني   هـل النبـوَّةُ هِبَـةٌ؟.   (2)

أعزائي الطلاب: ذكرنا لكم بالدرس السابق كيف نالَ سيدُنا إبراهيمُ عليه السلام الرسالةَ ضمنَ الحق وبالعدلِ.. والآن بهذا الدرسِ سنذكرُ لكم جزأً يسيراً مما قام به سيدُنا موسى عليه السلام حتى استحقَ الرسالةَ من الله تعالى فهو عليه السلام سلكَ أيضاً بمدرسةِ الإيمان مثل أبيه إبراهيم عليه السلام.

كان سيدُنا موسى عليه السلام مُريداً عند سيدِنا هارون عليه السلام، وهو ما يزالُ يترعرعُ في أحضانِ فرعونَ، فهو ابن الملك فرعون، وكل شيءٍ تحت سيطرته، وفي خدمته، والمملكةُ تنتظره بعد موت أبيه فهو " متبنَّى " فرعون..

لكنه كان يتركُ القصورَ، نافراً من الراحةِ والرفاهية، غير ملتفتٍ لما بين يديهِ من دنيا عاليةٍ، ويذهبُ إلى مدرسته الكونيةِ باحثاً عن مُوجدِ الكون، ليشْكُرَه على فضله وإحسانه وإنعاماته، كان كلُّ سعيه تجاه ربه خفيةً عن أعينِ الجميع، لا يعلمُ به إلاّ الله تعالى: ﴿ **وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا..**﴾[1] أين كان؟.

كان في خلوته خارج المدينةِ.. مفكِّراً بخلْق الله، وعظمةِ الخالقِ وعالي سناه، خرج والناسُ نيامٌ، وعادَ قبل أن يستيقظوا لأعمالهم صباحاً، وهذه سيرته، حتى أتاه اليقين من ربِّ اليقين، قال تعالى: ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾** ﴾[2]. وكلمةُ ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾** ﴾ :تبيِّنُ أن العطاءَ الإلٰهيَّ إنما هو مبنيٌ على قواعدَ وقوانينَ، فاللهُ لا يؤتي الحكْمَ والعِلمَ إلا لمن كان صادقاً، وعلامةُ الصدقِ العفافُ عن المنكرات، وتقديمُ الأعمال الطيبةِ والإحسان، والتضحياتِ في سبيل نصرةِ الحق وإرضائه تعالى، ولا بدَّ من الإيمانِ لتحقيقِ ذلك.

---

(1) سورة القصص: الآية(15).

(2) سورة القصص: الآية(14).

وإليك هذا المثالَ:

إذا كان بالمدرسة طالبٌ متفوِّق بجميع مجالات الدراسةِ ويتمتعُ بحُسْنِ الخلُقِ والصِّدقِ والأمانةِ وما إلى ذلك من الصفاتِ الحسَنة الحميدةِ، وقامت إدارةُ المدرسةِ بتكريمِ هذا الطالبِ المُجِّد باحتفالٍ كبيرٍ بحضورِ جميعِ الطلابِ فإن مديرَ المدرسةِ يقول أثناء تكريمه: إننا نُكرِّمُ هذا الطالبَ النشيطَ و**كذلك** نكرِّمُ المتفوقين أي: كلُّ من يقومُ بمثل ما قام به.

إذاً كلمة (**كَذَٰلِكَ**) هي قانونٌ ونظامٌ عامٌ فإذا أردتَ التكريمَ والرفعةَ عند الله تعالى فاسعَ لتسلُكَ وتقتدي بالسادةِ الأنبياء الكرام وحينها ما أسعدك وما أبهاك!.

ولقد بيَّنَ تعالى مباشرةً بعد هذه الآيةِ، شيئاً مما قدَّمهُ هذا النبيُّ الكريمُ، من أعمالٍ يستحقُ بها ذلك العطاءَ، فذكر لنا قِصَّتَهُ مع أحدِ زبانيةِ فرعونَ: والآن انظرْ بإمعانٍ عزيزيَ الطالبُ لهذا الموقفِ الرهيبِ والصَّعبِ الذي وضِعَ فيه سيدُنا موسى عليه السلام يقصُّهُ الله علينا لنعلمَ أنَّ عطاءَه عزَّ وجلَّ إنما يكونُ بالحقِ والجدارةِ.

عند دخوله المدينةَ في الصباح الباكر رأى أحد زبانيةِ فرعونَ يحاولُ النيلَ والاعتداءَ على رجلٍ إسرائيليٍّ، وهذا الرجلُ كان يحضرُ دروسَ سيدنا هارون عليه السلام وما أن رأى هذا الإسرائيليُّ سيدَنا موسى قادماً من بعيد حتى استنجدَ به لأنه يعلمُ أن سيدنا موسى يدرسُ عند سيدنا هارون أيضاً وما أن سمعَ عليه السلام استغاثته حتى هبَّ كالإعصار لنجدته، بالرغم من علمه أنه بانتصاره للحقِّ ومساعدةِ ذلك الإسرائيليِّ سوف يُكشفُ أمرُهُ لفرعونَ بأنه إسرائيليُّ الأصلِ، "وأنه غريمُ وعدو فرعون"، وفي ذلك خسارة لكلِّ ما هو فيه من عزٍّ وجاهٍ وسلطانٍ ؛ ومن حكمٍ للبلاد ينتظرهُ بعد موتِ الملك فرعونَ، وبتضحيته والدفاعِ عن الحق تعرَّضَ للخطر الكبير. فحتماً سيقتله زبانيةُ فرعون، قال تعالى: ﴿ **وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى**

مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡه..﴾: لشدَّة قوة الحقِّ بنفسِ سيدِنا موسى عليه السلام كانت ضربتُه قاضيةً على ذلك المعتدي، فالتفتَ عندها سيدُنا موسى عليه السلام للإسرائيلي الذي كان من شيعته:(أي من الذين يحضرون معه دروس سيدنا هارون عليه السلام صورةً كالمنافقين)، وأخذ يعظهُ ويحذِّره عندما رأى ما حلَّ بهذا الظالم فقال له: ﴿**..هَـٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَـٰنِ..**﴾: أي أن خصمك مات وحلَّ به ما ترى بسبب متابعته للشيطان، هذا القتيل كانت أعمالُه من أعمالِ الشيطان لذلك حلَّ به ما ترى فاحذر أن تطيعَ الشيطان في ظلم أحدٍ، لئلا يُصيبَك ما أصابَ خصمكَ. ﴿ **.. إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ** ۝ ﴾[1]: إذ أغرى خصمك بالتعدي عليك أو على عِرضك أو على بنيك، فلقد كان آل فرعون يذبحون أبناء بني إسرائيلَ ويستحيون نساءهم، وكانت النتيجةُ هلاك هذا المعتدي.

وقد أدرك سيدنا موسى عليه السلام أنه عرَّض نفسه للخطر الشديدِ، عرَّض نفسه للإعدام إذا انكشفَ أمرُ قتله للجندي الفرعوني . وكان يبغي ذلك الجندي الاعتداءَ على حياة وعِرْض الإسرائيلي، فأوقف سيدنا موسى عليه السلام شر ذلك المعتدي، لأن قتله خيرٌ من بقائه لما يجري على يده من أذى، فأوقَفَهُ عنه سيدنا موسى عليه السلام، مضحِّياً بحياته العالية الكريمة، وجاهِهِ العريض، هنالك دعا اللهَ أن يحفظه من شرِّهم ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمۡتُ نَفۡسِى** ﴾ أي: عرَّضت نفسيَ لإيذاءِ هؤلاءِ الظَلَمةِ، وقد كنتُ من قبلُ آمناً مطمئناً..﴿ **فَٱغۡفِرۡ لِى** ﴾: أي: فاحفظني من شرِّهم. فعلى المؤمنِ بحال الشدةِ أن يلتجئَ إلى الله ويدعوه ليقيه الشرورَ ويحفظَهُ. ﴿ **فَغَفَرَ لَهُۥٓ** ﴾[2]: ستره من شرِّهم، إذ المغفرةُ كما مرَّ معنا بتأويل سورةِ البروج هي السِّتر، ومنها المِغْفرُ الذي يضعُه المحاربُ على رأسه، ليسترهُ من الضَّربِ.

---

[1] سورة القصص: الآية(15).

[2] سورة القصص: الآية(16).

ورغم ما تعرَّضَ له سيدُنا موسى عليه السلام من خطر الموت لم يتراجع عن مبدئه في نصرةِ الحق: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۝ ﴾[1]: المجرمين كفرعون وآل فرعون المعتدين على الإسرائيليين، ويُثبتُ صِدقَهُ عودتُهُ لعملِه البطولي في اليوم الثاني مضحّياً بنفسه في سبيل نصرة الحق ورفعِ الظلمِ، قال تعالى: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ۝ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا.. ﴾[2] كاد أن يقتلَ المعتديَ الثاني لولا أن دبَّر اللهُ له تدبيراً آخرَ ليَخرُجَ من مدينةِ الظلاَّم القساةِ إلى مدرسةِ أخرى.

وبذا فقد ظهرَ صدقُه بالتضحيةِ على الوقوف ضدَّ الباطلِ وأهله عن عمدٍ وسبق إصرارٍ ولو كلَّفه ذلك خسرانَ المُلْك والحياةِ وفرَّ بحياته ناجياً من الظلم والظلاَّم. ثم كان أن هجرَ البلادَ كاملةً .. هجرَ الدنيا ونِعَمها وترفها، فجمعه اللهُ بسيدنا شعيب عليه السلام، حيث عملَ بالرعي، بعد أن كانت المملكة تنتظره كحاكمٍ مطلَقٍ لها، لأنَّه الابنُ الوحيدُ للملك " فرعون ". لكنه ضحَّى بكلِّ ذلك، فأدخله اللهُ بالمدرسةِ الثانية جزاءً لتضحياته. وهي مدرسةُ سيدِنا شعيب رسولِ الله، بعد مدرسة سيدنا هارون عليهما السلام وبخلواته أثناء رعايته الغنمَ، وبأعماله الجليلةِ التي لا تقلُّ ثقلاً ووزناً عن الأعمالِ الأولى، استحقَّ هذا الجزاءَ، فأصبحَ رسولاً لله ومنقذاً لعباده، ليخرجَهم من ظلمات الجهالة، إلى نور السعادةِ، والمكاسبِ الكبرى الأبدية. فكم قاسى وكم ضحى عليه السلام!.

مما تقدَّم تبيَّن أن كلَّ ما يقالُ عن أن النبوةَ والرسالةَ هبةٌ، هو طعنٌ بالعدالةِ الإلهية وبكمالِ رسل الله ومقامِهمُ العالي الرفيع وهم القدوةُ الحسنةُ وهذا القولُ يناقضُ صريحَ القرآنِ الكريم، قال تعالى مخاطباً سيدَ الأنبياءِ ﷺ ..

[1] سورة القصص: الآية(17).

[2] سورة القصص: الآية(18ـ19).

﴿ وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ ﴾: عليك لأهليتك العاليةِ ﴿ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ ﴾[1]: بالقوانين الحق. إذاً فليست النبوةُ هبةً أُعطيتْ للأنبياءِ اعتباطاً وجزافاً، بل كلٌّ بعملهِ، والتفاضلُ بالاجتهادِ والأعمالِ.

قال تعالى: ﴿ ۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ ﴾[2]: بحسَبِ أعمالِ كلٍّ منهم وثِقَلِ أعماله. المسألة بالعمل، والتفاضُلُ بالجنَّاتِ والرفعةُ بالدرجاتِ أيضاً بحسَب التفاضُلِ بالأعمال.

فاللهُ تعالى لا يمكن أن يجتبي إليه عاصياً آثرَ الأشياءَ الدنيئةَ على رضاء خالقهِ، وإنما يكونُ الاجتباءُ والاصطفاءُ لإنسانٍ كريمِ الصفةِ، عالي المطلبِ آثرَ الخيرَ والكمالَ وشُغِفَ به، فاطلبْ تُعْطَ، وصاحِبُ الشوقِ الأكثرِ ينجحُ وينالُ أكثرَ.



---

(1) سورة الإسراء: الآية(105).

(2) سورة البقرة: الآية(253).

الأسئلة

1) لماذا كان يذهبُ سيدُنا موسى عليه السلام إلى خارجِ المدينةِ ومن دون أن يعلمَ به أحدٌ من الناسِ؟.
2) ماذا قال سيدُنا موسى عليه السلام للإسرائيلي بعد أن قتلَ أحدَ جنودَ فرعون المعتدين؟.
3) ما هو مرادُ سيدِنا موسى عليه السلام من دعائهِ ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى..** ﴾؟.
4) بماذا تُدلِّل على أن سيدَنا موسى عليه السلام ظلَّ ثابتاً على موقِفه بنصرةِ الحق وإغاثةِ ومعونةِ كلِّ مظلومٍ.
5) قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾** ﴾ إلى ماذا تدل كلمةُ (**كَذَٰلِكَ**) الواردةُ في الآيةِ الكريمة؟.

من بحر النبوة ننهل الآداب ، ونقطف الثمار اليانعة

الدرس الثالث إنقاذ آلاف المعدمين من الموت

أعزائي الطلاب: كما أنزل اللهُ تعالى القرآنَ الكريمَ على سيدنا محمدٍ ﷺ بالحقِ وكما شهدَهُ الصحابةُ الكرامُ بالحق كذلك آتى حفيدُه سيدُنا العلاَّمةُ الجليلُ بتأويلِ معانيه بالحق فعطاءُ الله تعالى ليس جزافاً فكلُّ من فكَّرَ بالكون وعملَ أعمالاً صالحةً فبقدرِ جُهدهِ وعمله يعطيهِ اللهُ تعالى وسنرى بهذه القصةِ الواقعيةِ عملاً عظيماً من أعمال العلاَّمة الجليلِ محمد أمين شيخو.

لقد تقلّد السيد محمد أمين عدّة مناصب قيادية إبَّان حُكْم الدولةِ العثمانية على بلاد الشامِ، وكان ذلك قبلَ تسنُّمِهِ من ربه مرحلةَ الإرشاد والهدايةِ فكما مرَّ بنا في الدرس السابق أن الأعمالَ الصالحةَ التي يقومُ بها الإنسانُ هي التي تؤهِّلهُ للدلالةِ إلى الله والإرشادِ للهدى.

بهذه القصةِ عُيِّنَ مديراً لسجنِ قلعةِ دمشقَ المركزي ورئيساً للقلعة بأسرها بما في ذلك قسمُ التسليحِ والإمدادِ للجيش العثماني بالقلعة.

وفي هذه الأثناء كانت الحربُ العالميةُ الأولى تشتدُّ استعاراً لتشملَ كافةَ أنحاءِ المعمورةِ، وبما أن الدولةَ العثمانيةَ هي أحدُ الأطرافِ المتصارعةِ في هذه الحرب فهي تزجُّ بأعدادِ المقاتلين في ساحاتِ الوغى وخاصةً على الجبهةِ المصرية فيما سُمِّي "بحرب التِّرْعَة" آنذاك، ضد بريطانيا في ذلك الحين، وفي سنوات قحطٍ وقُمَّلٍ وجرادٍ وفقرٍ وشقاقٍ بين قياديِّي الدولةِ التركية، فنتجَ عن ذلك العجزِ عن إمكانيةِ تزويدِ المقاتلين في صفوف الدولة التركيةِ بالمؤن والعتادِ اللازم لخوضِ غِمارِ مثل هذه الحرب الكبرى، مما يضطرُّ الجنودَ وتحتَ وطأةِ الجوعِ والعطشِ إلى التخلي عن مواقعهم القتاليةِ والانسحابِ منها إلى المكانِ الذي يتوفرُ لهم فيه الأمنُ والطعامُ والمأوى.

وهؤلاء حسبُ القوانين النافذة في الدولة آنذاك يُعتبرون فارِّين من المعركة، وعقوبةُ الفرار أثناء العمليات الحربية هي الإعدامُ رمياً بالرصاص.

وبينما كان ضابطُنا يقوم بتسيير الأعمال داخلَ القلعة من تفقُّدٍ لأقسامها وتدبيرِ شؤونها، وإذا بقافلةٍ من الرجال يُقارب تعدادُهم السبعين رجلاً يُقدَّمون له من قِبَلِ رئيس المفرزة المكلَّفة بحراستهم قائلاً:

هؤلاء شكَّلوا فراراً من ميدان المعركةِ وصدر الحكمُ عليهم بالموت رمياً بالرصاصِ وجئنا بهم إليك ليتمَّ إعدامهم في السجن كالمعتاد.



"ومن المعلوم بأن هذا الرقم لا يمثِّلُ كاملَ الجنود الفارينَ إنما هو العُشْر فقط لأن أعداد الفارين كانت كبيرةً جداً وإعدامُ كاملِ هذه الأعداد يعني القضاءَ على معظم قطعات الجيش ووحداته فكان يتجزَّأُ الرقمُ سلفاً لعُشر المقاتلين الفارِّين ويتم إعدام العُشر ليكونوا عبرةً لغيرهم كي لا يعاودوا الفرار، ولكن دون جدوى".



وبعد استلامهم أصولاً، سألَ من حوله عمّا كان يفعلُ الضابطُ الذي سبقهُ في شغل هذا المنصب مع أمثال هؤلاء، فأُجيب: بأنه كانت تُوضع له مِنَصَّةٌ ويشرعُ بشرب القهوةِ والمرطبات مع نرجيلةِ التبغ على أصوات أزيزِ الرصاص وتساقُطِ هؤلاء الرجالِ جُثثاً هامدةً مضرَّجين بدمائهم بلا حراك، وهذا فعله كلَّ يومٍ.

وعلى الفور اتَّخذ السيد محمد أمين شيخو قراراً حاسماً وجريئاً بنفسه ولم يُطْلع عليه مَنْ حوله يقضي بعدم إعدام هؤلاء، وهو يعلم ما في هذه المخالفة من خطورةٍ بالغةٍ وكم سيكون ثمنها باهظاً، إذ ستكلِّفه حياته حتماً. إلاَّ أنه قال في سرِّه ما أنا إلا كأحدِهم وما حياتي بأفضلُ من حياةِ واحدٍ منهم فما عليَّ إلاَّ أن أقدِّمها فداءً لإنقاذهم وأُسَرهم جميعاً.

ثم أذاع بأن تنفيذَ إعدامهم سيتمُّ في القلعة خارجَ مجال السجن، وسيَّر هؤلاء المعدمين إلى القلعة، حيث قام بتجهيزهم بالسِّلاح والذخيرةِ والعتادِ واللباس وأتمّ إلحاقهم بجبهات القتال بعد أن نُظِّمت بهم لوائح اسمية بجنودٍ ضُموا كرديفٍ للجيش المقاتلِ أُرسلت هذه اللوائح إلى القيادة مع لوائحِ المُلحقين الآخرين بالجيش بشكلٍ طبيعي عادي.

ولم ينته الأمرُ عند هذا الحدّ بل أصبحَ وفي كل يوم يأتي إليه عددٌ من الرجال يتراوحون بين /60ـ70/ معدماً فيُعاملهم بما عامل به سابقيهم.

وهكذا إلى أن مضت فترة زمنية تُقارب الشهرين حيث بلغ عدد من أنقذهم بحدود /4000/ من المعدَمين تقريباً، وطبيعيٌ أن مثلَ هذا الأمر لا يمكنُ إخفاؤه عن أنظار وأسماعِ السلطة العثمانية لاسيَّما إذا علمنا أن من يحسُده على هذا المنصب المرموقِ هم كُثُر ويتمنَّوْن زواله وتحطيمه ونوالَ هذه الوظيفة العالية بدله.

وصلَ ذلك النبأُ الصاعقُ إلى أعلى المصادر في الولاية الشامية، وفي ذات يومٍ وبينما كان يقومُ بتنفيذ مهامه وواجباته، فإذ بقائد الجيش التركي يدخل عليه بصورةٍ مفاجئةٍ والغضبُ الشديدُ مرتسمٌ على قسمات وجهه ثائراً على غير عادته المألوفةِ، قائلاً بصوتٍ جهور: "**أصلان**" [1] ماذا فعلتْ؟. وكيف تجرؤ على مخالفة أمر الوالي؟.

إنني وفيما سبقَ وطيلةَ خدمتك العسكرية عندي كنتُ أقفُ دائماً مدافعاً عنك بوجه أيٍّ كان، أما الآن وإزاءَ ما أقدمتَ عليه من عملٍ فظيعٍ لا يمكنني الوقوفُ إلى جانبكَ أبداً لأنني إن أقدمتُ على مثل هذا سيكون معناهُ تقديمَ نفسي للإعدامِ معك، لذا وبهذا الحال لا يمكنني الدفاعُ عنك أبداً.

---

(1) أصلان: تعني بالتركية الأسد، لُقِّب بذلك نتيجة لنجاحه المنقطع النظير في تنفيذ كل ما أُوكل إليه من مهام رغم جسامتها واستحالة تنفيذها من قبل غيره. فلم يكن له بذلك سميٌ بين جميع الضباط قاطبة، فحاز على تقدير وثقة رؤسائه ومرؤوسيه على حدّ سواء مما جعلهم يطلقون عليه هذا اللقب.

وهنا وحتى هذه اللحظةِ لم يكن لدى قائدِ القلعةِ السيد محمد أمين أي تصوُّر أو خطةٍ مسبقةٍ لمواجهةِ مثلِ ذلك الموقفِ الحرجِ المرعبِ، لأنه قد قرر مُسبقاً أن حياته ليست بأفضلَ من حياةِ أي رجلٍ من أولئكَ المحكومينَ بالإعدام.. ولكنه شعرَ لحظتها كأن براكين مفاجئةً تفجرتْ بعنفٍ في صدره وثار ثورةً جامحةً وردَّ بعنفٍ لم يسبق له مثيلٌ ولعلَّها المرةُ الأولى في حياته العسكرية التي يعلو فيها صوتُه فوق صوتِ القائد العام وبهذه اللهجةِ العاصفةِ قائلاً:

إذا دخلَ العدو الكافرُ بلادنا وفتكوا بنا وبأعراضنا فما ستفعلون أنتم؟.

أنتم لكم بلدٌ آخرُ، سيحملُ كلُّ واحدٍ منكم محفظته ويرحلُ لبلده ونحن نبقى تحت نير الطاغيةِ نذوق ألواناً من العذاب...

أليس كذلك يا سيادةَ القائدَ العام؟.

أيُّ مصيرٍ سيءٍ سنؤول إليه؟.

إنهم حتماً سينتهكون الحرماتِ ويفتكون بالأعراضِ ويدمِّرونَ أقدسَ المقدساتِ دونَ أي وازعٍ أخلاقيٍ أو إنساني، وبذا سنعاني ونكابدُ ما لا تُعانون ولا تُكابدون لأنكم عندها ستحزمون حقائبكم وتغادرون إلى بلادكم آمنين مطمئنين، تتركوننا ومصيرنا المرعبَ مع هؤلاء الأعداءِ المحتلِّينَ.

وهنا ظهرت علاماتُ الدهشةِ والاستغرابِ على وجهِ قائدِ الجيشِ، فأجابه بدهشةٍ مفاجئةٍ غامرةٍ: وماذا تعني بهذا الكلام؟.

قال: أعني أنني الآن وضعت جيشاً قوامه /4000/ عُنصراً يقاتلون فيَقتُلون ويُقتَلون فإذا قُتل فرد منهم قَتَل بالمقابل عنصراً من العدو فهذا الجيش يشكِّل الآن جبهة ضاربة لردع العدوِ كنتم ستقتلونهم بأيديكم بدل العدو، وهم الآن يقتُلون عدوكم... فلماذا تعدمونهم إذن؟.

فأجابه القائد العام : لأنهم هربوا من الخدمة العسكرية.

وهنا سألهُ القائدُ العام: ولكن ما علاقة هذا الكلام بما سألتُك عنه من إقدامِك على الإفراجِ عمَّن كان سيُنفَّذ بهم حُكْمُ الإعدامِ.

فأجابه ضابطنا السيد محمد أمين: إن هؤلاء الذين ترسلون بهم إليَّ ليتمَّ تنفيذُ حُكمِ الإعدامِ فيهم[1] والذي بلغ عددهم /4000/ مقاتلٍ تقريباً حتى الآن.

حين الإفراجُ عنهم وتجهيزهم وإرسالهم إلى جبهات القتال فإنهم سيشكلون جبهةً منيعةً يصعبُ على العدو الكافر اختراقها، وعلى سبيل الافتراض لو أن كلَّ مقاتلٍ منهم قضى على الجندي المعادي الذي يقابله لتمَّ القضاءُ على جيشٍ كاملٍ من الأعداء ولشكَّل ذلك تغييراً جذرياً وحاسِماً في مجرى وسير الأعمالِ القتاليةِ لصالحِكم ولصالحنا.

ثم إننا لو تقصَّينا أسبابَ فرارِ هؤلاء لوجدنا أن فرارَهم ليس جُبناً أو تخاذلاً وإنما بدافعِ الجوع وعدم منحهم ما يستحقون من إجازات إطلاقاً رغم مكوثهم مُدداً طويلةً بعيدين عن أسرهم وذويهم، فهم يُزجُّون في أتون المعارك ولهيبها دون إمدادٍ منكم بما يحتاجون إليه من طعامٍ وغيره.

إذاً ما هو الذنب الذي اقترفوه ليُحكَم عليهم بالإعدام؟.

أمِدُّوهم بما يحتاجون إليه وبما يقتضيه سيرُ الأعمالِ القتاليةِ ونجاحها وعلى ضوء ذلك تتمُّ محاسبةُ المقصِّرين منهم والمتخاذلين.



وهنا وإزاءَ هذا الردِّ المنطقي المعقولِ أجالَ قائدُ الجيش التركي فكرهُ في جديَّة ومنطقية كلامهِ فوجدَه سليماً، فرجع إلى نفسه إنا لنحن الظالمون وما فعلَه هذا

---

[1] (مع التنويه بأن هذا الرقم المذكور وصل إلى هذا الحد في زمنه فقط، فما بالك بمن أُعدم على مدار عامين).

الأسد "السيد محمد أمين" إنما هو حقّاً لصالحنا وهو عينُ الصوابِ، عندها سأله السؤال التالي : أتستطيع أن تُجيبَ الوالي[1] بما أجبتني به؟.

ردَّ السيدُ محمد أمين: نعم... ولِمَ لا !.

حينها قال له القائدُ العام: إذن هلمَّ معي لمقابلته ، لنشرحَ له الأخطاءَ التي تقعُ دون علمِ جلالته.

وعند المثولِ أمامَ الوالي كرَّر أمامه ما قال بصراحة وجرأة لا تعرف الضعفَ غيرَ وجلٍ ولا هيَّابٍ، وشرح تفاصيل ما شرحهُ تجاه قائد الجيش.

ولدى سماع الوالي بذلك الرقم /4000/ مُعدم هاله ما سمع وأدرك عندها حجم هذه الجريمة بهذا المجموع الضخم ولأن تجزيء ذلك الرقم أي ما بين /60ـ70/ معدماً يومياً لم يكن يعني شيئاً بالنسبة لهؤلاء المسؤولين، أما حاصلُ جمعه على مدى شهرين أو أكثر فهذه خسارة كبرى من قوَّاتهم لا مسوِّغ لخسارتها.

ومن فوره التفت الوالي إلى قائد جيشه مستفسراً عمّن أصدر مثل ذلك الأمر الأحمق المدمِّر.

فأجابه قائلاً: إنه الوالي السابق جمال باشا "السفاح" .

وهنا استشاطَ هذا الوالي غضباً وقال: أنا موجودٌ وأوامر جمال باشا لا تزال ساريةَ المفعول ويُعملُ بها في ولايتي؟!. منذ هذه اللحظة وعلى الفور يُعتبر هذا الأمر لاغياً ولا يُعملُ به أبداً. ووجَّه الأمر لقائد الجيش وطلبَ منه إلغاء أوامر الإعدامِ فوراً وإصدار تعميمٍ عاجلٍ بذلك.

"ولا يخفى علينا بأنه وكما هو معروف عن الولاةِ بأن الوالي الذي يلي من سبقه لا تروقُ له سياستهُ ويحاول النيلَ منه وخاصةً إذا كان السابقُ هو جمال باشا الطاغيةُ الجبَّارُ الذي لم يكنَّ له هذا الوالي أي تقديرٍ أو محبةٍ".

---

[1] (الوالي بذلك الزمن بمثابة رئيس جمهورية وكان يحكم سوريا والأردن وفلسطين).

وهنا لم يكتفِ السيد محمد أمين باستِصدارِ ما يُلغي ذلك الأمر الجائرَ فقط، بل توجَّه إلى الوالي بالقول:

جَلالة (الوالي) إن مثلَ تلك الأحكامِ الجائرة لم تكن وقفاً على العسكريين فقط، إنما شملتِ المدنيينَ أيضاً، فهنالك أمرٌ عرفيٌّ يُساق بموجبه العديدُ من أبرياءِ المواطنين يومياً إلى أعوادِ المشانق وينفَّذُ بهمْ حُكْمُ الإعدامِ أيضاً، ولو لأتفه الأسبابِ وذلك طبقاً للأحكام العرفيةِ النافذة والمعمولِ بها.

وهنا أيضاً سأل الوالي قائد الجيش: من أصدرَ ذلك؟.

فأُجيبَ: بأنهُ جمال باشا أيضاً.

كذلك أصدر الوالي مرسوماً يقضي بإلغاء الأحكام السابقة، وندب القائدَ السيد محمد أمين لتنفيذ إبطاله.



ومنذ خروجه من مقر القيادةِ توجَّه فوراً بعد أن أخذ مفرزةً من رجالِ الأمن لإزالةِ كافةِ أعوادِ المشانق التي كانت قد نُصبتْ في مُعظمِ ساحات مدينة دمشقَ وأحيائِها وبمقتضى هذا المرسوم أيضاً أُزيلتْ كافةُ أعوادِ المشانق من جميع أنحاءِ ولاية بلاد الشام بأسرها.

وبذلك تمَّ إنقاذُ آلافِ المدنيينَ أيضاً ممَّن كانوا سيقضون نَحبهُمْ على أعواد المشانق، وزالَ الحيفُ والظُّلمُ عنهم، ولم يتمَّ أي إعدامٍ لأي عربي بعدها وحتى زوال الدولة التركية من بلاد الشام.

وهكذا وبعد أن خيَّمَ كابوسٌ من الرُّعبِ والظُّلْمِ على أبناء ولاية بلاد الشام حيناً من الدَّهْر حيث عمَّت الأحزانُ عوائلهم وأضحى شبحُ الموتِ جاثماً في بيوتهم وخطرهُ مُحْدِقاً بهم وماثلاً أمام أبصارهم وأسماعهم حتى قامَ السيد محمد

أمين بعمله الجليل هذا وهبَّ لنصرة من لا ناصرَ لهم ولا معين معتمداً ومتوكِّلاً على ربِّ العالمين فأيَّده الله بالنْصرِ المبين. والخلْقُ كلهم عيالُ الله وأحبُّهم إلى الله أنفعُهم لعياله.

فكلُّ عطاءٍ ناله من الله تعالى وكلُّ علمٍ فتح الله به عليه كان نتيجةً لأعماله الإنسانية العظمى أمثالِ هذا العملِ الكبيرِ وتفكُّرِه الدؤبِ بهذا الكونِ.



الأسئلة

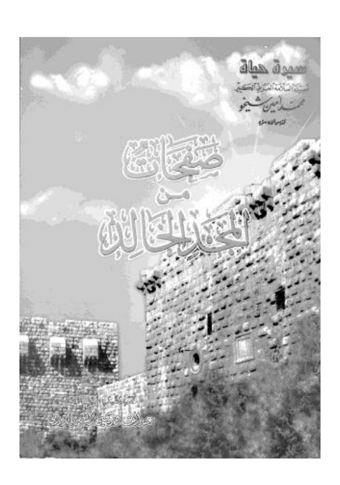
1) ما الذي قرَّرهُ العلاَّمةُ محمد أمين شيخو في نفسه عند سماعه أن المسؤول الذي قبله كان يقومُ بإعدامِ الفارينَ رمياً بالرَّصاص وهو يشربُ المرطباتِ والتبغَ؟.

2) لماذا كان القادةُ الأتراكُ يلقبون السيدَ محمد أمين شيخو بالأسد؟.

3) لماذا صُعق القائدُ العام بإجابة العلاَّمة محمد أمين؟.

4) هل اكتفى العلاَّمة الجليلُ بتوقيفِ وإلغاءِ حُكْمِ الإعدام عن العسكريين فقط؟.

5) عندما سمع العلاَّمةُ محمد أمين في المرة الأولى أن عدد المحكومِ عليهم بالإعدام حوالي 70 رجلاً هالهُ الأمرُ ورأى بنبلهِ ومروءتهِ أن حياتهُ ليست بأفضلَ من حياةِ أحدِهم فكيف وهم 70 رجلاً !..لذا قرَّر أن يُضحي بحياته فداءً لهم في سبيل الله عز وجل.. اذكر استنتاجك حول هذه القصة العظيمةِ والدروس السابقةِ وكيف أن اللهَ تعالى يجزي ويُعطي بالحقِّ والعدلِ.




الفصل الثالث
قسم
قصص الأنبياء الكرام
أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ
فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ
سورة الأنعام: الآية(٩٠)

الدرس الأول قصةُ سيدنا إبراهيم عليه السلام

طلابنا الأعزاء: في قصة سيدِنا إبراهيم عليه السلام مثلٌ حيٌ لكلِّ إنسانٍ ودرسٌ خالدٌ للبشرِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ فالإنسانُ مهما تكن البيئةُ التي نشأ فيها والأسرةُ التي ربَّتهُ بين أحضانها ومهما أحاطت به الضلالاتُ والجهالاتُ فباستطاعته أن يتوصَّلَ بذاته إلى طريق الحقِ والرشادِ وأن يكتشفَ معالمَ الحقيقةِ فيخرجَ من الظُّلْمةِ إلى النور ويشهدَ الخيرَ من الشرِّ وإن خفيَ على غيره من الناس.

نعم يستطيعُ الإنسانُ بذاته، وبذاته وحدَه أن يَشُقَّ طريقَ الحقيقةِ ويكتشفَ معالمها، لأن اللهَ تعالى تفضَّلَ على الإنسانِ بجوهرةٍ ثمينةٍ وكرَّمه بها فإن هو حاولَ الاستفادةَ منها والانتفاعَ بها توصَّلَ إلى كلِّ خيرٍ وسما إلى مراتبِ الإنسان الكاملِ فكان من أعلى المخلوقات شأناً وأقربهم إلى الله جميعاً وممن ذكرهُمُ اللهُ تعالى في قوله: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧** ﴾[1].

وإن هو ألقى هذه الجوهرةَ جانباً واتَّخذها وراءَ ظهرهِ حبطَ عملُه وانحطتْ منزلتُه فصارَ أدنى وأشرّ مخلوقٍ على وجه الأرضِ قال تعالى:

﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَـٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦** ﴾[2].

إنَّ هذه الجوهرةَ التي أنعمَ اللهُ تعالى بها على كلِّ إنسانٍ إنَّما هي الفكرُ، وبالفكرِ يستطيعُ الإنسانُ مهما تكن لُغَتُه ومهما تكن بلادُه وأمَّتُه ومهما تكن شيعَتُه وملَّتهُ أن يعرفَ خالِقَه المعرفةَ اللائقةَ فيهتدي إلى الحقِ ويشهد الحقيقةَ، ذلك أنه لا عبرةَ في الوصولِ إلى هذه المعرفةِ للُّغة واللسانِ ولا يحولُ دون الحصولِ عليها قطرٌ ولا بيئةٌ ولا مكانٌ.

---

(1) سورة البينة: الآية (7).

(2) سورة البينة: الآية (6).

فهذا الكونُ المحيطُ بالناسِ جميعاً وما فيه من آياتٍ بيِّناتٍ إنما هو كتابٌ مفتوحٌ يستطيعُ أن يقرأَ فيه دلائلَ العظمةِ وأن يرى الآياتِ الدالةَ على الخالقِ كلُّ إنسانٍ أينما حلّ وحيثُما ارتحلَ وفي أي جيلٍ وعصرٍ نشأ وفي أي أمةٍ أو شعبٍ كان.

كيف توصَّل سيدُنا إبراهيم ﷺ بفكره إلى معرفة ربِّه وكذلك الأنبياءُ من قبله ومن بعده؟.

نشأ سيدُنا إبراهيم ﷺ في أمةٍ تعبدُ الأصنامَ وكان قومُه جميعاً حتى أبوه يتخذون أصناماً آلهةً فلم يجارِ الناس على سيرِهم ولم يوافق أباه على ضلاله بل إنه جعلَ ينظرُ ويتأمَّلُ وصارَ يُفكِّر ويتعمَّقُ في التفكيرِ فنظرَ أولَ ما نظر إلى نفسه وهداهُ تفكيرُهُ المتواصلُ إلى أنَّ نطفةً من منيٍّ يُمنى لا يمكن لها بذاتها أن تتحوَّلَ بعد حينٍ وتصبحَ مخلوقاً كريماً وإنساناً سوياً ذا سمعٍ وبصرٍ ونُطقٍ وشمٍ ووعيٍ وتفكيرٍ وله ماله من قلبٍ ورئتين ومعدةٍ وكليتين وكبدٍ وأمعاءَ إلى غير ذلك من الأجهزةِ والأعضاءِ التي يحارُ في دِقةِ تركيبها وبعظمةِ صُنعها كلُّ ناظرٍ ومتأملٍ.

نعم لقد أوحت إليه هذه الفكرةُ المتواصلةُ وهداهُ هذا التأمُّلُ إلى أنَّ له ربّاً عظيماً خلقهُ ورتَّبهُ وأحكمَ صُنْعَهُ وركَّبهُ. وراحَ سيدُنا إبراهيم ﷺ يبحثُ عن خالقهِ ويُفكِّرُ ليلاً نهاراً جاهداً جادّاً في معرفةِ ربِّه.

ونظرَ فيما يعكُفُ عليه أبوه وقومُه مفكِّراً متسائلاً أيمكنُ لصنمٍ نحتهُ إنسانٌ بيدهِ أن يكونَ خالقاً مربياً؟ وهل يستطيعُ هذا الصَّنمُ الذي لا يقوى على أن يمسِك ذاته بذاته أن يمسكَ السمواتِ والأرضَ وأن يمدَّ ما فيها بالحياة؟. وذلك ما لا يقبلُه فكرٌ سليمٌ ولا يقرّهُ عقلٌ ولا منطِقٌ صحيحٌ.

وهكذا استطاع سيدُنا إبراهيم ﷺ بتفكيره أن يتحرَّر من عقيدةِ الوثنيةِ التي درجَ عليها أبوهُ وقومُه من قبلُ وأن يُخالفَ البيئةَ والمجتمعَ الذي نشأ فيه وإلى ذلك تُشيرُ الآيةُ الكريمةُ في قوله تعالى:

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾. وإنَّه لخليقٌ بكلِّ إنسانٍ ما دامَ قد أُعطِيَ من التفكيرِ ما أَعْطِيَهُ أبوهُ وسائرُ الناسِ أن يفكِّرَ كما فكَّر سيدُنا إبراهيمُ ، وأن يبحثَ بذاته عن الحقيقةِ فلا يكونَ كالحيوانِ الأعجَمِ مسوقاً لغيره تتلاعبُ به الضَّلالاتُ وتتقاذفُه الأوهامُ. وبعد أن قطعَ سيدُنا إبراهيم مرحلتين من مراحلِ التفكير في سبيل الوصول إلى الحقيقة.

- انتهتِ به الأولى أن له ربّاً عظيماً خلقهُ وأوجدَهُ.
- وانتهى في الثانيةِ إلى إنكارِ أن يكونَ الصَّنمُ له ربّاً.

انتقل إلى مرحلةٍ ثالثةٍ مرحلةِ البحثِ المتواصلِ والتفكيرِ الذي لا ينقطعُ في طلبِ الحقِ واجْتلاءِ الحقيقةِ، وقد وصفَ لنا تعالى هذه المرحلةَ في كتابه العزيزِ وصدَّرها بآيةٍ كريمةٍ تبيِّنُ لنا فيها أنَّ الصِّدقَ في البحثِ عن الخالقِ وأنَّ الشَّوقَ الملحَّ والشَّغفَ في الوصول إلى الحقيقةِ سينتهي حتماً بهذا الإنسانِ المفكِّرِ وبكلِّ امرىءٍ صارَ مثلَهُ إلى شاطىءِ الحقيقةِ وسيوصِلُه إلى بحرِ المعرفةِ قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾[1] أي: وبهذا التفكير الذي شَغَلَ إبراهيمَ وبناءً على ما ظهرَ لنا منهُ من الصِّدقِ فإننا سنريهِ الحقيقةَ وسنبلِّغهُ مرادَهُ وكذلك نُري كلَّ صادقٍ مُقْتفٍ أثرهُ طالب مطلَبهُ.

كيف قطعَ سيدنا إبراهيم خُطواتِ هذه المرحلة:

كان جالساً ذات ليلةٍ يفكِّرُ على جاري عادته، ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾، وستره بظلامهِ ﴿ رَءَا كَوْكَبًا ﴾: شاهدَ كوكباً منيراً يتألَّقُ في السَّماءِ فقال في نفسه متسائلاً. تُرى هلْ هذا ربي الذي يمدُّني بالحياةِ؟.

فلمَّا أفلَ الكوكبُ وغابَ قال لا أحبُّ الآفلين.

---

[1] سورة الأنعام: الآية (75).

فما دام هذا الكوكبُ قد أفلَ وغابَ فلا يمكنُ أن يكونَ ربِّي الدائمَ عليّ فضلُه والمتتالي إمدادُه وخيرُه والذي يجب عليَّ أن أحبَّهُ، وتابعَ سيدنا إبراهيم تفكيرهُ ﴿ **فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا** ﴾ مشرقاً بنوره على الكون عاودتهُ الفِكرةُ أيمكنُ أن يكونَ هذا القمرُ ربّه؟. وتساءل في نفسه ﴿ **قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾** ﴾. والمُرادُ بقوله ﴿ **مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾** ﴾: أي التائهين عن الحقِ، وأنت ترى أنه أدركَ في هذه الخطوةِ أنَّ هدايتهُ إنَّما هي بيد ربهِ فهو وحدَهُ الفعَّالُ وبنوره يستبينُ الحقُّ لطالبِ الحقِ وبإذنه يهتدي المهتدونَ.

واستمرَّ سيدُنا إبراهيم عليه السلام على تفكيره وواصلَ ليلهُ بنهارهِ وكذلك شأنُ كلِّ مشوقٍ وحالُ كلِّ صادق ﴿ **فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً** ﴾ وقد عمَّ الأرضَ نورُها ﴿ **قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ** ﴾. أدرك أن ربَّه ليس بالكوكب ولا القمرِ ولا الشمس فما يمكنُ لهذه الأجرامِ الآفلةِ على عظمتها أن تكونَ ربّاً، إذِ الربُّ لا يغيبُ ولا ينقطعُ نظرهُ عن مخلوقاته ولو أنه انقطعَ طَرْفةَ عينٍ لزالتِ المخلوقاتُ كلّها وانمحتْ جميعُها ولم يبقَ لها أثر.

نعم لقد أدرك في هذه الخطوة أنَّ هذه كلَّها مخلوقاتٌ وأنَّ المسيِّر لها واحدٌ أكبرُ منها جميعاً أعظمُ من الكواكب والقمرِ والشمسِ وسائرِ ما يشهدُه الإنسانُ ويراهُ. إنه ربٌّ عظيمٌ لا يمكنُ أن يدرِكَهُ بصرٌ أو تراهُ عينٌ، إنه ربٌّ دائميُّ الإمدادِ عظيمُ القدرةِ إنه ربُّ السَّمواتِ والأرضِ الذي فطرهُنَّ وما فيهن على هذا النظامِ البديع.

ولَمَّا استعظمَ ربَّه هذا الاستعظامَ اتجهَ بكلِّ قلبهِ إليه ﴿ **قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾** ﴾[1].

---

(1) سورة الأنعام: الآية (77ـ79)

وهنالكَ وفي هذه اللحظةِ كشفَ اللهُ له النِقابَ عن الحقيقةِ فشاهدَ عظمةَ هذا المسيّرِ لهذا الكونِ العظيمِ شُهوداً نفسياً ورأى يدَ الإمدادِ بالتربيةِ مبسوطَةً على كلِّ مخلوقٍ من مخلوقاته تعالى وعاينَ أنَّ قيامَ السَّمواتِ والأرضِ وسيرَ جميعِ ما فيها من مخلوقاتٍ إنَّما هو بيدِ اللهِ سبحانهُ وتعالى، وإليه وحدَهُ تؤول أمورُ هذا الكونِ كلِّه فلا يتحركُ شيءٌ إلاَّ بإذنه ولا يقعُ واقعٌ إلاَّ بأمرهِ وحدَهُ وهو المسيّرُ فلا إلٰهَ غيره ولا مسيِّرَ سواه.

نعم عَقَلَ سيدُنا إبراهيم عليه السلام ذلك كله وأدركهُ فما كان منهُ إلاَّ أن اسْتَسْلَمَ بكلِّيتهِ إلى الله تعالى ففوَّضَ أمرهُ وألقى مقاليدَ نفسه إليه وإلى ذلك تُشيرُ الآيةُ الكريمةُ في قوله تعالى: ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾** ﴾[1].

العبرةُ من هذه القصةِ:

وأنت ترى من تفصيلاتِ هذه القصةِ كيف أن الصِّدقَ لا بدَّ أن يصِلَ بصاحبه إلى شاطىءِ الحقيقةِ والارتشافِ من بحار المعرفةِ والسَّبْحِ في شُهودِ العَظمةِ والكمالِ الإلهي فما لهذا الإنسانِ الضالِّ إذا وقفَ يومَ القيامةِ على النارِ عذرٌ يعتذرُ به أو حجَّةٌ يقدِّمها بين يدي ربه. إذ باستطاعته ما دامَ الله قد وهبهُ فكراً وتمييزاً أن يُعمل فِكرهُ فيعرفَ خالقهُ ويهتديَ إليه.



---

(1) سورة البقرة: الآية (131).

الأسئلة

1) ما هي الجوهرةُ الثمينةُ التي منحها اللهُ تعالى للإنسان؟.

2) هل الإيمانُ بالله تعالى يتطلبُ زماناً ومكاناً لكي يحصلَ عليه الإنسانُ؟.

3) بأي شيءٍ نظرَ سيدُنا إبراهيم حتى أيقنَ أن لا فعلَ للأصنام أبداً؟.

4) ما معنى قولهُ عليه السلام حين رأى الكوكبَ: ﴿..**هَـٰذَا رَبِّي**..﴾؟.

5) إلى أيِّ شيءٍ عظيمٍ توصَّلَ عليه السلام بعدَ النَّظرِ العميقِ والمتواصلِ بالكوكب والقمر والشمس ؟.

6) ما هو الدرسُ الخالدُ الذي يريدُ سبحانه تعالى أَن يعلِّمنا إياهُ بقصة سيدِنا إبراهيم عليه السلام ؟.



الدرس الثاني — طريق الأنبياء الكرام (عليهم السلام)

أعزائي الطلاب: إن الدرسَ الخالدَ الذي قام به سيدُنا إبراهيم عليه السلام ليعلِّمَ به البشرَ أُصولَ البحثِ العلمي الصحيحِ ويضربَ لهم مثلاً أعلى في كيفية كشْفِ الحقيقةِ ما هو بالدرسِ الأولِ في هذا المضمارِ فما من نبيٍ ولا رسولٍ من قبله أو بَعده إلاَّ وسلكَ هذا السبيلَ.

ولذلك أعقبَ اللهُ تعالى قصةَ سيدِنا إبراهيم عليه السلام الواردة في سورة الأنعام بذكر طائفةٍ من الأنبياء والرُّسُلِ الذين سبقوا أو أعقبوا هذا الرسول الكريمِ.

وبيَّن لنا أن أولئك الأنبياء والرسل الكرام وإن الذين اهتدوا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم إنَّما اهتدوا إلى ربِّهم عن هذا الطريق، وأنها هي الطريقُ الوحيدةُ لمن يريدُ معرفةَ ربّه قال تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ..** ﴾ ثم بيَّن لنا تعالى أنَّ كمالَ هؤلاء الرسُلِ وسيرَهم العالي إنما كان باتِّباعهم لدلالةِ الله وحدَه وعدمِ إشراكِهم بعبادة ربهم أحداً سواهُ قال تعالى: ﴿ **..وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٨٨** ﴾[1]. ثم حثَّنا تعالى على اقتفاءِ آثار هؤلاءِ الرُّسلِ ومتابعتهم في هذه الطريقِ التي سلكوها، باهتدائهم إلى ربهم فقال تعالى: ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ..** ﴾[2]. ومن هنا يتبيَّن لنا أنهُ ما لمؤمنٍ توصَّلَ أو يُريدُ الوصولَ إلى معرفة ربِّه غير هذا السبيلِ.

أمَّا ذلك الإيمانُ التقليديُّ الذي يرثُه الإنسانُ عن أبيه وأمِّهِ، ذلك الإيمانُ الذي لم يبذُلِ الإنسانُ جُهداً في الوصولِ إليه ولم يتوصَّل إليه عن طريقِ التفكيرِ في آيات اللهِ فما هو بالإيمانِ الصحيحِ، وإنه ليس بمنجٍ صاحبَهُ بين يدي اللهِ ولا بمغنٍ عنه شيئاً.

---

(1) سورة الأنعام: الآية (88).

(2) سورة الأنعام: الآية (90).

ومن الظاهرِ أن أكثرَ الناسِ ممَّن آمنوا هذا الإيمانَ التقليدي الذي ورثوه عن آبائهم قد ملكَ حبُّ الدُّنيا قلوبَهم فهم لا يعرفون حلالاً من حرامٍ، ولا يميزونَ خيراً من شرٍّ ولا يتورَّعون عن أكل أموال الناس بالباطل، أو إزهاقِ أرواح الأنفسِ البشرية في سبيل تأمين مصالحهمُ الخاصةِ أو إشباعِ شهواتهمُ الخبيثةِ وهم إلى جانب ذلك يدَّعونَ الإيمانَ، ولو آمنوا حقّاً لسَمتْ نفوسُهم وكَمُلت أخلاقُهم قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[2].

نتائجُ الإيمانِ بالله وآثارُ معرفتهِ: والآن بعد أن بيَّنا الطريقَ الوحيدةَ في الوصولِ إلى الإيمانِ نُريدُ أن نبيّنَ نتائجَ الإيمانِ بالله وآثارَ معرفته فنقولُ:

إذا آمن الإنسانُ بربِّهِ الإيمانَ الصَّحيحَ، وعرفَ خالِقَه تلك المعرفةَ الخالصةَ فعندئذٍ تنطبعُ في قلبه الرَّحمةُ ويصطبغُ بها بصبغةٍ من الله، فيغدو رحيماً بالخَلْق شفوقاً على النّاس ولذلك تراهُ ينطلقُ جاهداً في عملِ الخير ساعياً في إنقاذِ البشر والأَخْذِ بأيديهم من الظُلماتِ إلى النور، باذلاً وراءَ هذه الغايةِ كلَّ غالٍ وثمينٍ ولو كلَّفهُ الأمرُ أن يبذلَ روحَهُ وأن يضحِّي بماله وأعزّ ما عنده.

تلك هي نتائجُ الإيمان بالله وثمراتُ المعرفة الصحيحةِ؛ حبٌّ للخيرِ وإنسانيةٌ عامةٌ لا تقتصرُ على صديقٍ أو قريبٍ بل تشملُ كلَّ إنسانٍ أيّاً كان، ذلك هو حالُ سيدنا إبراهيم

---

(1) سورة البقرة: الآية (8ـ10).

(2) سورة البقرة: الآية (204ـ205).

عليه السلام بعد أن توصَّل للإيمان وكذلك حالُ كلِّ نبيٍ ورسولٍ، لا بل حالُ كلِّ مؤمنٍ بحسبِ ما بلغهُ من درجاتِ المعرفةِ والإيمان، وإلى ذلك تُشيرُ الآيةُ الكريمةُ الواردةُ في سورةِ الأنبياء في مَعرِضِ الكلامِ عن سيدنا إبراهيم عليه السلام وغيره من الأنبياء والمرسلين في قوله تعالى:

﴿ **وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣** ﴾[1].

وإذا أردت أن تطَّلعَ إلى تلك المناقشةِ المنطقية التي قام بها سيدُنا إبراهيم عليه السلام في هداية قومِه وإبطالِ عقائدهمُ الفاسدةِ، فاستمعْ إلى ما أوردَه تعالى في كتابه العزيزِ:

﴿ **۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦** ﴾[2].

وأنت ترى من خلال هذه الآيات الكريمةِ كيف أن الله تعالى عليمٌ بهذا الإنسانِ فإذا هو فكَّرَ ساعياً وراء الحقيقةِ فإن الله تعالى لا بدَّ أن يهديَهُ ويؤتيَهُ رشْدَهُ وذلك ما أشارت إليه آية: ﴿ **۞وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١** ﴾ أي: بعلمنا بصدقهِ هديناهُ وآتيناهُ رشدَهُ.

كما ترى أن جمودَ التفكيرِ يجعلُ الإنسانَ يقلِّدُ غيرهُ تقليداً أعمى ولا يريهِ ما في عملهِ من ضلالٍ وغوايةٍ.

ثم إنَّ سيدَنا إبراهيم عليه السلام عزمَ في نفسه على أن يكْسِرَ هذه الأصنام على حين غفلةٍ من قومه ليريَهمْ أنها لا حولَ لها ولا قوة.

---

(1) سورة الأنبياء: الآية (73).

(2) سورة الأنبياء: الآية (51-56).

وما لبث أن نفَّذ هذا العزمَ وحقَّقهُ وإلى ذلك تُشيرُ الآياتُ الكريمة في قوله تعالى: ﴿ **وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ۝ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۝ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۝ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ۝** ﴾[1].

وهنا انتهزَ سيدُنا إبراهيم عليه السلام هذه الفرصةَ وأحبَّ أن يُجيبهم بجوابٍ يُحرِّكُ به تفكيرَهُمْ الخامدَ وأدمغتَهم المتحجِّرةَ فذكرَ لهم أن كبيرَ الأصنامِ هو الذي فعل ذلك بآلهتهم فلعلَّهم إذا سمعوا منه هذه الكلمةَ يفكِّرون قليلاً فيعرفونَ أنَّ هذه الأصنامَ لا حولَ لها ولا قوةَ وبذلك يستيقظون مما هم فيه من غفلةٍ وضلالٍ.

ومن الظاهرِ البيِّنِ أن إيقاظَهُ لقومه بهذه الكلمةِ التي أوردَها على هذه الصورةِ ليس بخطيئةٍ، إذ الخطيئةُ إنما هي إخطاءُ الصَّوابِ والضَّلالُ عن طريق السعادةِ كما لا يمكنُ أن يُعَدَّ كذباً إذ الكذبُ إنَّما هو كلمةُ الإثم التي يرادُ بها إيقاعُ الضَّررِ على الناس، وكلامُه هذا كلُّه خيرٌ ونفعٌ للناسِ، وإنَّ ما ذكرهُ هذا الرسولُ الكريمُ هو من حكمةِ النبوةِ وهو أبلغُ مقالٍ في مثلِ هذا الحالِ.

قال تعالى مشيراً إلى مقالةِ هذا الرسول الكريم:

﴿ **قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ۝ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ ۝ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ۝** ﴾[2].

وهنا وبعد أن جعلهم يُقرّونَ أن هذه الأصنام لا تستطيعُ أن تتفوَّهَ بكلمةٍ وأنها لا حولَ لها ولا قوةَ بيّن لهم سُخفَ اعتقادِهم وبُطلانَ عبادتهم وقبَّحَ لهم عملهم وإلى ذلك تشيرُ الآياتُ الكريمةُ في قوله تعالى: ﴿ **قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا**

---

(1) سورة الأنبياء: الآية (57-62).

(2) سورة الأنبياء: الآية(63-65).

﴿ يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧ ﴾[1].

غير أن قومَهُ بدلاً من أن يُذعِنوا للحقِ وينقادوا إليه عارضوا هذا الرسول الكريم وكادوا له فأنجاهُ اللهُ منهم وكانوا من الأخسرين. وإلى ذلك تُشير الآيات الكريمة في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ۝٦٨ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ۝٧٠ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ۝٧١ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَـٰلِحِينَ ۝٧٢ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ۝٧٣ ﴾[2].



(1) سورة الأنبياء: الآية (66ـ67).
(2) سورة الأنبياء: الآية (68ـ73).

الأسئلة

1) هل سيدُنا إبراهيم عليه السلام هو أولُ من توصَّلَ إلى معرفة الله تعالى عن طريق النظر والتفكُّرِ العميقِ بالكون ؟.

2) اشرح قوله تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ** ﴾.

3) مَن همُ الذين أمرنا تعالى أن نُتابعهُم ونعملَ مثل عملهم ولماذا؟.

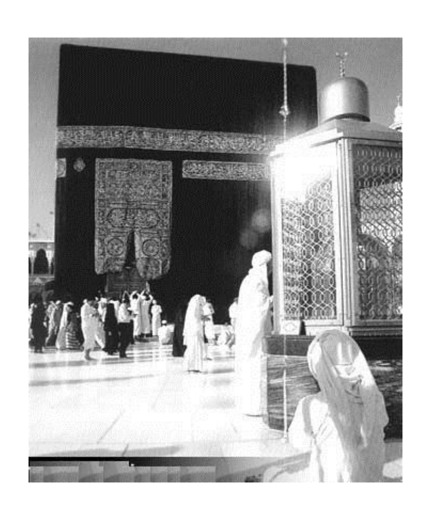
4) لماذا الإيمانُ الموروثُ عن الأب والأم والمجتمع لا ينجي صاحبه يومَ القيامةِ؟ علِّلْ ذلك .

5) اذكر بعض الآثار التي تغدو بالنفس من نتائج الإيمان بالله.

6) لمَ كسر سيدُنا إبراهيم عليه السلام الأصنامَ؟.

7) ما قصدُه عليه السلام بقوله بأن كبيرَ الأصنام هو من كسرَ الأصنام؟.

8) هل استطاعَ قومُه الكافرون القساةُ أن يحرقوه بالنار؟.



الدرس الثالث قصة سيدنا أيوب عليه السلام

طلابنا الأعزاء: مما ضربهُ اللهُ تعالى لنا في القرآنَ مَثَلاً في الثَّباتِ والصَّبرِ على الدَّعْوَة إلى الله والرحمةِ بقومه سيدُنا أيوب عليه السلام فهذا الرسولُ الكريمُ نادى قومهُ ودعاهم إلى الله تعالى فما وجد منهم في بادىء الأمر إلا عناداً وصُدوداً عن الحق ولم يلقَ لجهوده ثمرةً وهنالك تألَّم عليهم ألماً كبيراً ووجد في نفسه ضيقاً وغمّاً عظيماً وحزناً عليهم وحسرةً.

وما مثلُ هذا الرسولِ في تألمه على قومه وحُزْنه عليهم إلاّ كمثل أبٍ شاهد ابنه قد أُصيب بمرضٍ عُضالٍ يفتِكُ في جسمه وقد أعيتهُ الحيلةُ في انتشاله من براثِن هذا المرض وتخليصه. تُرى كم يتألمُ هذا الأبُ وكم يضيقُ صدرهُ ويحزن كلما وقع بصرُهُ على ابنه؟ أقولُ وهكذا كان حالُ هذا الرسولِ مع قومه.

وقد أشار القرآنُ الكريمُ إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ **۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾** ﴾[1].

ويكونُ المرادُ من هذه الآية الكريمةِ أي: واذكر عبدنا أيوب في رحمته بقومه وتألمه عليهم إزاءَ ما لقيهُ منهم من المعارضةِ الشديدة ﴿ **إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ** ﴾ أي: ربِّ لقد دفعني ما ألقاهُ من الضِّيق والغمِّ وحملني ما أجدُه في نفسي من الحزن والحسرة على قومي على أن أدعوك طالباً منك أن تكشفَ عني هذا الضرّ، أي: هذا الضيق بأن تهدي هؤلاء ﴿ **وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾** ﴾: فارحمني يا رب بهدايتهم إذ في ذلك خلاصُ نفسي وشفاؤها مما بها من العذاب النفسي والتألم.

وقد استجابَ الله تعالى دعاءَ رسوله وآن لقومه أن يهتدوا به وإلى ذلك تُشير الآيةُ الكريمةُ في قوله تعالى:

---

(1) سورة الأنبياء: الآية (83).

﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾[1].

ومعنى قوله تعالى ﴿ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖ ﴾ أي: فرَّجنا عنه ذلك الضيقَ الذي ألمَّ به فآمن قومُه وآمن آخرون من غيرهم بقدرهم رحمةً من عندنا، أي: رحمةً بهذا الرسول وبقومه. ﴿ وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ أي: تذكرةً لمن كان طائعاً لله قائماً بهداية العباد إلى الخالق ليعلموا أنه مهما حصل لهم من المعارضة والضيقِ فلا بدَّ أن يفرِّج الله عنهم ويجعلَ الخيرَ على أيديهم، والعاقبةُ للمتقين.

وهذه القصةُ التي جاءت موجزةً في الآيتين السابقتين أوردها الله تعالى مفصَّلةً في آياتٍ أخرى وبيَّن لنا الطريقَ التي أمر تعالى هذا الرسول بسلوكها ليتوصَّل إلى هداية قومه فقال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾[2]. والمرادُ بكلمةِ (مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ) أي: أصابني منه بسبب ما يوسوسُ به في نفوس قومي. (بِنُصۡبٖ) أي: عناءٌ وتعبٌ فلا ألبث أن أقيمَ لهم البراهين والحججَ حتى يوافِيَهم بوساوسه ويثيرَ الشبهات حول ما كنتُ بيَّنتهُ لهم.

أما كلمةُ (وَعَذَاب) فإنما تعني ذلك التألم النفسي الذي كان يجدهُ هذا الرسولُ الكريمُ على أولئك الضالين رحمةً بهم وحناناً عليهم.

ولما دعا هذا الرسول ربَّهُ استجاب الله تعالى دعاءَه وأمرهُ بالهجرة من بلده إلى بلد آخَرَ فقال تعالى: ﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ ﴾[3].

أي اخرجْ من بلدك الذي أنت فيه والذي لاقيتَ ما لاقيتَ فيه من الضِّيق المعنوي بسبب المعارضات إلى بلدٍ آخرَ فيه مغتسلٌ باردٌ وشرابٌ.

---

(1) سورة الأنبياء: الآية (84).

(2) سورة صٓ: الآية (41).

(3) سورة صٓ: الآية(42).

وقد جعل الله تعالى من هجرة هذا الرسول سبباً لهداية قومه ومِثْلِهم معهم وإلى ذلك تُشير الآيةُ الكريمةُ في قوله تعالى: ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾** ﴾[1].

وقد أراد تعالى أن يفصِّلَ لنا كيفيةَ اهتداء هؤلاء القومِ فقال تعالى: ﴿ **وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ** ﴾. **والضغث:** هو كل من اختلط واجتمع أفرادهُ في أصلٍ واحدٍ رغم تباينهم واختلافهم وهو أيضاً كلُّ مجموعٍ مقبوضٍ عليه بجمعِ الكفِّ، **والضغثُ:** هنا تعني الجماعةَ المختلطةَ من أصحاب ذلك الرسول الذين هاجروا معه من قريته والذين آمنوا به من ذلك البلد الذي هاجر إليه إشارةً إلى اجتماعِ قلوبهم على الله رغم اختلاف مساكنهم وأنسابهم وقد أمر الله تعالى هذا الرسول بأن يأخذَ هذه الجماعةَ المختلطةَ من المؤمنين وأن يجعلَ قيادتهم بيده فيضربَ بهم أولئك المعاندين وذلك ما أشارت به كلمةُ **(فَٱضْرِب بِّهِۦ)**.

ثم إن الله تعالى أمرَ هذا الرسول بأن يكون رابطَ الجأش في الحرب ثابتاً عند لقاء أولئك المعاندينَ غير متراجعٍ عن المضِي في دعوته. وإلى ذلك تُشيرُ الآيةُ الكريمةُ في قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَحْنَثْ** ﴾ أي: ولا تتراجعْ عن المضي في دعوتك وكن صابراً عند لقاء عدوك، ثم بيّن لنا تعالى أنَّ صبرَ هذا الرسول الكريم هو الذي جرَّ له ذلك الخيرَ العميمَ فقال تعالى: ﴿ **إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا** ﴾ أي بصبره تفضّلنا عليه بما تفضَّلنا به وجعلنا هداية قومه على يديه ﴿ **نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾** ﴾[2].

﴿ **نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ** ﴾: أي جاءته النِّعمةُ منَّا وأكرمناهُ بما أكرمناه به لأنه أوَّاب، أي: راجعٌ إلينا في جميع أموره، وأنت ترى من خلال هذه القصةِ مبلغ رحمةِ هذا الرسول بقومه وشدَّةَ تأثره عليهم كما ترى عظيمَ صبره وثباته في دعوته إلى ربه.

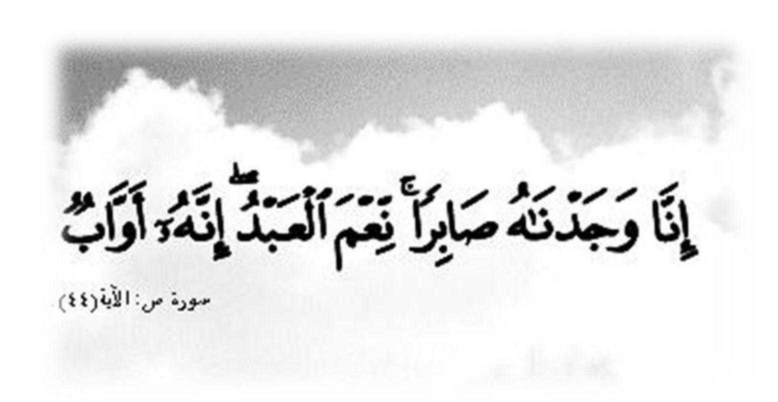
---

(1) سورة صٓ: الآية (43).

(2) سورة صٓ: الآية (44).

الأسئلة

1) ما هو الضُّرُ الذي مسَّ سيدنا أيوب عليه السلام؟.
2) ما مرادُ سيدنا أيوب عليه السلام بكلمته: ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾؟
3) من هم الذين آمنوا أولاً بسيدنا أيوب عليه السلام؟.
4) ما معنى قوله تعالى : ﴿ **وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾** ﴾.
5) بعد هجرة سيدنا أيوب عليه السلام إلى البلد الذي أمره تعالى بالهجرة إليه كيف تعاملَ مع المعاندينَ من قومه؟.
6) ما معنى قوله تعالى: ﴿ **نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾** ﴾.
7) أيُّ من قصصِ الأنبياء الكرام تشبهُ قصتُه قصةَ سيدنا أيوب عليه السلام؟. اكتبْ موضوعاً موجزاً لهذا السؤالِ .



الدرس الرابع   قصة سيدنا يونس عليه السلام

أرسل اللهُ تعالى سيدَنا يونس عليه السلام إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحدَه، وقد طالَ الجدلُ بينه وبينَهم وعارضوه أشدَّ المعارضةِ حتى ضاقَ بهم ذرعاً وظنَّ أنه لا يستطيعُ إلى هدايتهِمْ سبيلاً ففارقَهم متأثراً وذهب مغاضباً وإلى ذلك تُشيرُ الآيةُ الكريمةُ في قوله تعالى: ﴿ **وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ..** ﴾[1].

وإنَّ كلمةَ (**مُغَٰضِبًا**) تُشير لك إلى عطف الرسول الكريمِ على قومه وشدّة رحمته بهم فلولا أنهُ كان حريصاً على هدايتهم ورحيماً بهم لما غضِبَ من صُدودِهم عن الحق ولما تأثَّرَ من عدم اهتدائِهم أما كلمةُ (**لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ**) الواردةُ في قوله تعالى: (**فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ**) فمأخوذةٌ من القَدْرِ وهو أن يكونَ الشيءُ مساوياً لغيره بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ تقولُ هذا قَدْرُ هذا أي مماثلٌ ومساوٍ له، وتقولُ قدَّرَ فلانُ لوحَ الزُّجاجِ على النافذةِ أي قاسَهُ ثم قطعهُ بطولٍ وعرضٍ مناسبٍ مع مكانه فيها تمامَ المناسبة، وتقولُ قدَّرَ اللهُ على الرَّسولِ هدايةَ قومه، أي: جعله هادياً لهم لما علِمَه في هذا الرَّسولِ من الأهليةِ لهداية قومهِ وما علمَهُ فيهم من الاستعداد لتلقي الهَدْيِ والبيانِ ويكونُ المرادُ من كلمةِ (**فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ**) أي: ظنَّ أن لن نرزُقَهُ هدايتهم وأنه ليس فيهم ذلك الاستعدادُ لتلقي الهدايةِ بعد أن لقيَ ما لقيَ منهم من المعارضات والصُّدودِ. وما دامَ قد أدَّى واجبَهُ في التبليغِ وبَذَلَ جُهدَهُ في النُّصْحِ وما داموا لم يوافقوه ولمْ يتوصَّلْ إلى الثمرةِ المطلوبةِ عزمَ هذا الرسولُ على مفارقةِ قومهِ وهَجْرِهم، وقد انتهى المسيرُ بسيدِنا يونس عليه السلام إلى شاطىء البحر، فوجدَ فُلْكاً أي سفينةً مشحونةً بالرُّكابِ فركبَ مع الراكبين وهو لا يدري ما خبَّأَهُ الله تعالى له في سفره هذا. وسارت السفينةُ في البحر وقد ساهم سيدُنا يونس عليه السلام أي اشتركَ مع

---

[1] سورة الأنبياء: الآية (87).

الركّابِ في تسيير السفينةِ وقام بدوره في التجديفِ وفيما هو يقومُ بذلكَ زلق في البحر وغاصَ في الماء فالتقَمهُ الحوتُ وإلى ذلك تُشيرُ الآياتُ الكريمةُ في قوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝** ﴾[1].

وإنَّ كلمةَ **(أَبَقَ)** التي هي بمعنى هجرَ تبيِّنُ لك شدَّة ما عاناه هذا الرسولُ من قومِهِ من الضيقِ بسببِ ما قاموا به من الصُّدودِ والإنكار.

ولعلَّك تقول: لماذا أوقعَ اللهُ رسولَهُ في البحر ورماهُ في بطن الحوتِ وأحاطَ به ما أحاطَ من الغمِّ مادام قد أدى واجبه وبلَّغ قومه رسالة ربِّه؟.

فأقولُ: لا شكَّ أن اللهَ تعالى قادرٌ على أن يُرسلَ إلى أولئك القوم رسولاً آخر ويهديَهم به غير أنَّ اللهَ تعالى بعلمِه بما بلغتهُ نفسُ ذلك الرسولِ من السُّمو وما انطوى عليه قلبُه من النيّةِ العاليةِ وحبِّ الخيرِ أرادَ تعالى ألاَّ يحرِمَهُ من ذلك الخيرِ وأن يجعلَ هدايةَ هؤلاءِ على يديه ولذلك أوقَعهُ فيما أوقعهُ به من الغَمِّ وضيَّقَ عليه هذا التضييقَ فلعلَّهُ بهذا الغمّ يعرفُ أنَّ الله تعالى إنَّما تفضَّل عليه بفضلٍ كبيرٍ لانهايةَ له في تحميله إياهُ أعباءَ الرسالةِ وتكليفه بمهمةِ هداية قومِه، وإنه إنما ظلَم نفسهَ بتركِهم وإنه كان يجبُ عليه أن يكونَ أصبرَ على الإنكارِ وأشدَّ ثباتاً في التبليغِ رَغْم كلِّ ما لاقى من المعارضات.

وقد أدَّى السُّقوطُ في البحر والْتِقام الحوتِ بهذا الرسولِ الكريم إلى هذه النتيجةِ التي أرادها اللهُ تعالى وابتغاها له. فما أن أحاطتْ به ظُلمةُ بطنِ الحوت وظلمةُ أعماقِ المياه في البحر وظُلمةُ الليلِ حتى نادى ربه في الظُّلمات ملتجئاً إليه وإلى ذلك تُشيرُ

---

[1] سورة الصافات: الآية (139ـ 142).

الآيةُ الكريمةُ في قوله تعالى: ﴿.. فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾[1]. وكلمةُ (لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ): أي: يا ربِّ أنت المسيّرُ وحدك وأنا لا حولَ لي ولا قوةَ في إخراج أحدٍ من الكفر ونقله إلى الإيمان، فأنت أعْلَم بما في نفوس عبادِك وأنت الهادي والمسيِّرُ تسيِّرُ كلَّ نفسٍ إلى ما يُناسبها وما عليّ من واجبٍ سوى التبليغ والبيان وكلمةُ (سُبۡحَٰنَكَ) أي: ما أعظمَ فضلكَ عليّ! لقد ألقيتني في هذا الضيق لتعرِّفني أنك أردتَ لي الخيرَ العظيمَ بإرسالي إلى قومي وأنا إنَّما حرمتُ نفسي من هذا الخير، إذ لم أكن أصبرَ وأثبتَ أمام هذه المعارضات، وكلمةُ (إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧) أي: لقد ظلمتُ نفسي بعملي هذا وحرمتُها من الخير فاغفِرْ لي وامحُ من نفسي هذا التألُّمَ الذي أجِدُه وأنت أرحمُ الراحمين وقد سمعَ اللهُ تعالى مناجاةَ هذا الرسول الكريم فاستجابَ له ونجَّاه من الغمِّ وإلى ذلك تُشيرُ الآيةُ الكريمة في قوله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٨٨﴾[2] أي: وكذلكَ كلُّ مؤمن إذا هو في ساعات الشِّدّة والضيق التجأ إلينا ورجعَ كما رجعَ يونُس فإننا نخلِّصهُ من تلك الشِّدّة وننجّيه.

وقد أراد تعالى أن يبيِّن لنا في هذه القصةِ نقطةً أخرى من النقاطِ الهامةِ فذكر لنا أن الصَّبْر على البلاءِ والاستسلام لله فيما يسوقُه للإنسانِ من الشدّة هو أيضاً من الأسباب الموصِلَة إلى نيل الفضل الإلٰهي واكتساب الدرجات العاليةِ ولذلك قال تعالى: ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝١٤٤﴾[3] أي: لولا أن يونسَ فكَّرَ وتعرَّف إلى السبب الذي جلبَ له هذه الشدةَ ورجعَ إلى ربه شاكراً فضله فنالَ ما نال من الدرجاتِ العالية بهدايةِ قومه لجعلناهُ ينالُ ذلك الفضلَ الإلٰهي والعطاءَ عن طريقٍ آخرَ فنبقيه مضيّقاً عليه مغموماً في بطنِ الحوت، وبصبره على هذا البلاء

[1] سورة الأنبياء: الآية (87).
[2] سورة الأنبياء: الآية (88).
[3] سورة الصافات: الآية (143ـ 144).

واستسلامه ورضاهُ بما نسوقهُ له مع عدم علْمه بالسببِ نرفعُ درجتهُ ونبلِّغُهُ ما تأهلتْ له نفسُه من المنازلِ العاليةِ.

وأمَّا آيةُ (لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾): فإنَّما تُشيرُ لنا أيضاً إلى عدم فناءِ الأنبياء عليهم السلام في قبورهم بعد الموتِ وبقاءِ أجسادهِم على ما هي عليه إلى يومِ القيامة. ثمَّ إنَّ اللهَ تعالى أخرجَ سيدَنا يونسَ عليه السلام من بطن الحوتِ إلى سطحِ الأرض، قال تعالى: ﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾ ورحِمَهُ تعالى بأن أنبتَ عليه شجرةً من يقطينٍ تظلِّله بأوراقها من الحرِّ ومن كلِّ ما يمكنُ أن يتعرضَ له جسمهُ الشريفُ الذي كان بسبب بقائه في بطن الحوت عرضةً لأن تؤثِّر به أبسَطُ المؤثراتِ. قال تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾: ثم أرسله تعالى إلى قومه كرةً أخرى فآمنوا به.

قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾[1]. وكلمة ﴿ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ تُشيرُ لك إلى أنَّ الإنسان إذا هو آمن بربِّه ورجع تائباً إليه فإن الله تعالى يرفع عنه العذاب والشدَّة ويمتِّعهُ بالحياةِ الطيبةِ ومِمّا يُشير إلى هذا المعنى أيضاً قولُه تعالى: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾[2].

ويكونُ المرادُ من هذه الآية الكريمة أيضاً هو أن قومَ سيدنا يونس عليه السلام وحدهم هم الذين آمنوا وكان إيمانهم سبباً في خلاصِهم من العذاب. وهم الوحيدون الذين اهتدوا من بين الأقوام السابقة. والله تعالى إنَّما يحثُّنا على أن نكون مثل قومِ سيدنا يونسَ في الرجوعِ

[1] سورة الصافات: الآية (144ـ 148).

[2] سورة يونس: الآية (98).

إلى الحقِ والاهتداء ليكشفَ الله عنَّا ما نحن فيه من البلاء لا أن نكونَ كأولئك المعاندين لرسلِهم الذين ظلُّوا مثابرين على تكذيبهم حتى هَلكوا وجاءهم أمر ربِّهم.

ومما تُشيرُ إليه هذه القصةُ أيضاً تذكيرُ المرشدِ والداعي إلى الحقِ بالصَّبر على إيذاء ومعارضةِ أهل الباطلِ فلعلّ القوم الذين يعارضون اليومَ يهتدون غداً وسواءٌ اهتدوا أم لم يهتدوا فما على الرسولِ إلاَّ البلاغُ واللهُ تعالى لا يُضيعُ أجرَ المُحسنين وقد ساقَ اللهُ تعالى بعض آياتِ هذه القصة مسلِّياً بها رسولَه الكريمَ سيدنا محمداً ﷺ إثرَ المعارضةِ الشديدة التي لاقاها من قومه مبيِّناً له ضرورةَ الصَّبرِ والثباتِ وذلك ما تُشيرُ إليه الآيةُ الكريمة في قوله تعالى: ﴿ **فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠** ﴾[1]. وكلمةُ (**فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ**) أي: لا تَضِقْ بهم ذرعاً، بل اثْبُت على التبليغ وربُّك عليمٌ بما يناسبهم. وكلمةُ (**وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ**) أي: ولا تتركْهم وتفارقْهم متألماً من معارضتهم وما يقومون به من الإنكار والتكذيب.

وكلمة (**إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ٤٨**) أي: إذ نادى ربه وهو في بطن الحوت مغموماً في نفسه. أمَّا كلمة (**لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩**) أي: لولا أن اللهَ تعالى أنعمَ عليه بهذا الوقوعِ في بطن الحوت لَنُبِذ بالعراءِ أي لظلَّ متروكاً عارياً من فعلِ الخير مذموماً مِن قِبَلِ نفسه في عدم فعله الخيرَ بهجره لقومه، غير أنه برجوعه إلى ربِّه وإدراكه السببَ الذي جرَّ له هذا التضييق وتقديره فعل ربه فيما ساق اللهُ له من الشِّدة اجتباهُ ربه إليه وأعادَهُ إلى قومه وجعل هدايتهم على يديه وجعله من الصالحين لعطائه تعالى وإحسانه.

---

(1) سورة القلم: الآية (48ـ 50).

الأسئلة

1) إلى ماذا تشيرُ كلمةُ (**مُغَاضِبًا**) ؟.
2) ما المرادُ من قوله تعالى بحق سيدنا يونس عليه السلام (**فظن أن لن نقدر عليه**)؟.
3) لماذا أوقعَ اللهُ تعالى رسولَه الكريمَ بالبحرِ وجعله في بطن الحوت ؟.
4) لماذا رأى سيدنا يونس عليه السلام أن وقوعَه بالبحر وابتلاعَ الحوت له نعمةٌ ورحمةٌ من الله تعالى؟.
5) هل نجى اللهُ تعالى سيدنا يونس عليه السلام من الغمِّ الذي أحاطَ به؟.
6) الصَّبرُ على البلاء الذي يصيبُ الإنسانَ والاستسلامُ لله فيما يسوقُه له إلى أين يصلُ به في النهاية؟.
7) ما هو الدليلُ على أن أجسادَ الأنبياء الكرامِ لا تفنى بعد الموت؟.
8) على ماذا يحثنا تعالى بقصة سيدنا يونس عليه السلام مع قومه ؟.



الدرس الخامس   قصة سيدنا داود ﵇

توالت الأيامُ على بني إسرائيلَ من بعد سيدنا موسى ﵇ فنسوا حظّاً ممّا ذُكِّروا به وضلُّوا سواءَ السبيلِ فسلَّطَ اللهُ عليهم "بختنصر"، وكان طاغيةً جبَّاراً فسامهمْ سوء العذابِ وأذاقهم ألوانَ المذلةِ والهوان وكانوا آلافاً مؤلّفةً فشرَّدهم في الآفاق. قال تعالى مُشيراً إلى هذه الواقعة: ﴿ **۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾** ﴾[1].

والذي نفهمهُ من كلمةِ (**فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ**) أي: أن الله تعالى أذهبَ شأنهمُ العالي وما كان لهم من عزٍّ ومكانةٍ فلمَّا أصابهم ما أصابهم ثابوا إلى رُشدهم وعادوا إلى سابق سيرتهم العاليةِ وهنالكَ أحياهمُ اللهُ أي أعادَ لهمْ تعالى سالفَ عزّهم ومكانتهم واللهُ تعالى لا يغيِّرُ ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم وهكذا فاللهُ تعالى يسلِّطُ الكافرَ الجاحدَ على المؤمنِ العاصي تنبيهاً لهذا المؤمنِ وتحذيراً له من سيره المنحرفِ فلعلّهُ إذا أصابتْهُ الكُروبُ وأحاطتْ به الشدائدُ يتوبُ ويؤوبُ، فإذا هو تابَ إلى بارئه وأقلعَ عن ضلاله وعاد إلى طاعته لربه وعالي سيرته ساقه تعالى على ذلك الظالمِ وأمرهُ بمحاربته ردّاً لهذا الظالم الكافر عمَّا هو فيه من بغيٍ وكفرٍ وضلالٍ وردّاً له إلى طريقِ ا لهدايةِ والإيمان فتسليطهُ تعالى الكافرَ على المؤمنِ العاصي فضلٌ منه تعالى ومنَّةٌ، وسوقُهُ هذا المؤمنَ بعد توبته ورجوعه على ذلك الظالمِ أيضاً فضلٌ منه تعالى ومنّة. وذلك ما أشارت إليه الآيةُ الكريمةُ التي أوردناها آنفاً في قوله تعالى: ﴿ **..إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾** ﴾.

---

[1] سورة البقرة: الآية (243).

وبعد أن قدَّمنا هذه المقدمةَ عمَّا أصابَ بني إسرائيل بعد سيدنا موسى عليه السلام بصورةٍ موجزةٍ نفصِّلُ الكيفيةَ التي أحيا الله تعالى بها بني إسرائيل فنقول:

لَمَّا أصابَ بني إسرائيل ما أصابهم من التشتتِ في الآفاق وإخراجهم من ديارهم وأبنائهم ثابوا إلى رُشدهم ورَجَعوا إلى طاعة ربِّهم فجاءوا لنبيٍّ لهم وطلبوا منه أن يبعثَ لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله.

وذلك ما أشارت إليه الآيةُ الكريمة في قوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٢٤٦** ﴾[1]. وأنت ترى من خلال هذه الآيةِ أن بني إسرائيل لَمَّا كُتبَ عليهمُ القتالُ تولّوا إلاَّ قليلاً منهم.

فمن هم أولئكَ القليلُ الذين لم يتولّوا؟.

أقول: أولئك هم الذين آمنوا بربهم إيماناً منبعثاً عن نظرٍ في الكونِ وتأملٍ فيه، فأوصلهم إيمانهم هذا إلى تعظيمِ نبيِّهم والارتباطِ به والإقبال بمعيَّته على الله. وهنالك اشتقَّتْ نفوسُهمْ من ربِّها نوراً رأتْ به أنَّ السعادةَ والخيرَ كلَّهُ في طاعةِ الله والاستسلامِ لأمره فساروا إلى القتالِ راضينَ مطمئنينَ.

أمَّا الذين اعتقدوا بالله اعتقاداً مبنياً على السَّمْعِ ولم يؤمنوا بربهم إيماناً منبعثاً عن نظرٍ وتأملٍ في الكون لَمَّا كُتِبَ عليهمُ القتالُ تولّوا ولم تطمئنَ نفوسُهم إليه.

وقد استجاب اللهُ دعوةَ ذلك النبي إذ بعثَ لبني إسرائيلَ رجلاً منهم وجعله بآن واحدٍ ملكاً يقودهم في حروبهم ليخلِّصَهم من عدوِّهم ورسولاً يرشدُهم إلى طريق سعادتهم ويعودُ بهم إلى سبيل خالقهم، وهذا الملكُ والرسول هو سيدُنا داود عليه السلام

[1] سورة البقرة: الآية (246).

قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿ **وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا..**﴾. وقد سمَّت الآيةُ الكريمةُ سيدنا داود عليه السلام "بطالوت" بياناً لذلك الوصْفِ الذي اتصفَ به سيدنا داود من الصَّولةِ والطوْل الذي سيكونُ على عدوِّه. وحيثُ إنَّ سيدنا داود عليه السلام لم يكن معدوداً في بني إسرائيل من ذوي المال الوفيرِ ولا الجاهِ العريض وإنَّما كان رجلاً كغيره من الناس بحسَبِ الصورة، لذلك لم تنظرْ إليه تلك الطائفةُ الأخيرةُ التي لم تتوصَّل إلى التقوى نظرةَ التعظيم والإجلال بل أجابوا نبيّهم بما أشارت إليه الآيةُ الكريمةُ في قوله تعالى: ﴿.. **قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ..**﴾ لقد نظروا لثروته القليلة فلم يقدِّروه، ولم يعظِّموه ولو أنهم فكَّروا من قبل وآمنوا بربِّهم وأقبلوا بنفوسهم على خالقهم لرأوا كمال رسولهم فقدَّروه وعظَّموه.

وهكذا لا يعرفُ الفضلَ إلاَّ ذووه.. فمن استغرقت نفسه بمحبَّة الدنيا وأعرض عن خالقه تجدُه يجهلُ أهلَ الكمالِ ولا يعظِّمُ إلاَّ أهلَ الدنيا ولا يفتتنُ إلاَّ بهم.

ومَن أقبلَ على خالقه واصطبغتْ نفسُه بصِبغة الكمالِ تجدُه لا يقدِّرُ إلاَّ أهلَ الكمالِ ولا يُعجَبُ ويُفتتن إلاَّ بهم.

ثم إن نبيَّهُم خاطبهم بما أشارت إليه الآيةُ الكريمة في قوله تعالى: ﴿**..قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾**﴾[1].

وأنت ترى بحسَب ما وردَ في هذه الآيةِ الكريمة أن العطاءَ الإلٰهيَّ ليس مقصوراً على طبقةٍ معيَّنةٍ من النَّاس ولا يُشْترطُ في الوصولِ إليه أن يكون الإنسانُ غنياً أو ذا جاهٍ وسلطانٍ وإنَّما ينالُ عطاءَ الله تعالى كلُّ من شاءَ من الخلْقِ. فإذا أعدَّ الإنسانُ

(1) سورة البقرة: الآية (247).

نفسه لهذا العطاءِ الإعدادَ الصحيحَ وسلك السبيلَ الموصلةَ إليه تفضَّلَ عليه ربُّه وأعطاهُ ذلك، لأن الخلْق جميعاً خلْقه تعالى لا فرقَ ولا ميزةَ بين إنسانٍ وإنسان، ولا فضلَ لعربيٍ على أعجميٍ ولا أبيضَ على أسودَ إلاَّ بالتقوى، وعطاؤه تعالى واسعٌ يسعُ الخلْق جميعاً. وهو تعالى حكيمٌ يعطي كُلاًّ بحسَب ما يراه فيه من صدْقٍ وإخلاصٍ. فكلُّ من يشاءُ من الناس فاللهُ يعطيهِ بمقدار صِدْقهِ.

ثمَّ إن سيدنا داود عليه السلام لَمَّا سار بالجنود للقاء العدو أخبرَ من معه أن اللهَ تعالى مبتليهِم بِنَهَرٍ وطلبَ منهم أن لا يشربوا منه، أمَّا مَنِ اضْطَرَّهُ العطشُ واشتدَّ عليه فعليه ألاَّ يشرب منه إلاَّ غرْفَةً بيدهِ. قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿ **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ..** ﴾ ومن البديهي أن هذا الأمر إنما يعودُ عليهم بالفائدة، فإنَّ الإنسانَ إذا اشتدَّ عليه الحرُّ وكان عطشاناً عطشاً شديداً وشرب كثيراً سبَّب له ذلك أذىً وضرراً في جسمه، وهكذا فكلُّ ما ينهى اللهُ تعالى الإنسانَ عنه إنما هو لوقايته وحفظه من المهالك. أمّا هؤلاء فبدلاً من أن يُذعِنوا لوصية ربِّهم ساروا على هوى نفوسهم وانقادوا لشهواتهم وشربوا منه إلاَّ قليلاً منهم. قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿.. **فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ..** ﴾.

ولذلك وبهذه المخالفة التي صدرت منهم أعرضت نفوسهم عن خالقها وبَعُدوا عن ربهم بسبب عصيانهم، فما أن رأوا العدو كثيراً في عدده حتى هالهم مشهدُه ووجدوا أنهم لا يستطيعون منازلته ولا طاقة لهم به.

وإلى ذلك تُشير الآيةُ الكريمة في قوله تعالى: ﴿ **..فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ..** ﴾.

أمَّا الذين أقبلت نفوسهم على ربِّها بسبب طاعتهم فإنما وجدوا أن الأمورَ كلَّها بيد الله تعالى وحدَه وأن النصرَ من عنده ولذلك لَمَّا شاهدوا العدو لم يعبؤوا به وطلبوا من الله

تعالى أن يؤيدَهم على عدوهم. وإلى ذلك تُشير الآياتُ الكريمة في قوله تعالى: ﴿..**قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١**﴾[1]. وأنت ترى من خلال هذه الآياتِ أن الأمورَ بيد اللهِ تعالى وحدَه وأنهُ لا مسيّرَ ولا إله إلاّ الله. فإذا رجع المؤمنُ إلى ربه بالطاعة والانقيادِ وطلبَ من الله تعالى النصرَ والتأييدَ نصرَهُ اللهُ وأعانه.

كما ترى أنه تعالى ذو فضلٍ على العالمين يسوقُ الكافرَ على المؤمنِ العاصي ليتوبَ ويرجعَ إلى الحق فإن هو تاب ورجع، ساقهُ على الكافر وأيّدَه عليه ونصرَهُ وجعل الكافرَ تحت رعايةِ المؤمنِ ليهدِيَهُ ويدلّه. فهو تعالى يدفعُ الناس بعضهم ببعض رحمةً بهم وحفظاً لهذا الكون من الفساد وهو يُحمد على كل ما يسوقهُ لعباده وهو تعالى ذو فضلٍ على العالمين.

وقد استتبَّ الأمر لبني إسرائيل وتسنَّم سيدُنا داود عليه السلام منصب المُلكِ وخضعَ له بنو إسرائيل جميعاً كبيرُهم وصغيرُهم. وكيف لا يخضعون له وقد خلَّصَهم من عدوِّهم وأعاد لهم سابقَ عزّهم وسالفَ مجدهم، ورأوا من تأييد الله له ما رأوا حين انقضَّ عليه السلام بذاته يشقُّ صفوف العدو بسيفه، والرعبُ من هيبته يمزّقُ جمعهم كلَّ ممزّق، حتى دنا من مَلِكِ الجيوش العدوّة فتفرَّق شمْل من يحمونه من مرافقيه مولّين الدُّبُرَ، ثم ضربَ ملكهم الجبَّار فقصمهُ وقضى عليه وأراحَ الناس من عظيم بلائه وبغيه وشروره، وسمعوا منه من البيان والحكمةِ بالزبور ما سمعوا. قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله

[1] سورة البقرة: الآية (249ـ251).

الكريم: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾[2].

والمرادُ بكلمة **(ٱلْجِبَالَ):** كبارُ القوم ورؤساؤُهم فإنَّ الجبلَ من كل شيءٍ ما عَظُمَ منه قال تعالى: ﴿..**وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ..**﴾[3] أي: من سُحبٍ عظيمةٍ ويُقالُ فلانٌ جبلُ علمٍ أو ذو علمٍ عظيمٍ، وأمَّا الطيرُ فإنما المرادُ به صغارُ النَّاس وعامّتهم وهكذا فقد خضع لسيدنا داود عليه السلام جميعُ بني إسرائيل وانقادوا له.



(1) سورة سبأ: الآية (10).

(2) سورة صٓ: الآية (17-20).

(3) سورة النور: الآية (43).

الأسئلة

1) اذكر الحكمةَ من تسليط الكافرِ الجاحد على المؤمن العاصي ؟.

2) اشرح وبيِّن لماذا المؤمنُ في ساعة القتالِ لا يهربُ من وجه عدوه بل يبذل روحه رخيصةً في سبيلِ الله تعالى مهما كان عدوهُ كثيرَ العددِ والعُدَّةِ؟.

3) ما سببُ فرارِ أكثرِ بني إسرائيل من المعركةِ التي خرجوا لأجلها أملاً بالجهاد في سبيل الله واسترجاعِ بلادهم من عدوِهِم؟.

4) لماذا سمى تعالى سيدنا داود بطالوت أولاً؟.

5) ما معنى قوله تعالى ﴿..**وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُ**..﴾؟.

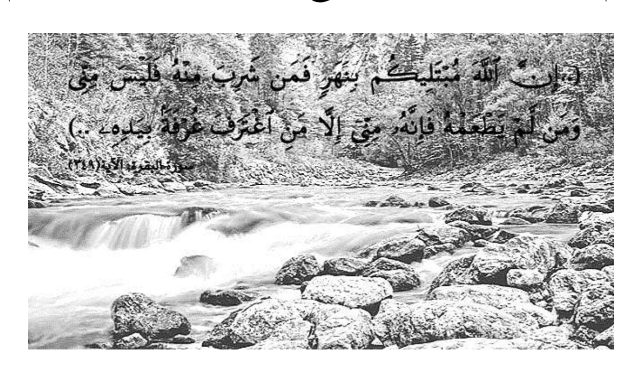
6) ما الحكمةُ بالأمرِ الذي وجَّهه سيدنا داود بعدم شرب الماء من ذلك النهر؟.

7) إلى أين تصل مخالفة أمر الرسول بالنفس الإنسانية؟.

8) اشرح قوله تعالى: ﴿..**وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٥١**﴾

9) كيف قتل سيدنا داود عليه السلام جالوت؟.

10) من هم الجبالُ الذينُ يسبِّحون مع سيدنا داود عليه السلام ومن هم الطيرُ ؟.



الدرس السادس قصةُ الخصمِ

طلابنا الأعزاء: أراد الله تعالى أن يعرِّفنا في قصةٍ جرت مع سيدنا داود عليه السلام هذا الرسول الكريمِ بأنَّ النفس البشريةَ إذا شاهدت الكمالَ الإلٓهيَّ أحبَّته وعشِقَتْهُ وأضحتْ هذه المشاهدةُ أحبّ إليها من كلِّ شيءٍ.

غير أنَّ الانتقال في هذه الوجهةِ من حالٍ إلى حالٍ أعلى وأرفعَ والارتقاءَ في تلك المشاهدةِ إنما يكون بحسب ما يقدِّمُه الإنسانُ من الأعمال التي يبذلها في خدمة الخلْقِ، وإنه لا بدَّ من الجمع بين خدمة الخلْق والإقبالِ على الله تعالى بصورةٍ لا يختلُّ معها توازنُ هاتين الكفّتينِ، فلا تتغلَّب خدمة الخلْق على دوام الوجهةِ إلى الله كما لا تحولُ الوِجْهة إلى الله بين الإنسانِ وبين القيامِ بمصالح الخلْقِ.

وحيث إن سيدنا داود عليه السلام غلب عليه العِشْقُ لربه وجلس مع نفسه يعتكفُ في المحراب منصرفاً إلى شهود ذلك الكمال الإلٓهي، أراد تعالى أن يردَّ هذا الرسولَ إلى كمال الكمال فساقَ له مَلَكين على صورة رجلين، احتكما لديه في قضيةٍ.

وقد أشارت الآية الكريمة إلى ذلك في قوله تعالى:

﴿ **۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ۝٢٢** ﴾. والمراد بكلمة (**تَسَوَّرُواْ**) أي: دخلوا عليه من فوق الجدار، والمحرابُ هو المكانُ الذي جلس فيه سيدنا داود عليه السلام مع نفسه متجهاً إلى ربه ليستطيعَ بما يكتسبَه من المعرفةِ بإقباله على ربه أن يحاربَ الشيطانَ فيردَّ وساوسه التي يُلقيها في صدور الناس.

ثم إن أحد الخصمين شرح القضيةَ بين يدي سيدنا داود فذكر له أنَّ أخاه يملكُ تسعاً وتسعينَ نعجةً أي غنمةً، أمَّا هو فلا يملك سوى نعجةٍ واحدةٍ، وقد طلب منه

أخوه أن يسمح له بضم هذه النعجة إلى قطيعه وأن يجعلها في كفالته، فلمَّا امتنع ولم يوافق أخاه على رأيه شدّد عليه أخوه في القول ووجَّه إليه اللَّومَ على هذا الامتناع.

قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿ **إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلۡخِطَابِ﴿٢٣﴾** ﴾.

ونظراً لبداهة القضية لدى سيدنا داود عليه السلام وحبّاً في العودة إلى الوجهة إلى الله والتمتُّع بذلك الشهود للكمال الإلٓهي الذي أخذ بمجامع قلبه وأصبح هوىً ملازماً لنفسه فقد تسرَّع في الحكم قبل أن يسمع من الخصم الآخر وقال للمدَّعي صاحبِ النعجة ما أشارت إليه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ **قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِى بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۗ**﴾: قال له ذلك القولَ والتفت يريدُ العودةَ إلى الوجهة إلى المحبوب الأعظم مُبدعِ كلِّ جمالٍ وفضلٍ وجلالٍ، وهنالك تكلَّم صاحبُ التسع والتسعين نعجة وبيَّن لسيدنا داود أنه لا يريد أن يشارك أخاهُ في نعجته، إنَّما يريد أن يجعلها تحت كفالته ويرعاها له مع قطيعه وبذلك يكون قد خدمه ووفَّر عليه كثيراً من الجهد والوقت في سبيل نعجةٍ واحدةٍ.

ولَمَّا سمع سيدنا داود عليه السلام مقالة الخصم الثاني ووجدَه مُحقّاً في طلبه أدرك أنه تسرَّع في حكمه الذي أدلى به للخصم الأول.

ثمَّ إنه لَمَّا عرف أن القضية ليست قضيةَ نعجاتٍ وخصومٍ وأن الخصمين مَلكان جاءا إليه بهذه القضية مرسَلَين من قِبلِ الله تعالى ليعرِّفاهُ بأن مقامَ الخلافة إنما يقتضي الجمعَ بين خدمةِ الخلْق والقيامِ بمصالحهم، والإقبالِ على الله والوجهةِ إليه في آنٍ واحدٍ، لا أن ينصرفَ العبدُ إلى الوجهة إلى الله ويتركَ مصالحَ الخلْقِ.

هنالك لَمَّا ظهرت لهذا الرسولِ هذه الحقيقةُ ظنَّ أن اللهَ تعالى إنما أراد بهذه الواقعة أن يبيِّن له عدم صلاحه لمقام الخلافة لتقصيره في تأدية مصالح الخلْق تمامَ التأديةِ

وذلك ما نفهمه من الآيةِ الكريمةِ في قوله تعالى: ﴿ **وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ** ﴾ وفتناهُ أي أظهرنا له عدم صلاحه لهذا المقام، إذ إن الفتنة إنما هي إظهارُ الطويةِ ولذلك: ﴿ **فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ** ﴾ أي: طلب منه الشفاءَ من هذه السهوة. ﴿ **وَخَرَّ رَاكِعًا** ﴾ أي: خاضعاً بنفسه لأمر ربه. ﴿ **وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾** ﴾ أي: رجع إلى الطريق التي يقتضيها مقامُ الخلافة فجلس في قضاء المصالح لا تصرِفُهُ وجْهَته عن خدمة الخلْقِ "ولا خدمةُ الخلْقِ" عن الوجْهة إلى الحقِ. قال تعالى مُشيراً إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿ **فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾** ﴾. ثم إن الله تعالى خاطبه بقوله الكريم: ﴿ **يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ أي: لا يكوننَّ هواكَ في دوامِ مشاهدتي مانعاً لك من قضاء مصالح خلْقي فإن في ذلك حِرماناً لهم من حقوقهم وحرماناً لك من الخير، لأنك إذا وجدت نفسَك مقصِّراً في واجبك انقبضت نفسك عني حياءً من تقصيرها وتحوَّلت عن الوجهة إليَّ خجلاً من عدم قيامها بواجبها. ثم إن الله تعالى تَّمم نصيحته لسيدنا داود عليه السلام بقوله الكريم: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾** ﴾[1] أي: وهذا التحوُّل عن الوجهة إلى الله وهذا الخجلُ من التقصير يجرُّ الإنسانَ إلى نسيان اليوم الآخرِ ويوقِعُهُ في الأعمال المنحطةِ وبذلك يصيبُهُ ما يصيبه من العذابِ.

ذلك درسٌ ألقاهُ اللهُ تعالى علينا في قصة سيدنا داود عليه السلام ليُريَنا تلك المنزلةَ العاليةَ التي ارتقى إليها ذلك الرسول الكريم وليعرِّفنا أن الكمال الإنساني إنما يكون في الجمع بين خدمة الخلْقِ والإقبالِ على الحقِّ لتصبوا نفوسُنا نحو ذلك المقام العالي وتنزعَ إليه.



[1] سورة ص: الآية (21 ـ 26).

الأسئلة

1) ما هو السبيلُ المفروضُ على الإنسان أن يعملَه لكي يرقى من حالٍ إلى حالٍ أعلى ؟.
2) ما معنى كلمة (**ٱلۡمِحۡرَاب**)؟.
3) لماذا تسرَّعَ سيدُنا داود عليه السلام بالحكْمِ؟.
4) اشرح قوله تعالى: ﴿ **وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ** ﴾ وماذا كانت نتيجةُ هذا الظن؟.
5) اشرح قوله تعالى: ﴿ **يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾.



الدرس السابع　قصة سيدنا سليمان عليه السلام

طلابنا الأعزاء: سيدُنا سليمان هو ابنُ سيدِنا داود عليهما الصلاة والسلامُ، قال تعالى ﴿ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ** ﴿٣٠﴾ ﴾[1].

كما كان من قبل سيدُنا إسماعيل مع أبيه سيدنا إبراهيم عليهما السلام.

وبعد انتقال سيدنا داود عليه السلام إلى ربه تسنم سيدنا سليمان عليه السلام مكانه قال تعالى: ﴿ **وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ..** ﴾[2]. ونظراً لما يعود به فِعلُ الخير على صاحبهِ من الشأن العالي والقُرْبِ زلفى من خالقه فقد طلبَ سيدُنا سليمان من الله تعالى مُلكاً عظيماً لا ينبغي لأحدٍ من بعده من الملوك الضالين ليكون ما ينالُه مِن مُلْكٍ عظيمٍ عوناً له على القيام بتأدية رسالة ربه والدعوة إلى سبيل الله على أكمل صورةٍ وأتمِ وجهٍ. قال تعالى مُشيراً إلى مطلَب هذا الرسول الكريم بقوله: ﴿ **قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ** ﴿٣٥﴾ ﴾.

وقد استجابَ اللهُ تعالى دعوةَ هذا الرسولِ الكريم فسخَّر له الريحَ تحملُه من مكانٍ إلى مكانٍ حسبما يَودُّ ويُريدُ. قال تعالى: ﴿ **فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ** ﴿٣٦﴾ ﴾. وسخَّر له تعالى أيضاً الشياطين وجعلهم خاضعين لأمره أيضاً. قال تعالى: ﴿ **وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ** ﴿٣٧﴾ **وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ** ﴿٣٨﴾ ﴾[3].

وكانت الريحُ تنقلُه في برهةِ الصباحِ أي في فترةٍ لا تزيدُ عن ساعةٍ تقريباً مسافةً لو أراد أن يمشيها الإنسانُ على قدميه لاحتاج إلى شهرٍ. قال تعالى: ﴿ **وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ** ﴾. وقد أجرى له تعالى النحاسَ ذائباً يستعين به على صنع الأدوات والأسلحة اللازمة قال تعالى: ﴿ **وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ** ﴾. **والقِطْر**: النُّحاسُ الذائبُ.

---

(1) سورة صٓ: الآية (30).　(2) سورة النمل: الآية(16).

(3) سورة صٓ: الآية (35 ـ 38).

وقد سخَّر تعالى لسيدنا سليمانَ الجنَّ أيضاً يستعينُ بهم في صنعِ الأسلحة وبناءِ الأبنيةِ، وصُنْعِ القدور الكبيرةِ لطعام الجنْدِ. قال تعالى: ﴿ **وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣** ﴾[1].

والمرادُ **بالـ(مَّحَٰرِيبَ)**: الآلاتُ التي يستعملها في محاربة عدوّه. **والتماثيل:** هي الآلاتُ المماثلة لما يستعمله العدو. **والجفان:** هي الأواني الكبيرةُ يوضعُ بها طعامُ الجندِ. و **(وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ):** هي الأواني العظيمةُ الراسيةُ يطبخ فيها طعامهم وهكذا فما من مطلبٍ طلبه هذا الرسول الكريم مما فيه معونة على نشر الحق إلاَّ وأعطاه اللهُ إياهُ.

وقد ذكر لنا تعالى ما ذكره لِيُشجِّعنا على أن نطلُبَ من فضله العظيم ويرينا أن المؤمنَ إنَّما يطلبُ الدنيا لتكونَ سبباً ووسيلةً له إلى اكتسابِ رضاء الله، ونفسُه تطلبُ ما تطلبه لا لشهوةٍ دنيويةٍ وإنَّما لتتوصَّلَ إلى أعظمِ قدْرٍ ممكنٍ من فعل الخيرِ، والإنسانُ الحقُّ هو الذي يجعلُ دنياهُ مطيةً لآخرته ووسيلةً إلى فعل المعروفِ، قال تعالى مُشيراً إلى هذه الناحية: ﴿ **وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ..** ﴾[2].

ولعلك تقولُ: لماذا طلبَ سيدنا سليمان عليه السلام من الله تعالى أن يهبَ له مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده وخصَّص نفسه بذلك من دون سائر الناس؟.

فأقول: لقد كان الزمنُ على عهد سيدنا سليمان عليه السلام زمناً يتبارى فيه الملوكُ بما أوتوه من مُلْكٍ وسلطانٍ ولذلك ومخافةَ أن ينالَ المُلْكَ رجلٌ مبطلٌ يضلُّ الناسَ عن الحق ويفتنهم، طلب هذا الرسول الكريم من الله تعالى أن يخصّهُ بذلك المُلْكِ العظيمِ ولا يهبهُ لأحدٍ من بعده.

---

(1) سورة سبأ: الآية (12ـ 13).

(2) سورة القصص: الآية (77).

وهكذا فمطلبُ الرُّسلِ الكرام دوماً ومطلبُ كل مؤمنٍ تابعٍ لهم بإحسانٍ إنَّما هو لخير النَّاس ومصلحتهم.

ويكون ما نفهمه من كلمة ﴿..**لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ**..﴾ أي: لا ينبغي لأحد من الملوك المضلِّين.

ولعلَّك تقول أيضاً: مادام سيدنا سليمان عليه السلام قد طلب ذلك المطلب لغايةٍ ساميةٍ فلماذا لا يطلبُ سيدنا محمد ﷺ ما طلبه سيدنا سليمان؟.

فأقول: لقد تغيَّر الأمرُ بعد سيدنا سليمان عليه السلام وأصبح الزمنُ على عهد سيدنا محمد ﷺ زمناً يتبارى فيه البلغاء ويتنافسُ العظماءُ ولم يبقَ للملْكِ والسلطان تلك القيمةُ التي كانت لها من قبْلُ، فبيت شِعرٍ بنظر العرب إذ ذاك أثمنُ لديهم من قصور كسرى وقيصَر؛ ولذلك لم يعد لهذا المطلب ذلك الشأنُ وتلك المكانةُ السابقةُ.

وكانت المعجزةُ الخالدةُ لسيدنا محمد ﷺ ذلك القرآن وما فيه من البيان العالي الذي تحدّى به الله تعالى الناس جميعاً في كلِّ عصرٍ من العصور وبيَّن عجزهم عن الإتيان بمثله مهما تقدَّمَ الزمانُ وطال. فقال تعالى: ﴿ **أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣** ﴾[1].

﴿ **قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨** ﴾[2].

ونعودُ الآنَ إلى القصةِ التي نحن بصددها فنقول: إن أبرز ما في قصة سيدنا سليمان عليه السلام وإن شئت فقل الدرسُ الذي يريدُ اللهُ تعالى أن يلقيه علينا والعبرةُ التي يريدُ أن يسوقَها لنا إنَّما تتناولُ النُّقاطَ الثلاثَ الآتيةَ:

---

(1) سورة هود: الآية (13).

(2) سورة الإسراء: الآية (88).

• أن يكون المؤمنُ رفيقاً بالحيوان فلا يُحمِّله فوق طاقته حتى ولو كانت غاية المؤمن من عمله نشرَ الحقِ والجهادَ في سبيل الله إذِ الخلْق جميعاً مخلوقاتُه تعالى ويجبُ أن يعطي كلَّ ذي حقٍّ حقه.

• أمَّا النقطةُ الثانيةُ فإنما هي ناتجةٌ ومتولِّدةٌ عن النقطةِ الأولى فإذا كان من المفروض على الإنسان أن يرفقَ بالحيوان الأعجمي فمن الأولى الرفقُ بالإنسان وإعطاؤه حقّه وعدمُ تكليفه بما لا يطيق.

• إنَّ تقصير الإنسان فيما يترتب عليه من واجباتٍ تجاهَ الآخرين يُشْعِرُ النفسَ بتقصيرها بين يدي ربِّها فتنقبضُ خجلاً وتُغضي حياءً منه تعالى وبذلك ينقطعُ عنها ذلك الإمدادُ الذي كان يتواردُ عليها من ربِّها وبالتالي يُحجَبُ عنها عِلْمُها.

والآن وبعد أن أشرنا إلى هذه النقاط الثلاثِ، نوردُ لك ما حدث لسيدنا سليمان عليه السلام، وما ذكره لنا تعالى بهذا الصددِ في كتابه الكريمِ ليكون لنا منه موعظةً وذكرى فنقول:

إنَّ سيدَنا سليمان عليه السلام بقربه الشديد من خالقه وبصلةِ نفسه الدائمةِ بربِّه اشتقَّ منه تعالى الرحمةَ بالخلقِ فأُولِعَ بالجهادِ في سبيل الله لردِّ الخلْق إلى الحقِّ وإنقاذهم مما هم فيه من الضلال وتوصُّلاً لهذه الغايةِ السامية أخذ سيدنا سليمان يُجري الخيل ويضمِّرها ويمرِّسها على الكرِّ والفر استعداداً للجهاد وما زال منصرفاً لعمله هذا وقد صرفته غايته الساميةُ عن كل شيءٍ حتى أقبلَ الليلُ، وإنه لَمّا أتى بها في العشي وجدها منهوكةَ القوى من كثرةِ الجري، ثابَ إلى نفسه وعرف أنه إنما تجاوزَ في حبِّ الخير الحدَّ اللازمَ وزادَ عمّا ذكَّرهُ به ربُّهُ من إعطاء كلِّ مخلوقٍ حقَّهُ فقد أتعبَ الحيوانَ وكلَّفه بأكثرَ مَّما يطيقهُ وإلى ذلك أشارت الآيةُ الكريمةُ في قوله تعالى: ﴿ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴿٣٢﴾** ﴾.

ويكون ما نفهمه من كلمة ﴿ **إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾** ﴾ أي: أتى بالخيل من جريها في الظلام وقت العشي.

أمَّا ما نفهمه من كلمة ﴿ **فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي** ﴾ أي: أني تجاوزتُ في حبِّي لعمل الخير الحدَّ وزدتُ عما ذكَّرني به ربِّي من إعطاء كلّ مخلوقٍ حقّه وعدم تكليفه بأكثر مما يطيقُ.

وأمَّا قوله ﴿ **حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾** ﴾: نفسهُ الشريفة فاحتجب عنها عِلْمها إغضاءً وحياءً من حضرة المولى الرحيم بسبب إتعابها الخيلَ.

ثمَّ إنَّ سيدنا سليمان أمر رجاله بأن يردُّوا عليه الخيل وجعل يمسحُ لها سوقها وأعناقها ليجفِّف لها عرقها، إذ من المألوف عند الفرسان وساسة الخيْل أنهم يمسحون أعناقَ الخيل وسوقها ويجفِّفون عرقَها المتصبِّبَ منها بعد جريها ترويحاً لها وعنايةً بها. وإلى هذه الناحية أشارت الآيةُ الكريمةُ: ﴿ **رُدُّوهَا عَلَيَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾** ﴾. ثم إن سيدنا سليمان عليه السلام لَّما شاهد أنه حمَّل الخيلَ أكثرَ مما تُطيقُ ولما وجدَ أنه بعمله هذا قصَّر في حقِّها بعض التقصير خجلَ من عمله ووقف خجلُهُ هذا حجاباً بينه وبين خالقه، وبما أنَّ العلمَ الصحيحَ وشهودَ الحقائقِ يكون بنور الله وحيث إنَّ خجلَ سيدنا سليمان وقف حجاباً بينه وبين ربه لذلك احتجبَ عنه ذلك العِلْمُ حيناً وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾** ﴾. وحيث إنَّ الفتنةَ هي خروجُ ما كَمَنَ في النفس لذلك يكون ما نفهمه من قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ** ﴾ أي: أخرجنا ما كَمَنَ في نفس سليمان من حبِّ الخير، وأظهرنا للعيان ما شغف به قلبُ هذا الرسولِ من التفاني في خدمة الخلْقِ. أمَّا كلمةُ ﴿ **وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا** ﴾ أي: سترنا عليه عِلْمَهُ لأنَّ من معاني الكرسي في اللغةِ: العلمَ والمشاهدةَ. ويثبت لك

هذا المعنى قوله تعالى: ﴿..وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ..﴾[1] أي: أحاط علمهُ تعالى بما تحتاجُ أن تقومَ به السمواتُ والأرضُ. وإذاً فكلُّ ما يقعُ عليه نظرُ نفسِكَ من الحقائقِ إنَّما هو كرسيٌ لهذه النفسِ أمّا الجسَدُ فهو كلُّ ما حلَّ في مكانه وأخذ موضِعاً له فيه، وبسبب الخجل الذي حلَّ في نفس سيدنا سليمان ﷺ أصبح مستقراً فيها وساتراً لعلمه.

أقول: وهذه المعاني إنَّما هي حقائقُ نفسيةٌ يؤيدها شعورُ الإنسان النفسي فمن طبيعةِ النفسِ أن تُغضي حياءً عند شعورِها بالتقصير وأن يصبحَ خَجَلُهَا سِتراً بينها وبين زيدٍ من النَاس إذا هي قصَّرت في حقِّهِ وذلك الحالُ ذاته إنَّما يقعُ في نفس المؤمنِ إذا آنس من نفسه تقصيراً في جنْبِ الله فيتوقفُ انطلاقُ نفسه عن العروجِ في صلاته من حالٍ إلى حالٍ أعلى وأرقى وأبقى، فيتوقفُ عن انطلاقه النفسي في بُحورِ أسماءِ الله العُلى، إذ الصَّلاةُ معراجُ المؤمنِ، وهذا أمرٌ معروفٌ عند كلِّ مؤمنٍ بالبداهةِ فلا يحتاجُ إلى زيادةٍ في الشرح والتوضيح. ذلك هو ما وقعَ في نفس سيدنا سليمان ﷺ، وما أن آنسَ في نفسه توقُّفَ الحالِ عندَ مشاهدةٍ عليَّةٍ واحدةٍ ولم تعرُجْ نفسُه في العلوم الربانيةِ تصاعدياً أسمى حتى رجعَ إلى ربِّه معترفاً. وذلك ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾. وهكذا فالمؤمنُ سرعانَ ما يؤوبُ إلى ربه وينيبُ.

ثم إن سيدنا سليمان ﷺ طلب من الله تعالى أن يجعله دوماً قائماً في حقوق الخلق جميعاً فلا يعودُ بعد يومه هذا يقصِّر في حقِّ مخلوقٍ من المخلوقات. قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى ﴾ أي: اشفني وارفَعْ من نفسي هذا الحال الذي وقع مني فلا أعودَ أقصِّر في حقِّ مخلوقٍ حبّاً بمخلوقٍ آخر ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾[2].

---

(1) سورة البقرة: الآية (255).

(2) سورة ص: الآية (30 ـ 35).

وتلك هي مراحلُ تدرَّجَ فيها سيدنا سليمان عليه السلام في طريق الكمالِ فمن كمالٍ إلى أكملَ ومن حالٍ إلى حالٍ أرقى وأرفعَ وتلك هي عظاتٌ بالغةٌ تتجلَّى فيها للإنسانِ العدالةُ الإلٓهيةُ بأجلى مظاهرها ليعلمَ المؤمنُ أن الله تعالى حَكمٌ عدلٌ وأن الخلْق جميعاً عبادُه.

فمن أراد أن يظلَّ قريباً دوماً من خالقه فلا يقصِّرْ في حق مخلوقٍ من المخلوقات مهما كانت الغايةُ عاليةً ومهما كان القصدُ شريفاً سامياً قال تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾** ﴾[1].



[1] سورة العنكبوت: الآية (43).

الأسئلة

1) لماذا طلب سيدنا سليمان عليه السلام مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده ؟.

2) اشرح الآيةَ الكريمةَ واكتبْ معانيَ الكلمات التي تحتها خط : ﴿ **وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾** ﴾.

3) لماذا لم يطلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الملك كما طلبه من قبله سيدنا سليمان عليه السلام ؟.

4) كيف تعاملَ سيدُنا سليمان عليه السلام مع الخيل بعد أن أتعبها بالجري أثناء التدريبِ؟.

5) ما هو معنى كلمةِ الكرسي؟.

رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ

سورة ص: الآية(٣٥)

الدرس الثامن ملكةُ سبأ

طلابنا الأعزاء: تكلمنا بدرسنا السابقِ عن سيدنا سليمان وشغفه الكبيرِ بالمسارعةِ بأعمالِ الخيرِ والبِّرِ، أعمالِ التقوى والصلاحِ ، وسنتكلمُ بهذا الدرس عن قصته عليه السلام مع الملكةِ بلقيس. هذه القصةُ التي تبيِّنُ لنا بجلاءٍ أن هذا الرسولَ عليه السلام لم يطلب ما طلبه من الملك العظيم حبّاً بالدنيا وزينتها ولا رغبةً في عزِّها وسلطانها كما علمنا بالدرس السابق إنَّما طلب الملك حبّاً في فعل المعروفِ وعمل الخير لينالَ رضاء الله تعالى في تعريفِ خلْقه به وليتقرَّب زلفى إلى ربِّه بردِّ عباده إلى طريق الحق وهدايتهم إلى الصراط المستقيمِ. وهذا ما يتضحُ بهذه القصةِ العظيمةِ.

وتفصيلاً لهذه الناحية لا بدَّ لنا من أن نذكُرَ الآياتِ الكريمةِ الواردةِ بهذا الخصوص والتي جاءت بها سورةُ النملِ متكلِّمةً عن هذا الرسول الكريمِ في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ**

بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[1].

ولما أُلقيَ الكتابُ إلى تلك الملكةِ وتبيَّنتْ ما فيه جمعت ملأها وعرَّفتهم بالأمر. قال تعالى: ﴿ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

فلمَّا رجعَ المرسَلُ: وبيَّن لها وضعَ سيدنا سليمان عليه السلام تجاه هديتها وذكر لها مقالته أزمعت على أن تأتيَ إليه بذاتها وقد عرَّفته بحضورها ولمَّا بلغ سيدنا سليمان أنها قادمة إليه التفت إلى من حوله طالباً منهم أن يأتوه بعرشها. ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ

(1) سورة النمل: الآية (15ـ 28).

هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴿٤٠﴾ ﴾[1].

وأنت ترى من هاتين الآيتين الأخيرتين كيف أنَّ العفريتَ والمرادُ به الكافرُ المعفَّرةُ نفسه ببعدها عن ربِّها عرض على سيدنا سليمان عليه السلام أن يأتيه بالعرش قبل أن يقوم من مقامه وكيف أن المؤمن الذي عنده عِلمٌ من الكتابِ استطاع أن يأتيه به من اليمن بمدَّة لا تزيد عن لمح البصر.

إن هذه النقطة تبيِّن لنا أنَّ المؤمنَ مهما كان نوعهُ يتفوَّقُ على الكافر وهو دوماً أشدُّ قوةً وأعظمُ علماً ومعرفةً، إذ المؤمنُ في كلِّ أمرٍ رأسٌ، بل وفوق كلِّ كافرٍ.

ولما رأى سيدنا سليمان عليه السلام العرش مستقراً عنده شكر الله تعالى على هذه النعمة كما رأينا من قبل في الآية.

ثمَّ إنَّه أراد أن يمتحنَ ذكاءَ هذه الملكةِ ويسبرَ غورَ تفكيرها لأن المفكِّر صافي الذهن يستطيعُ أن يتبيَّنَ الحقَّ ومن المأمول منه أن يذعن للحقِ ويرضخَ إليه أمَّا الخاملُ الفكرِ البليدِ الذهنِ فأمرهُ مشكلٌ ودلالته عسيرةٌ ومع ذلك فهو إذا رأى الحقَّ لا يستطيعُ أن يقطعَ في هذا السبيلِ مسافاتٍ واسعةٍ لصغر دائرته وضيقِ مجالِ تفكيره ولذلك أمر سيدنا سليمان عليه السلام بأن يغيِّروا لها عرشَها بعض التغيير، قال تعالى: ﴿ **قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرۡشَهَا نَنظُرۡ أَتَهۡتَدِيٓ أَمۡ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتۡ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ هُوَۚ وَأُوتِينَا ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهَا وَكُنَّا مُسۡلِمِينَ ﴿٤٢﴾** ﴾[2].

هنالك طمع سيدنا سليمان في هدايتها فأمرَها بأن تدخلَ الصَّرْحَ، والصرحُ: موضعٌ أرضهُ من زجاجٍ متقنُ الصنعةِ، شفَّافٌ يشفُّ حتى يصفَ ما وراءَه ولشدةِ نقائه وصفائه لا تراهُ، بل تلمسه لمساً. وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة: ﴿ **قِيلَ لَهَا**

---

(1) سورة النمل: الآية (29 ـ 40).

(2) سورة النمل: الآية (41 ـ 42).

﴿ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَ﴾. أمَّا هي فلما رأت الصَّرحَ ونظرت إلى أرضه حسبتها لشدَّة صفائها ودقَّةِ صُنعها ماءً وكشفت عن ساقيها لئلا تبتل ثيابها، قال تعالى: **﴿..فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةً وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ﴾**.

وفي هذه اللحظة استعظمت هذه الملكةُ التي أوتيت من كل شيءٍ ما أوتيَهُ سيدنا سليمان عليه السلام من الملك العظيمِ واستصغرت مُلْكها واحتقرت نفسها بجانبه، ونظرت إلى سيدنا سليمان نظرةَ إكبارٍ وإجلالٍ وهنالك وبهذه النظرةِ وبهذا التعظيمِ وإن شئت فقل بإقبال نفسها على نفس هذا الرسول العالية شهدت الحقَّ وعاينته فكانت نفسُه لنفسها سراجاً مُنيراً رأت به عظمة خالقها وكمالات ربها فاستسلمت لربها طائعةً مذعنةً، وإلى ذلك تُشير الآية الكريمة: **﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾**[1]. ومن هنا يتبيَّن لنا أن سيدنا سليمان عليه السلام لم يطلب ذلك المُلْكَ العظيمَ إلاَّ ليكونَ وسيلةً له إلى فعل الخيرِ وردِّ الخلْق إلى الحقِ؛ إلى ينبوعِ كل خيرٍ وجمالٍ وجلالٍ جلَّ جلاله وتشاهقت عظمته وتسامت لنا محبته تعالى. كما يتبيَّن لنا أن رؤيةَ الحقِّ وبلوغَ منازلِ الإيمانِ الصحيحِ لا تكونُ إلاَّ بتعظيمِ أهل الحقِ وإكبارهم وقد أشار تعالى إلى هذا المبدأ الثابت في قصة سيدنا موسى عليه السلام مع السَّحرةِ وفي مواقعَ أخرى وصرَّح به في حقِّ سيدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: **﴿..فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾**[2].

وآخر ما سنتعرَّضُ إليه في هذا الدرس أمرُ موته عليه السلام فقد ذكر لنا تعالى في مَعرِض الكلام عن هذا الرسول الكريمِ ما يُشير إلى بقاء أجسادِ الأنبياء بعد وفاتهم وعدم فنائهم في قبورهم، وتفصيل ذلك أنَّ سيدنا سليمان عليه السلام لَمَّا جاءه الموت كان جالساً مُطرِقاً

---

(1) سورة النمل: الآية (44).

(2) سورة الأعراف: الآية (157).

برأسه متكئاً على منسأته "أي عصاهُ".. فلمَّا قُبِضَ "أي مات" ظلَّ على هذا الحالِ حيناً، وكان قد كلَّف الجنَّ أن يقوموا بأعمالٍ فاستمروا ينجزونها وهم لا يدرون بموته.

وقد مضى على هذا الرسول حينٌ من الدَّهرِ وهو على هيئةِ الجالس يحسَبُه الرائي نائماً أو مُطْرِقاً مفكِّراً ولهيبته في القلوب ما كان يجرؤ أحدٌ على إيقاظه فلما تقادمَ الزَّمنُ عليه جعلت دابةُ الأرض تأكلُ عصاهُ إلى أن أصبحت ضعيفةً واهيةً لا تقوى على حملِ جسده الشريفِ هنالك خرَّ عليه السلام على الأرض وظهرَ أمرُ موته وتُشير إلى ذلك الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ..** ﴾. وبهذه الواقعةِ ظهرت حقيقةُ الجنِّ للناس فتبيَّن أنهم لا يعلمون الغيبَ، ولو أنهم يعلمون الغيبَ لما لبثوا يقومون بما كلَّفهم به سيدنا سليمان عليه السلام من الأعمال الشاقَّةِ رجاءَ أن يثوبوا إلى رشدهم وينقادوا إليه فيهتدوا بهديه ويسيروا في طريق الحق. قال تعالى: ﴿ **..فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ** ﴿١٤﴾ ﴾[1].

ويكون ما نفهمه من كلمة (**تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ**) أي: ظهرَ أمرُ الجنِ وانكشفتْ حقيقةُ هذا النوعِ من المخلوقات للناسِ فعرفوا أن الجنَّ لا يعلمونَ الغيبَ وأنهم كغيرهم من المخلوقات وبهذا يُريدُ تعالى أن ينبِّهنا إلى عدم الاعتزاز بقولِ السَّحَرةِ والمنجِّمينَ الذين يدَّعونَ معرفةَ الغيبِ بواسطة الجن، وهكذا فلا الجنُّ ولا الإنسُ يعلمون الغيبَ حتى ولا الأنبياءُ والمرسلون. قال تعالى: ﴿ **قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ..** ﴾[2].

وقد أمر تعالى رسوله الكريم أن يعلن هذه الحقيقة للناس فقال تعالى: ﴿ **قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴿١٨٨﴾ ﴾[3].

---

(1) سورة سبأ: الآية (14).
(2) سورة النمل: الآية (65).
(3) سورة الأعراف: الآية (188).

الأسئلة

1) بماذا شُغِفَ قلبُ سيدنا سليمان عليه السلام؟.

2) ما هو معنى كلمةِ عفريت؟.

3) متى استعظمتِ السيدةُ بلقيس رسولَ الله عليه السلام وآمنت بالله تعالى؟.

4) اشرح قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾** ﴾.



الدرس التاسع قصةُ سيدِنا زكريا ويحيى عليهما السلامُ

طلابنا الأعزاء: إنَّ علماءَ بني إسرائيلَ لّما اقترعوا أن يُلقوا أقلامهم أيُّهم يكفُلُ مريمَ جعلَ الله تعالى القُرعةَ تقع على سيدنا زكريا عليه السلام وكفَّله تعالى تلك البنتَ الصغيرةَ الناشئةَ على عبادة ربها، ولو أنَّ أولئك العلماء عرفوا مقام سيدنا زكريا في النُّبوةِ وعظيمَ معرفته بالله تعالى لما تجرَّأ أحدٌ منهم على أن ينازعه في أمر تربيتها لكنَّ اللهَ تعالى، وهو العليمُ بحالِ كلِّ إنسانٍ يجعلُ الصَّادقَ كفيلاً على الصَّادقِ ويولي الأخيارَ على الأخيارِ، إليه يرجعُ الأمرُ كله وهو يتولى الصالحين.

فالله تعالى فتحَ على سيدتنا مريمَ فتحاً عظيماً وكان سيدُنا زكريا عليه السلام كلما دخلَ عليها المحرابَ وجدَ عندها من العِلمِ والمعرفةِ بالله رزقاً جديداً فكان يَعجَبُ مما يسمعه منها ويسألُها يا مريمُ أنَّى لك هذا فتقولُ هو من عند اللهِ إنَّ اللهَ يرزقُ من يشاءُ بغير حسابٍ. هنالك لّما رأى سيدُنا زكريا ما في الولدِ الصالحِ من الخير وحيثُ أنه خافَ على أتباعه من بعد موته أن ينحرفوا عن طريق الحقِ ويضلوا سواء السبيلِ لذلك طلبَ من الله تعالى أن يهبَهُ من لدنه ولياً أي ولداً صالحاً موالياً له يرثه في مقامِ الدلالةِ على الله ويرثُ النبوَّةَ السارية في آل يعقوب، فيقوم مقام المرشد لأولئك الأتباع.

وكذلك أهلُ الإيمان والمعرفةِ إنَّما يطلبون الولدَ لمثل هذه الغايةِ السامية قال تعالى مُشيراً إلى قصة سيدنا زكريا عليه السلام في مطلبه هذا بقوله الكريم: ﴿**..كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨**﴾[1].

(1) سورة آل عمران: الآية (37 ـ 38).

وقال تعالى في مَطْلَعِ سورةِ مريم: ﴿ كٓهيعٓصٓ ۝١ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ ﴾[1]. وقد سمعَ اللهُ تعالى ذلك النداءَ الخفي الصادرَ من تلك النفسِ المؤمنة بربِّها واستجابَ تلك الدعوةَ المنبعثةَ من قلبٍ مؤمنٍ موقنٍ بأن الله تعالى لا بدَّ مجيبٌ دعاءَه فليس على الله بعزيزٍ أن يهبَه ولداً ولو أن امرأته كانت عاقراً ولو أنه قد اشتعلَ رأسُه شيباً وبلغ من الكِبَرِ عتياً، ولذلك أرسلَ الله الملائكةَ تُبشِّرهُ بيحيى وأشار تعالى إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩ ﴾[2]. كما أشارَ تعالى إلى ذلك في موضعٍ آخرَ من القرآن الكريمِ فقال سبحانه: ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ ﴾[3].

وقد سأل سيدنا زكريا ربه بقوله: ﴿.. رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ ﴾ لا سؤالَ المستعجبِ المستغرب فإن الأنبياءَ الذين عرفوا عظمةَ الله تعالى وقدرتَهُ على كلِّ شيءٍ، لا يستبعدون على الله شيئاً، بل إنما كان سؤالُه كسؤالِ سيدنا ابراهيم عليه السلام لَمَّا قال: ﴿..رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى..﴾ أي: بلى يا ربّ آمنتُ بذلك إيماناً غيبياً غير أني أُريد بسؤالي هذا أن ترِيَني الكيفيةَ التي يكونُ بها الإحياءُ

---

[1] سورة مريم: الآية(1ـ6).
[2] سورة آل عمران: الآية (39).
[3] سورة مريم: الآية (7ـ8).

فيكونُ إيماني بهذا إيماناً شهودياً هنالك أجابه الله تعالى بما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله عزَّ وجل: ﴿.. قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٦٠﴾[1].

وهكذا فقد طلبَ سيدنا زكريا من ربِّه أن يعرِّفه بالكيفيةِ أي الطريقِ التي سيكون بها الولدُ فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ﴾ أي: أريدُ بسؤالي هذا أن أعرفَ الكيفيةَ التي سيكون بها الولدُ فأجابه الله تعالى بما أشارت إليه الآيةُ الكريمة في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ..﴾ أي: مع هذا الحالِ الراهنِ الذي أنت وزوجُكَ فيه سيكونُ لك الولدُ فمن امرأتكَ هذه ومنك أنت وقد بلغت هذا السِّنَ.

ثمَّ فصَّلَ تعالى ذلك بقوله الكريم: ﴿.. قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾[2]. هنالك طلبَ سيدُنا زكريا عليه السلام من ربِّه أن يجعلَ له آيةً أي إشارةً ودليلاً يتعرَّفُ به إلى الوقتِ الذي سيهبهُ اللهُ تعالى فيه ذلك الغلامِ. ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا..﴾[3].

وبالآية الثانية: ﴿..قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَـٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾: وفي يومٍ وجدَ سيدُنا زكريا نفسه في حالٍ لا يستطيعُ معهُ الكلامَ. قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝١١﴾[4].

وقد نفَّذ اللهُ تعالى وعدَه لنبيه فأصلحَ له زوجه ووهبه يحيى.

قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ ۝٩٠﴾[5].

---

(1) سورة البقرة: الآية (260).

(2) سورة مريم: الآية (9).

(3) سورة آل عمران: الآية (41).

(4) سورة مريم: الآية (10ـ11).

(5) سورة الأنبياء: الآية (89ـ90).

وقد أمرَ تعالى سيدنا يحيى أن يأخذَ الكتابَ أي التوراة بقوةٍ بأن يقومَ بتبليغها على حقيقتها مبيِّناً شذوذَ الناس عنها بجرأةٍ لا يخشى في الحقِ لومةَ لائمٍ، وآتاه الله تعالى الحُكْمَ صبياً، أي علَّمه كيفيةَ وضعِ كلِّ حُكْمٍ من أحكامِ التوراةِ في موضعه شرحاً وتبياناً وإيضاحاً لحكمته العليّة. فقال تعالى: ﴿ يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢ ﴾. ثمَّ بيَّن لنا تعالى ما انطوى عليه قلبُ هذا النبي الكريم من الحنانِ وما تحلَّتْ به نفسُه من الزكاة أي الطهارة وبيَّن تعالى أنَّ الحنان والطهارة النفسية إنَّما يشتقُها العبدُ من اللهِ تعالى فقال: ﴿ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗ ﴾. ثم بيَّن لنا تعالى أن التقوى أي الاستنارةُ بنورِ الله تعالى هي الأصلُ لا بل هي الطريقُ الموصلةُ إلى الحنانِ والزكاةِ فقال تعالى: ﴿ وَكَانَ تَقِيّٗا ١٣ ﴾ ثم أتبع ذلك بقوله الكريم: ﴿ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ١٤ ﴾[1]. والآن بعد أن بيَّنا قصةَ سيدنا زكريا ويحيى عليهما الصلاةُ والسلامُ لا بدَّ وأن نتعرَّضَ إلى نقطةٍ هامةٍ كثُرتْ فيها الأقاويلُ الباطلةُ، فقال الذين لم يدققوا في كلامِ الله ولم يعطوه حقَّه من التدبُّر والإمعان أن زكريا ويحيى عليهما الصلاة والسلام قتلَهما اليهودُ وذكروا بهذا الخصوصِ قصةً ملفَّقةً وكان مما قالوه أن اليهودَ لما جاءهم سيدنا يحيى بالبيِّنات عارضوه وادَّعوا أن ما جاء به مخالفٌ لما عرفوه ولذلك صمَّموا على قتله، ولمَّا قتلوه فرَّ أبوه سيدنا زكريا عليه السلام مستخفياً وفي طريقه مرَّ على شجرةٍ عظيمةٍ وقد أرادت الشجرةُ أن تؤويه إليها فانشقَّ جذعُها له وما إن أوى إلى الجذعِ حتى انطبقَ عليه وأخفاهُ غير أنَّ الشيطانَ اجتذبَ طرفَ ثوبِ سيدنا زكريا وبذلك استطاع الخُصُومُ أن يعرفوا مكانه فنشروا الجذعَ نشراً ولمَّا وصلَ المنشار إلى أمِّ رأس سيدنا زكريا تأوَّه ألماً فناداه ربه يا زكريا لئن تأوَّهت ثانيةً لأرفعنَّ اسمك من ديوان النُبوَّةِ.

---

(1) سورة مريم: الآية (12ـ14).

والآن وبعد أن عرضنا موجزاً لهذه القصةِ الموضوعةِ نقول: إنَّ نظرةً واحدةً إلى هذه القصة تشهدُ ببطلانها من وجوهٍ عديدةٍ وبقليلٍ من التفكيرِ نستطيعُ دحضها، ونستطيع الآن أن نثبت أنَّ سيدنا يحيى ﵇ لم تقتله اليهودُ لنتوصَّلَ من ذلك إلى نقضِ القِصة وبالتالي إلى ردِّ ذلك الزَّعْمِ القائلِ بنشرِ سيدنا زكريا ﵇.

إنَّ التصديق بأن سيدنا يحيى ﵇ قتلَهُ اليهودُ فيه مواضعُ لاعتراضاتٍ كثيرةٍ يكفي أن نُوردَ واحداً منها فنقولُ: لقائلٍ أن يقولَ إذا كان اللهُ تعالى عليماً فكيف وعدَ سيدنا زكريا بأن يهبه وارثاً لمقامه في الدلالة على الله ثم جاء اليهودُ وقتلوا سيدنا يحيى في حياة أبيه؟. وإذا كان تعالى قديراً فكيفَ استطاع اليهود بقتلهم سيدنا يحيى أن يحولوا دون تنفيذ أمر الله تعالى؟ وهكذا فالتسليمُ بهذه القصةِ معناهُ أن الله تعالى ليس بعليمٍ ولا قديرٍ (وحاشا لله)، وبما أن الله تعالى عليمٌ لا يعزبُ عن علمهِ شيءٌ، قديرٌ لا تحولُ إرادةٌ دون إرادتهِ فهذه القصةُ موضوعةٌ لا أصلَ لها باطلةٌ من أساسها وقد شهدَ القرآنُ الكريمُ بكذبها، فقد ذكرَ لنا تعالى في معرض الكلام عن سيدنا يحيى بما أشارت إليه الآياتُ الكريمة في قوله تعالى: ﴿ **يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾** ﴾[1].

وحيث أنَّ السلامَ من الله تعالى هو الأمانُ وإذا كان اللهُ تعالى ذكرَ في كتابه الكريم أنَّ السلامَ على يحيى يوم يموتُ فمعنى ذلك أنه لم يجرؤ أحدٌ على التعرُّضِ له وهكذا فقد عاشَ سيدنا يحيى بعد أبيه وقامَ مقامَ المُرشدِ لأتباع أبيه فكان دليلاً لهم على الله وسلامٌ عليه يوم وِلِدَ ويومَ يموتُ ويومَ يُبعثُ حياً.



(1) سورة مريم: الآية (12ـ15).

الأسئلة

1) لماذا جعل تعالى كفالةَ السيدة مريمَ عليها السلام تقعُ عند سيدنا زكريا عليه السلام؟.

2) ما هو الرِّزْقُ الذي كان يجدُه سيدنا زكريا عليه السلام عند السيدةِ مريمَ عليها السلام؟.

3) هل كان سؤالُ سيدنا زكريا عليه السلام بقوله ﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ** ﴾ سؤالَ المستغرب المتعجبِ؟.

4) اشرح قوله تعالى: ﴿ **يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾** ﴾.

5) عدِّدِ النقاطَ المهمةَ التى تبينُ كذبَ وضلال من يقول أن سيدنا يحيى عليه السلام قتله كفرةُ اليهودِ.





فهرس

الفصل الثاني:

الفصل الثالث:

الحمد لله رب العالمين

هدية مجانية قيِّمة

لا يجوز بيع هذا الكتاب